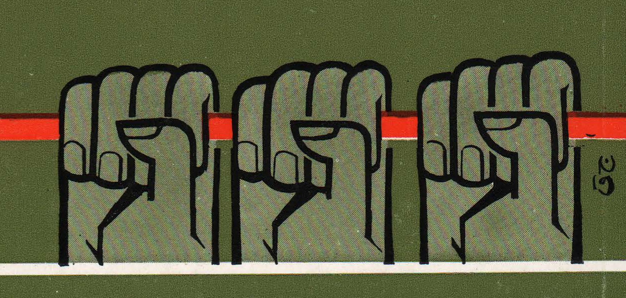


اسحق دويتشر

ترجمة جورج طرابيشي





دار الآداب

إسحق دويتشر

الإنسان الاشتراكي

ترجمة

جورج طرابيشي

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الثانية

حزيران (يونيو) ١٩٨١

تقديم

قال إسحق دويتشر في مقابلة تلفزيونية له في تموز ١٩٦٧ – أي قبيل وفاته بأسابيع قليلة – إن الحلم الذي نذر له حياته ككاتب هو أن يكون « ترجمان الثورة الروسية » التي هي « أعظم حدث في عصرنا » . ولقد أنجز من هذا الحلم شوطه الأكبر : ففضلاً عن كتاباته الكثيرة المتفرقة، ترك لنا سيرة حياة ستالين في مجلد ضخم ، وسيرة حياة تروتسكي في ثلاثة مجلدات يفوقه كل واحد منها ضخامة ، وباشر في تأريخ سيرة حياة لينين في مجلدين . بيد أن يد المنون عاجلته فحالت بينه وبين إنجاز هذه الثلاثية التي أرادها أن تكون ، من خلال سيرة حياة قادة الثورة البلشفية الثلاثة الكبار ، « محاولة في التحليل الماركسي لثورتنا المعاصرة » .

لقد استغرق دويتشر سنوات عديدة في الإعداد لـ « لينين » ، الجزء الثالث والأخير من ثلاثيته ، ولكنه لم ينجز منه غير فصل أول عندما وافته المنية . وهذا الفصل هو الذي نقدمه اليوم إلى القراء العرب بالعنوان الذي اختارته له تامارا دويتشر ، زوجته وأرملته : « حداثة لينين » .

ودويتشر – لحسن الحظ – ليس بضيف جديد على المكتبة العربية .

فثلاثة من كتبه تحتل مكانها الآن بين سائر المترجمات « ستالين »[1] و « دراسات في المسألة اليهودية »[2] و « الثورة التي لم تتم »[3] . ولئن كان يخامرنا شيء من الاعتزاز لأننا كنا أول من قدم دويتشر إلى القارىء العربي ، وذلك عندما ترجمنا ثلاثاً من دراساته في « تجارب اشتراكية » الصادر عام ١٩٦٦ عن دار الآداب[4] ، فإن قدراً اكبر من الأسى يساورنا إذ نقدم له في الدار نفسها آخر ما كتب .

ولعل في قولنا « آخر ما كتب » شيئاً من التجاوز . فآخر ما كتبه دويتشر كان في الحقيقة حديثاً أدلى به إلى « مجلة اليسار الجديد » البريطانية في ٢٣ حزيران ١٩٦٧ ، وأدان فيه بلا استثناف العدوان الإسرائيلي على الأمة العربية في ٥ حزيران ١٩٦٧ . ولكن نظراً إلى أن ذلك الحديث نشر في « دراسات في المسألة اليهودية » ، لذا فإن تامارا دويتشر لم تدرجه في الكتاب الذي نقدمه اليوم إلى القارىء العربي .

إن هذا الكتاب يضم ، فضلاً عن الفصل الأول من سيرة لينين ، خمسة نصوص تكفي عناوينها وحدها للدلالة على مدى أهمية المشكلات التي تتناولها بالتحليل المفصل تارة والمقتضب طوراً : « الماركسية في عصرنا » و « الانسان الاشتراكي » و « جذور البيروقراطية » و « حول الأممية والنزعة الأممية » و « التيارات الأيديولوجية في الاتحاد السوفياتي » .

وفي هذه النصوص يبرز وجه دويتشر منظّراً ماركسياً ثورياً من غير ثرثرة وأوهام ، وواقعياً من غير مساومة واستسلام .

---

١ دار الطليعة – بيروت ١٩٦٩ .

٢ دار الحقيقة – بيروت ١٩٧١ .

٣ دار دمشق – دمشق ١٩٧٠ .

٤ الدراسات الثلاث هي : « الماوية » و « فشل الخروتشيفية » و « تيارات الشيوعية الثلاث » .

ولعل أهم ما يميز تفكير دويتشر هو تفاؤله . والتفاؤل ليس بموقف سهل بالنسبة إلى ماركسي من الغرب حيث تشير جميع الظواهر إلى أن مسألة الثورة الاشتراكية قد شطبت من جدول أعمال التاريخ لأجل غير مسمى حتى الآن . ودويتشر لا يكتمنا بأنـه قد يبدو في نظر بعضهم طوبائياً ، ولكن هذا لم يمنعه من الإعراب عن ثقته قبيل وفاته بأيام بأن القرن العشرين لن تطوى صفحته الا ويكون قد قام في العالم شيء اسمه « ولايات أوروبا الاشتراكية المتحدة » ، كما يكون الاتحاد السوفياتي قد أنجز بناء الاشتراكية بعد أن يتحرر نهائيـاً من شوائب التركة الستالينية ويقلص يـوم العمل إلى ثلاث أو أربع ساعات . أما بالنسبة إلى قلعـة الرأسمالية العالمية ، الولايات المتحدة الأميركية ، فإن دويتشر لا يتوقع لها مصير أوروبا ، بل يبدي تخوفه على العكس من أن تتحجر وتتقوقع على نفسها خلال ربع القرن القادم ، فتحاول أن تبرر عزلتهـا ، كما فعلت الستالينية قبل نصف قرن من الزمن ، بنظريـة عن « الرأسمالية في بلد واحد » . ولكن كما أن الاشتراكية في بلد واحد « لم تكن إلا مرحلة في تطور روسيا ، كذلك فإن الرأسمالية في بلد واحد لن تكون إلا مرحلة في تطور أميركا » .

إن انتصار الاشتراكية في الاتحـاد السوفياتي وأوروبا وآسيا وأفريقيـا سيجعل من العالم لأول مرة في التاريخ واحداً . وتفـاؤل دويتشر بهذا الخصوص لا يعرف من حدود : « ما دامت البشرية قد اندفعت تغزو الفضاء في ما بين الكواكب ، فلا مفر من أن تتحد فوق كوكبها بالذات . ولست أرى من قوة اجتماعيـة وأخلاقية قادرة على توحيد البشريـة غير اشتراكية مبنية على الحرية » .

اشتراكية مبنية على الحريـة : ذلـكم هو جوهر مذهب دويتشر ، وذلـكم هو أساس مفهومه عن « الانسان الاشتراكي » ، وذلـكم هو أخيراً

مفتاح موقفه من التجربة السوفياتية في بناء الاشتراكية ، تلك التجربة التي وقف عليها جل اهتماماته وكتاباته .

ولعل النقطة الأخيرة بحاجة إلى شيء من التوضيح .

إن دويتشر يرى أن الموقف الوحيد الممكن ، من وجهة النظر الماركسية ، هو موقف التضامن مع « أعظم حدث في عصرنا » .

ولكن التضامن الوحيد الممكن هو التضامن النقدي .

ذلك أن شروطاً تاريخية عديدة ومعقدة قد شاءت ألا يأتي النموذج العيني الأول للمجتمع الأشتراكي متطابقاً مع النموذج المثالي المجرد الذي رسمت الماركسية الكلاسيكية خطوطه ومعالمه البدائية . والعلاقة الجدلية بين واقع النموذح ومثاله هي التي تحدد جدل التضامن والنقد . فالتصامن واجب بقدر ما أن النموذج واقعي ، والنقد ضروري بقدر ما أن هناك هامشاً من الطلاق بين الواقع والمثل الأعلى .

التضامن من غير نقد لا يعود تضامناً بل ولاء .

والنقد من غير منطلق التضامن لا يعود نقداً بل عداء .

ورب قائل يقول : هذه بديهيات ، بل عموميات لا تتقدم بنا لا كثيراً ولا قليلاً

وهي بالفعل بديهيات وعموميات ، ولكن البديهيات والعموميات هي بالضبط ما يتناساه ذلك النفر من الناس الذي جعل من نزعة عداء الماركسية وعداء السوفييتية شغله الشاغل .

ومثل هذه النزعة المشبوهة على الصعيد النظري تصبح خطرة ومجرمة عملياً عندما تعلن عن وجودها لدى بعض الأوساط السياسية والفكرية العربية ، في وقت يمثل فيه الاتحاد السوفياتي الصديق الكبير للأمة العربية في نضالها العادل والتقدمي ضد العدوان الإسرائيلي .

وأياً تكن بالأصل الانتقادات التي يوجهها دويتشر إلى المخلفات

الستالينية في الحياة السوفيتية المعاصرة ، فإنه لا يتوجه إلى أولئك الذين اتخذوا من عداء السوفييتية مبدأ دائماً وحرفة . وانتقاداته لا يمكن أن تكون سلاحاً في أيدي هؤلاء ، لأن الأساس الذي ينطلق منه هو التضامن والرغبة الصادقة في أن يتخلص المجتمع السوفياتي بأسرع ما يمكن من شوائبه .

إن منطق « الواقعية الوردية » قد ولى إلى غير رجعة . ولهذا أصبح النقد ممكناً ، يمارسه أول من يمارسه – وإن في حدود – الكتاب السوفياتيون أنفسهم .

ولكن إذا كان منطق الواقعية الوردية قد فقد مبررات وجوده ، فإن منطق عداء السوفييتية قد افتضح أمره بصورة نهائية بوصفه منطقاً رجعياً لا يخدم غير مصالح القوة الأمبريالية المناهضة للتقدم والاشتراكية .

لنأخذ على سبيل المثال موقف دويتشر من البيروقراطية السوفياتية . إنه ينتقدها بلا هوادة . ولكنه يوجه صفعة لا تقل قسوة إلى حملة لواء نزعة عداء السوفييتية عندما يؤكد أن البيروقراطية السوفياتية لا تؤلف ولم تؤلف يوماً طبقة[1] .

وغني عن البيان بعد هذا أننا لسنا ملزمين بتبني الانتقادات الصادرة عن دويتشر كافة . فالموقف النقدي من انتقادات دويتشر ضروري هو الآخر . فدويتشر في مقالته « الماركسية في عصرنا » على سبيل المثال يفترض أن الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي أصبحت « قومية » لأن ستالين تصورها كافية ذاتها بذاتها اقتصادياً وثقافياً في إطار دولة واحدة .

---

[1] لا يحجم دويتشر في تعليق له عام ١٩٥٧ على كتاب « الثورة المغدورة » عن توجيه النقد الى تروتسكي ، بالرغم مما يكن له من تقدير ، لأنه « بالغ في تقويم أهمية العنصر «البورجوازي» الكامن في البيروقراطية الستالينية » وتصور أن « البيروقراطية الستالينية تسعى الى الغاء الملكية الجماعية وأن أعضاءها قد يصبحون بسرعة كبيرة مساهمي الصناعة السوفياتية » .

والحال أن أيديولوجيا « الاشتراكية في بلد واحد » ليست هي المسؤولة، على ما يخيل الينا ، عن انحصار التطور التاريخي للاشتراكية ضمن أبعاد الأمة ، أو على الأقل ليست هي المسؤولة الوحيدة ، بل ينبغي أن نفتش عن الأسباب العميقة لذلك فيما اصطلح آنذاك على تسميته بـ « صمت الغرب » ، الغرب الذي كان مرشحاً قبل أي منطقة أخرى في العالم للقيام بالثورة الاشتراكية . وبعبارة أخرى ، إن العزلة القومية لثورة اوكتوبر ليس مردها إلى الأيديولوجيا الستالينية الانعزالية القومية عن « الاشتراكية في بلد واحد » ، بل يكاد العكس أن يكون هو الصحيح: إن نظرية « الاشتراكية في بلد واحد » هي التكريس الأيديولوجي للعزلة الواقعية . ودويتشر كماركسي عريق يعلم أن الأيديولوجيا بحاجة ، قبل أن تفسر الوقائع ، إلى أن تُفسَّر هي نفسها أولاً بالواقع . ولكن لا بد أن نضيف أن دويتشر يتدارك هذا النقص في الدراسات الأخرى في هذا الكتاب .

وثمة نقطة أخرى نود أن نلفت اليها الانتباه . فدويتشر كثيراً ما يتكلم عن « روسيا » بدلاً من « الاتحاد السوفياتي » . والحال أن « روسيا » مصطلح أيديولوجي مأخوذ مباشرة من ترسانة نزعة عداء السوفييتية ، ودلالاته المغرضة لا تخفى على القارىء . ولقد كنا نتمنى ألا يقع دويتشر في شراك اللغة الأيديولوجية السائدة في الأوساط المناهضة للماركسية والاشتراكية ، ولا سيما أن هذه الأوساط كانت اكره الأوساط على قلبه . وهذه الهنة من جانب دويتشر ينبغي أن تذكرنا بحقيقة غالباً ما نميل إلى تناسيها ، وهي أن اللغة في مجتمع طبقي قابلة هي الأخرى ، بالرغم مما يفترض فيها من شمول ، لأن تُشحن بأيديولوجيا الطبقات السائدة .

هل ثمة من شيء آخر نضيفه ؟ أجل . فنحن إذ نقدم للقارىء العربي كتاب دويتشر هذا الصادر بعد وفاته ، فإنما نأسف لشيء واحد،

وهو أننا لا نستطيع مهما بذلنا من جهد أن ننقل إلى القارىء لا أفكار دويتشر فحسب بل أيضاً أسلوبه ، ذلك الأسلوب الذي قارنه النقاد الانكليز بأسلوب تشرشل وموكولي[1] . ولدى الطليان قول سائر : « المترجم خائن » . فهل نفشي سراً لا يجوز إفشاؤه إذا قلنا إن شعوراً من هذا القبيل ساورنا ونحن نترجم دفاع دويتشر الحار هذا عن « اشتراكية مبنية على الحرية » ؟

جورج طرابيشي

---

١ علماً بأن دويتشر لم يتعلم الانكليزية ، التي ستصبح أداته الرئيسية للتعبير ، إلا في وقت متأخر. وقد كتب أولى مقالاته بالانكليزية (نشرت في الايكونوميست) في عام ١٩٣٩ مستعيناً بالمعاجم وكتب النحو والصرف .

حداثة لينين

يحيط الإبهام بمنابت أسرة أوليانوف إلى حد الإلغاز . والوثائق المتوفرة عنها لا تعود إلى اكثر من النصف الأول من القرن التاسع عشر . وبعبارة أخرى ، تتوقف عند جد لينين ، نيقولا فاسيلييفتيش أوليانوف . وعن هذا الأخير قال أخلافه ، في أكثر من مناسبة ، إنه كان موظفاً صغيراً أو مستخدم ديوان يقيم في مدينة استراخان . ولحقبة طويلة من الزمن عد كتَّاب سيرة لينين هـــذا الوصف صحيحاً ، وصوروا آل أوليانوف ، بداعي المواءمـــة السوسيولوجية ، وكأنهم أسرة نموذجية من الانتلجانسيا الكادحة الروسية . ولو كان هذا التأويل صحيحاً ، لما أمكن بصورة من الصور تفسير الندرة الشديدة في المعلومات المتعلقة بها . فقد كان أعضاء الانتلجانسيا الروسية ، رجالاً ونساء ، أناساً يتقنون فن التعبير عن أنفسهم والتواصل فيما بينهم ، وكان الكثير منهـــم يسجل مذكراته الشخصية . كذلك كانت السجلات المدنية العامة تتضمن لا إشارات إلى مجرى حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية فحسب ، بل تتضمن أيضاً ، وفي غالب الأحيان ، تقديرات لمشاعرهم السياسية . فلمَ يتوارى تاريخ أسلاف لينين ، والحالة هذه ، خلف إغفال عميق ؟ إن هذه الواقعة لتدل بذاتها على أن الأسرة، قبل لينين بجيلين أو ثلاثـــة ، كانت ما تزال مغمورة في سواد الطبقة

الفلاحية ، لأننا لا نعثر إلا بين الفلاحين وبين أفقر فقراء سكان المدن على أناس عاشوا وماتوا – والجيل المغمور والأمي يعقب الجيل في أغلال العبودية – من دون أن يخلفوا آثاراً مكتوبة عن وجودهم . فالأسر الفلاحية ، التي كانت ملكاً لمولاها ، ما كانت تملك هوية خاصة بها . كان للقن اسم بالمعمودية وكنية – وكان هذا ضرورياً على الأقل للقيّم على الأعمال وللمناظر العام التابع لسيد هذا العالم ، وكذلك لقوى العالم الآخر السماوية – ولكن كان في وسعه الاستغناء عن اسم أسرة ولم يكن له فيه من حق أصلاً . وعلى كل الأحوال أبانت الأبحاث التي أجريت على سجلات أستراخان أن اسم الأسرة لم يكن قد تحدد بعد بوضوح قبل أربعين عاماً من ولادة لينين ففي حوالي عام ١٨٣٠ كانت السلطات البلدية قد شرعت تأخذ بعين الاعتبار ، إلى حد ما ، وجود جد لينين ، ولكنها كانت تشير إليه بثلاثة أسماء مختلفة وإن متقاربة الوقع : أوليانوف وأوليانينوف وأوليانين . ومن المؤكد أنه لم يكن المقصود بذلك ثلاثة أفراد متمايزين ، لأن اسم المعمودية والكنية والعنوان والمهنة كانت متطابقة . ولا مراء في أنه هو نفسه ما كان يعرف حق المعرفة بعد كيف يُسمى: فقد اكتسب اسمه منذ عهد قريب ، ولم يتح له الوقت بعد ليتآلف مع جرسه ، وهو ما يزال يتساءل عن الرسم الإملائي لحروفه الأخيرة . أضف إلى ذلك أن حيازة الاسم اقترنت بحيازة أخرى في منتهى التواضع: شراء منزل صغير مشاد على جرف رملي في واحد من أفقر أحياء المدينة على مقربة من الميناء . وقد سجل هذا العقد في سجلات الإحصاء الذي شمل في ٢٩ كانون الثاني ١٨٣٥ جميع ملاك العقارات في استراخان . ومن هذه الوثيقة على وجه التحديد تتأتى معظم المعلومات عن جد لينين.

كان نيقولا فاسيلييفيتش أوليانوف قد رأى النور عام ١٧٦٥ . وكان له من العمر، زمن الإحصاء، سبعون عاماً . وكانت زوجته ،آنا الكسييفنا سميرنوف ، التي تصغره بخمس وعشرين سنة ، قد أنجبت له اربعة أولاد،

صبيين وبنتين : فاسيلي ، ١٣ عاماً ، ماريا وفريدوسيا ، ١٢ و ١٠ أعوام ، وأخيراً إيليا ، والد لينين مستقبلاً ، وكان له من العمر يومئذ عامان فقط . وقد ورد ذكر عنوان نيقولا فاسيلييفتيش على النحو التالي: « الرقم ٢٢٧ ، القسم الأول من الحي الأول » . وعدم ورود اسم الشارع يدل على أن السكنى كانت في ضاحية فقيرة تناثرت فيها اكواخ بائسة . وقد أطلق فيما بعد على الحي كله (أو على جزء منه) اسم شارع كوساك ، وبعد الثورة اسم شارع ستيبان رازين . أما المنزل ، الذي كان قد ظل قائماً ، فقد أعطي الرقم ٩ . وكانت الضاحية ، التي يقع فيها الشارع والتي كانت تسمى بـ « كوسا » عبارة عن بحيرة شاطئية تقع عند سفح « زاياشي غور » (جبل الأرانب) . وكانت تتكدس فيها اكواخ يقطنها المعسرون من الناس وحرفيون فقراء وبحارة وجنود مسرحون جاؤوا للاقامة فيها بعد خمسة وعشرين عاماً من الخدمة العسكرية . كانت منطقة موبوءة ، وكانت الكوليرا قد أبادت قسماً من سكانها قبل خمسة أعوام من الإحصاء . وقد ابتاع نيقولا فاسيلييفيتش منزله من ف. ليباييف ، وهو رئيس عمال في مصنع للبنادق تابع للجيش . وكان يسدد ثمنه بالتقسيط ، ولم يكن حتى عام ١٨٣٥ قد حصل على سندات الملكية[1]. ولكن لما كان في وسعه إبراز إيصالات أقساطه ، فقد ارتضت السلطات بمنحه صفة « الميشانين » أي المواطن المديني ، بالرغم من أنها كانت تجهل الثمن الحقيقي للمنزل .

لقد كان على جد لينين إذن أن ينتظر حتى سن السبعين حتى يحظى رسمياً بالاعتراف به مواطناً في أستراخان . بيد أن وثيقة أخرى تشير إلى أنه كان قد قطن المدينة قبل ذلك بخمسة عشر عاماً ، أي على الاقل منذ عهد زواجه بآنا ، ابنة الكسيس سميرنوف . ولا مراء في أنه كان ينتمي

---

١ كان مبلغ الايصالات الاجمالي ٢٦٠ روبلا ، وكان ثمن المنزل ٧٩٠ روبلا .

أنذاك إلى سواد الناس ممن كانوا يعيشون داخل المدينة وحولها دون أن يتمتعوا بحق المواطَنة . من كان هؤلاء الناس ؟ كان السكان الاصليون في أستراخان ، التي كانت فيما غبر عاصمة خانات التتار ، يتألفون من تتار وكيرخيزيين وقالموكيين . وكانت نسبة ضئيلة للغاية منهم من أرومة روسية أو اوكرانية . ولم يكن للسكان الذين من أصل مغولي من حقوق البتة . وكانوا يعاملون معاملة العنصر المغلوب على أمره . وكان في وسع الارستقراطيين الروس استرقاقهم متى شاؤوا ، ولكنهم نادراً ما كانوا يفعلون ذلك بصورة جماعية : فقد كانت الاراضي الزراعية قليلة والحاجة إلى اليد العاملة محدودة في تلك الأقاليم المتوحشة والصحراوية ، التي تسفعها الرياح والتي تحف بالبحر القزويني وتقع عند تخوم الأمبرطورية . بيد أن تجارة الرقيق كانت ما تزال قائمة في بعض أشكالها في مستهل القرن التاسع عشر : فقد كان التجار الروس يخطفون ويبيعون أو يشترون أطفال القالموكيين والكيرخيزيين . وقد نص قانون يعود تاريخه إلى عام ١٨٠٨ على وجوب عتق هؤلاء الأولاد في سن الخامسة والعشرين . ولم يحظر الرق صراحة إلا بعد حوالي عشرين عاماً . وقد تم العثور على وثيقة شرعية ، يعود تاريخها إلى عام ١٨٢٥ ، تأمر أحد تجار أستراخان بعتق خادمته ، الكسندرا أوليانوفا . ويرتأي أحد المؤلفين الروس أن المذكورة كانت قريبة لنيقولا أوليانوف ، وربما أخته . وإذا صح هذا الفرض ، فهذا معناه أن جد لينين لم يكن روسياً ، بل تترياً أو قالموكياً . وثمة تفاصيل أخرى أخرى تؤكد هذه الفرضية ، وليس من أقلها زواج نيقولا أوليانوف من ابنة قالموكي . وبالمقابل كان أوليانوف عضواً في الكنيسه الأورثوذكسية الشرقية . أفمن الممكن أن يكون قد اهتدى إلى النصرانية ، مثله مثل حميه وبعض القالموكيين أو التتريين ؟ لم يتم حتى اليوم اكتشاف أي وثيقة تورد ذكر ذلك . وإذا كان روسياً فمن أين قدم ولماذا وقع اختياره على أستراخان للتوطن فيها ؟ إن القلة القليلة من الروس الذين كانوا يعيشون

فيهـا يومذاك كانت تنتمي ، في مطلق الأحيان تقريبـاً ، إلى الطائفة البيروقراطية الحاكمة أو إلى الأسر التجاريـة الموسرة . أما الباقون فكانوا بوجه عام فلاحين أو أرقـاء هاربين أو أقناناً سابقين اشتروا حريتهم . وكانت أستراخان تجتذبهم بنأيهـا ، وبوضعها كمدينة مفتوحة يمكن فيها للإنسان أن يتنفس بحرية : فالهارب اللاجىء اليها غير مهدد بأن توضع القيود في معصميه وبأن يساق من جديد إلى مولاه . أضف إلى ذلك أن من كان قناً وانعتق كان يستطيع أن يأمل في كسب حياته فيها ، لأن المنطقة كانت تشهد ازدهاراً متعاظماً وسريعـاً . كانت الأمبراطورية تمتد جنوباً وشرقـاً ، وكانت المدينة تتحول إلى سوق ضخمة ، وكان جزء لا بأس به من التجارة الروسية مع آسيا ، ولا سيما مع إيران ، يمر بمرفئها، على الأقل في العصر الذي ما كان فيه تطور أوديسا قد أهلّها بعد لتصبح منافسة خطرة . وكانت أسر أستراخان التي تتعاطى التجارة تكدس ثروات هائلة بفضل الصيد البحري والكافيار واستيراد الحرير وتصدير الخيول ، وكذلك بفضل احتكار الملاحة عند مصب الفولغا . وكانت بعض هذه الأسر قد أسسها أقنان سابقون ، وكان نجاح هؤلاء الباهر يشحذ آمـال نظرائهم ، فيهرعون إلى المدينة جماعات وزرافات ملبّين حاجتها إلى اليد العاملة الرخيصة . وكانوا يعملون على أرصفة الميناء أو يتعلمون مهنة ويستقرون كحرفيين مستقلين . وجميع الدلائل تشير إلى أن نيقولا أوليانوف كان ينتمي إلى هذه الفئة : فهو لم يكن لا موظفاً ولا مستخدم ديوان ، وإنما كان خياطاً . بيد أننا نجهل أكان يعمل لحسابه الخاص أم لحساب معلم . ولقد تزوج بعد أن تصرم شطر كبير من حياتـه : في الخامسة والخمسين وربما اكثر . فما علة ذلك ؟ هل لأنه وجد نفسه مكرهاً في شبابه على حرمان نفسه من مكاسبه الزهيدة حتى يسدد لسيده السابق ثمن عتقه ؟ أم لأنه وجد نفسه مضطراً إلى الانتظار قبل أن يؤسس أسرة ، إلى حين سداد دينه بكامله ؟ مهما يكن من أمر ، فإنه ما أفلح في الترقي

اجتماعياً ولبث في فقر مدقع حتى آخر حياته . وفي السبعين من العمر كان قد ادخر بعد لأي مبلغاً كافياً لشراء منزله المتواضع بالتقسيط . ومع ذلك وجد نفسه مكرهاً ، سداً للعجز في كسبه ، على تأجير سقيفته ، تاركاً له ولزوجته وأولاده الطابق الأرضي .

ولا ريب في أنه كان قد تعب من الحياة عندما منح ، وهو في السبعين ، لقب « الميشانين » . وكانت هذه الكلمة البولونية المصدر (ومعناها مواطن) تستخدم في روسيا للاشارة إلى ساكن المدن ، من بورجوازي صغير أو تاجر صغير أو ملاك صغير ، على اعتبار أن جميع هذه الفئات كانت تؤلف مرتبة واحدة في المدن الإقطاعية الطابع . ولئن كان هؤلاء أحراراً بالمقارنة مع الأقنان ، فإنهم ما كانوا يتمتعون بالمقابل بالاستقلال الذي كان يتمتع به جميع البورجوازيين الأوروبيين ، أو حتى البولونيين . فقد كانوا معرضين للعقوبات الجسدية ، ومقيدين في حريتهم في الحركة . ولم تكن لهم حقوق سياسية . ولئن كانوا خاضعين للضريبة، فإنهم ما كانوا ينتخبون ولا يساهمون في انتخاب أي هيئة ، تمثيلية سياسية أو حتى بلدية . وكانت طبقتهم ملزمة بتقديم عدد محدد من المجندين إلى الجيش . ولكن ما كان مباحاً لهم أن يشغلوا مناصب في الوظيفة العامة ، إلا بإذن خاص من القيصر أو وزرائه . ولقد راحت هذه السُنة تتراخى رويداً رويداً مع تضخم الجهاز البيروقراطي وحاجته إلى عدد متعاظم من الموظفين ، ولكنها كانت ما تزال تطبق بصرامة في مستهل القرن الماضي . وهكذا كان الفلاح الذي يملك ما فيه الكفاية من الطموح لكي ينتزع نفسه من نير العبودية ويحلم بأن يصير « ميشانين » ذات يوم ، يكتشف بعد أن يحقق مطمحه لقاء جهود ومصاعب جمة أنه ما يزال وأولاده في مأزق ، محكوماً عليهم بالاسترقاق .

إن مؤرخ سيرة لينين ليفاجأ على الدوام بما تدلل عليه أسرة أوليانوف من جهل بمنابتها الاجتماعية . « إنني لا أعرف شيئاً عن جدي » :

هكذا أجاب لينين رداً على استقصاء، وكأن الانتبـــاه إلى هذه الحقيقة قد أدهشه . وكانت آنا إليزا فورا تعتقد بأن جدها كان يعمل في مكتب ؛ وكانوا جميعاً يعدون أنفسهم ممثلين نموذجيين للانتلجانسيا . وعلى كل ، وإذا ما ذهب الفكر بنا إلى البيت الذي شب فيه لينين وإلى الحياة العائلية التي عاشها أصغر أبناء خياطنا الأستراخاني ، خامرنا شعور اكيد بأننـــا واجدون في ذلك جذوراً بورجوازية راسخه وتقاليد فكريـــة مغروسة منذ أمد بعيد . وصحيح أنه غالباً مـــا يسعى محدثو النعمة إلى كتمان وضاعة منشئهم . ولكن لم تكن هذه هي الحال مع آل أوليانوف . فقد كانوا لا يبالون البتـــة ، وإلى حد يبعث على الدهشة ، بمركزهم الاجتماعي . فقد كانوا يتقبلونه كما هو ويقنعون به . والواقع أنهم كانوا يجهلون جهلاً مطبقاً أصولهم . فلقد توفي نيقولا فاسيلييفيتش المتضع الحال بعد عـام أو اثنين من توقيع الصك الذي جعل منـــه مواطناً أستراخانياً . ولقد شب أصغر أبنائـــه ، إيليا ، الذي كان لـــه من العمر خمسة أعوام أو سبعة يومئذ ، من دون أن يتذكر شيئاً عن والده ، وهذا مـــا يفسر امتناعه فيما بعد عن تحديث أبنائه عن جدهم . وكان أخو إيليا البكر ، فاسيلي ، قد أدرك السابعة عشرة عند وفاة والدهما ، فصار معيل الأسرة كلها . كان يراوده الأمل في الدراسة وفي الارتقاء في المجتمع ، ولكنه لم يجد مناصاً من النكوص عن مطامحه ومن العمل بائعاً . فصار ينقل على عربته براميل الملح إلى الزبائن . ولقد نذر جسمه وروحه معاً لتربية أخيه الأصغر ، إذ عقد العزم على أن يحقق لإيليا ما عجز هو عن تحقيقه لنفسه . ولقد أمكنه أن يأخذ بيد أخيه حتى أتم دراسته ، ولكن مقابل تضحيات باهظة اضطرته إلى ادخار كل كوبيك وإلى البقاء عازباً . وقد يسر الأمور بعض الشيء صديق للأسرة يدعى نيقولا ليفانوف ، وكان كبيراً للكهنـــة في أبرشية مجاورة وعراباً لإيليا ، إذ ضمن لهذا الأخير مقعداً في معهد المدينة التعليمي ومعونـــة غير منتظمة لسد نفقات الدراسة . وقد أشرف الكاهن

أيضاً على تربية إيليا . وعندما بلغ هذا الأخير مدارك الرجال كان ما زال يتكلم بأعظم عرفان الجميل عما فعله أخوه البكر وعرابه في سبيله . ونستطيع نحن أن نلحظ سمتين بارزتين اثنتين في أسرة أوليانوف في تلك المرحلة · متانة روابطهم العائلية ومتانة قناعاتهم الدينية . وقد ظل والد لينين ، الذي كان ينتمي إلى الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية ، مؤمناً يؤدي واجباته الدينية حتى خاتمة حياته . ولينين نفسه لم يكف عن الإيمان حتى عامه السادس عشر . ولا مراء في أن كبير كهنة الأبرشية ذاك قد وسم بميسمه مقدمات حياة أشهر ملحدي التاريخ وأشرسهم نضالاً . أما العاطفة التي كانت تجمع بين أعضاء أسرة أوليانوف فقد صمدت لجميع رياح الانقلابات الأيديولوجية التي سيعرفونها في المستقبل .

وجاءت نتائج إيليا نيقولا ئيفيتش في المعهد الدراسي لامعة : فقد تخرج في عام ١٨٥٠ ، وله من العمر تسع عشرة سنة ، حاملاً ميدالية فضية ، وهي أول ميدالية تُمنح منذ تأسيس المعهد قبل نصف قرن من الزمن . بيد أن دبلومه كان يحمل هذه العبارة القاطعة : « لما كان أوليانوف يتحدر من طبقة غير طبقة النبلاء فإن هذا المؤهل لا يبيح له أن يحصل على منصب في الخدمة العامة » . وبالرغم مما قد يخيل الينا للوهلة الأولى ، عاد هذا البند بالنفع على المتخرج الجديد : فقد حال بينه وبين سلوك طريق ما كان ليجعل منه غير موظف صغير ، وحفزه على السعي إلى تسجيل نفسه في جامعة كازان . ولم يكن هذا المسعى يخلو من جرأة، لأنه لم يسبق أن قبل أي تلميذ من معهد أستراخان في تلك الجامعة ، على اعتبار أن الدراسات الجامعية كانت وقفاً هي الأخرى بصورة عامة ، على أبناء الطبقات العليا . بيد أن إيليا نيقولائيفيتش تقدم مع ذلك بطلب انتساب ومنحة دراسية . وبعد بعض العثرات والمصاعب ، وبعد تدخل مدير معهد أستراخان ، قُبل طلبه . ولكنه حُرم من المنحة الدراسية التي لا تمنح ، على حد تعبير رسالة عميد الجامعة إلى المدير ، إلا إلى

الموظفين « لتمكينهم من توفير التربية بسهولة أكبر لأولاوهم . وليس هناك من سبب ... لقبول أوليانوف الذي ينتمي إلى الطائفة الدنيا ... في عداد المتفيدين من المنح الدراسية » . ولكن فاسيلي الوفي كان حاضراً لتوفير الكوبيكات والروبلات الضرورية . وسرعان ما أضحى إيليا قادراً على أن يكسب بنفسه بعض المال بإعطاء دروس خاصة لأبناء تجار كازان.

في أواسط القرن التاسع عشر كانت جامعة كازان ، التي لا وجود لغيرها في أقاليم روسيا الشرقية كافة ، تجتذب اليها أعداد الشبان القادمين من جميع المدن الواقعة على ضفاف الفولغا . وكانت قد أسست منذ عهد قريب ، في عصر الحروب النابوليونية ، في جو من الكسل الفكري ومن سياسة التجهيل اللذين تتصف بهما عادة فترات الجزر والتراجع . ولكنها كانت قد أصبحت واحداً من مناهل العلم الرفيعة بفضل عبقرية نيقولا . إ. لوباشيفسكي ، رائد الهندسة اللاإقليدية ، الذي شغل فيها منصب العميد نحو ما يقارب عشرين عاماً . وعندما انتسب إيليا أوليانوف إلى كلية الفيزياء والرياضيات ، كان لوباشيفسكي قد أحيل على التقاعد ، ولكنه كان ما يزال يهتم بعمل نوابغ الطلبة . وكان إيليا واحداً منهم . كان به ولع حقيقي بالعلوم والرياضيات . وبالرغم من وهن صحته كان يعمل بكد ولا يضيع لحظة واحدة . وفي عام ١٨٥٤ حصل على الدبلوم بفضل أطروحة عن منهج « أولبرس » وتطبيقه على « التقويم الفلكي لمدار المذنَّب كلينكبرفوس » . وبعد ذلك بعام واحد أصبح أستاذاً بكرسي للفيزياء والرياضيات في معهد دفوريانسكي الموقوف على أبناء النبلاء في بنزا ، وهي إحدى المدن الرئيسية في أقاليم الفولغا . وقد حصل على هذا المنصب بناء على توصية لوباشيفسكي الذي وقع قرار تعيينه ، والذي كان لرأيه الفضل في إيكال مهمة الإشراف على محطة الأرصاد الجوية المحلية إلى إيليا أيضاً .

كانت بنزا مدينة صغيرة ضائعة في مؤخرة إقليمها ، مدينة كئيبة ،

خاملة ، تهيمن عليها الروح الطائفية ، ولم تكن مدرستها ، الممولة بأموال خاصة ، تشبه من قريب أو بعيد مركزاً نموذجياً للتربية . وكان مستوى التعليم متدنياً ، وكان أبناء النبلاء كسالى ، مشاكسين ، متعالين حتى على أساتذتهم . وكان هؤلاء الأخيرون لا يستلمون رواتبهم إلا بعد طول تأخير . فقد كان النبلاء لا يتبرعون بهباتهم إلا بعد تأنيب وتقريع في أعقاب إلغاء القنانة عام ١٨٦٠ ، وكانت مالية المدرسة تشكو من العسر والقلة أكثر منها في أي وقت سبق . وكان المفتشون الاكاديميون يكتبون التقارير اللاذعة عن أفول المدرسة . إلا أن اثنين منهم على الاقل ، وهما الشيخ (السيناتور) صافونوف الذي زار معهد دفوربانسكي عام ١٨٥٦ والمفتش بوستل الذي كتب تقريراً عنه بعد ذلك بثلاثة أعوام ، قد أشارا إلى النتائج الباهرة المحرزة في الرياضيات والفيزياء « بفضل الاستاذ أوليانوف » . ويبدو أن المعلم الشاب كان يدير بفعالية مماثلة محطة أرصاده الجوية التي كانت تشكو بدورها من سوء الاجهزة وقلتها . وقد كتب عدة أبحاث عن علم الأرصاد الجوية ، وكذلك مقالة عن العواصف وعن المواد الموصلة للكهرباء ، وردت فيها إشارات عدة إلى كتب منشورة بعدد من لغات أوروبا الشرقية . وما كانت أعماله هذه لتدر عليه كسباً: فقد كان الإشراف على محطة الأرصاد الجوية مجانياً .

والتقى إيليا نيقولائيفتيش في بنزا ، في بيت زميل له هو إ. د. فيريتنيكوف ، بماريا الكسندوفنا بلانك ، أخت زوجة هذا الأخير . كان له من العمر ثلاثون عاماً ، ، وكانت هي تكبره بأربع سنوات ، وتشير جميع الشهادات إلى أنها كانت في منتهى الجمال وغاية الفتنة . وهام بها ، وقابلت حبه بحب ، ولكنهما اضطرا إلى إرجاء زواجهما إلى صيف ١٨٦٣ ، لأسباب مالية بلا ريب . وكانت بدايات حياتهما وطباعهما على درجة من الاختلاف كبيرة . فقد كانت ابنة الدكتور الكسندر بلانك ، وهو رجل غريب الأطوار يحيط بعض الغموض بشخصه ، فكره فضولي ومزاجه

حاد ، وكان حساساً بأفكار عصره التقدمية . ويوحي اسمه بمنابت ألمانية أو بلطيقية لم يمض زمن كثير على ترويسها . وكانت زوجته سليلة أسرة من ألمان الفولغا ، وقد قضت نحبها في ريعان الشباب تاركة له خمس بنات وابناً . وقد تولت تربية اليتامى عمة شديدة الصرامة على أساس من اللغة والتقاليد الألمانية . وكان لهم أيضاً خالة وجدة سويديتان . وهكذا نجد في أسلاف لينين المباشرين اتحاد أصلين عرقيين وثقافيين بعيدين كل البعد أحدهما عن الآخر : من جهة أولى عناصر تترية متحدرة من جنوبي شرقي آسيا ، ومن الجهة الثانية عناصر شمالية متحدرة من غربي أوروبا وتختلط بها قطرات من دم سلافي غامضة التكوين . وعلى الصعيد الاجتماعي أيضاً كانت الأسرتان من عالمين مختلفين . فقد حصل الدكتور بلانك على إجازته في الطب والجراحة من كلية بطرسبورغ في حوالي عام ١٩٢٥ ، قبيل تمرد الديسمبريين[١] . وقد مارس مهنته في بعض المستشفيات ، ثم عمل في الطب الشرعي في سمولنسك وبيرم وريغا وكازان ، ولكنه استقال بعد وفاة زوجته ، وابتاع مزرعة في قرية كوكوشكينو ، على مقربة من كازان ، وتحول إلى ملاك صغير للأراضي ، وما عاد يعالج أحداً غير القرويين ، جيرانه . وكانت له بصدد الصحة والتربية آراء غريبة طبقها صارم التطبيق على أولاده أنفسهم . فقد كان بمعنى من المعاني من أنصار جان جاك روسو ، وكان يؤمن بالعلاجات الطبيعية ، وبالأخلاق الإسبارطية ، وبنظام صحي غذائي بسيط ، وبخواص الماء الشافية للأمراض . ولا ريب في أن هذا كان رداً منه على خزعبلات الطب الروسي المعاصر وخرافاته ، ولكنه اخترع لذاته بدوره نواهيه وترياقاته . فقد كان يعدّ الشاي والقهوة « سماً » وحرّم وجودهما في بيته وما كان يسمح لأولاده بأن يشربوا

---

١ الديسمبريون : الرواد الأوائل للحركة الثورية الروسية ، كانوا من الضباط النبلاء ، وقاموا بثورة قصر فاشلة في كانون الأول ١٨٢٥ . « المعرب »

غير الماء القراح . كما أنه ما كان يكسوهم بثياب مريحة وبكميات كافية. فقـد كان عليهم أن يعرضوا أجسادهم للهواء والثلج والصقيع . وكثيراً ما كان يضع لهم كمادات مثلجة حتى يكسب أجسامهم المزيد من الصلابة والقدرة على الاحتمال . ويروى أن العمة الألمانية كانت تلفهم بمناشف باردة قبل أن يأووا إلى فراشهم . ونحن لا نعرف على وجه الدقة مـا كانت نتائج هذه التجارب على صحة كل واحد من أولاده أو على جملته العصبية . ولقـد كانت والدة لينين ، على كل الأحوال ، قوية الجسم والفكر طوال حياتها ، ولم تسلم الروح إلا في الواحدة والثمانين بالرغم من الفترات العصيبة التي كان عليها أن تمر بها . وقد أنشأت هي الأخرى أولادها تنشئة إسبارطية ، من دون أن تكرههم مع ذلك على تحمل مـا اكرهت هي وأخوها وأخواتها على تحمله . أما الدكتور بلانك فقد وفر لابنه وبناته تربية سليمة وليبرالية على الرغم من العناد الذي عرف به ومن بعض الاختلال الذي كـان يشكو منه . على أنه لم يرسل إلى المدرسة ماريا الكسندروفنا – إمـا لنقص في مال وإما لأنه كانت تخامره شأن الكثيرين غيره ظنون مسبقة ضد مدارس البنات الداخلية – ولكنها تعلمت على أيدي مؤدبين خصوصيين ، وأتقنت الكلام ، علاوة على الروسية ، بالألمانية والفرنسية وعرفت الأدب الأوروبي والروسي ، وأحبت الموسيقى ، وكانت تعزف على البيانو بحساسية ونباهة . وكان في ذهنها المثقف فضول إلى كل شيء وشره الى المعرفة : فقد ثابرت بعد زواجها عـلى حضور دروس لتأهيل المعلمات ، الأمر الذي مكنها من حسن توجيه تربية أولادها. ولقد تعرضت أسرة بلانك لمؤثرات فكرية أخرى لم يزح النقاب عنهـا حتى اليوم ، ومن قبيل ذلك أن أحفـاد الدكتور بلانك عندما انتقلوا للإقامة ، بعد وفاته بقليل ، في منزله الريفي ، وجدوا فيه كمية مـن المؤلفات والصحف الأدبية أو الفلسفية الراديكالية الاتجاه تركها عم مغمور. وخلاصة القول أن عالماً بأسره كان يفصل بين منزل الدكتور بلانك في

كوكوشكينو وبين كوخ أوليانوف ، خياط أستراخان ، من وجهة النظر الثقافية على الأقل . ومع ذلك فإن جدي لينين ، ابن العامة والمثقف ، سيلتقيان من جديد ويتحدان في شخص حفيدهما .

لم يطل المقام بآل أوليانوف في بنزا . فقد وقف إيليا نيقولائيفيتش عاجزاً عن تأمين أسباب الحياة لأسرته بدخله الضئيل وغير المنتظم . وكان معهد أولاد النبلاء قد أشرف على الانهيار التام . وكانت معنويات التلاميذ متداعية ، وكان بعض طلاب الصفوف العالية يتعاطون المشروبات الكحولية فكانوا يعاقبون بالجلد أو الطرد أو بالاثنين معاً . وبلغت نسبة الرسوب في الامتحانات عام ١٨٦٢ خمسين بالمئة . وبحث بعض المعلمين لأنفسهم عن وظائف في مدارس أخرى . وحصل إيليا نيقولائيفيتش على وظيفة في ثانوية نجني – نوفغورود التي كان يديرها أحد أساتذته القدامى في أستراخان. ونقل آل أوليانوف منزلهم في عام ١٨٦٣ . ولقد وجدوا نجني – نوفغورود أحب الى القلب من بنزا بكثير . فقد كانت هذه المدينة مستقراً منذ قديم الزمان للأوساط التجارية الروسية ، وكانت بمسرحها ، وصالاتها التي غالباً ما كانت تقام فيها الحفلات الموسيقية ، وجمعياتها الأدبية وأنديتها التي كانت تنظم فيها مناقشات حامية ، أقل خضوعاً للروح الطائفية وأكثر مدن الفولغا تمديناً . وكانت ثانويتها مؤسسة حسنة التنظيم والتجهيز وحسنة الادراة مالياً وكان الأساتذة يقيمون مع أسرهم في أحد أجنحة المباني ويتمتعون برفاه نسبي . وقد استقر آل أوليانوف في شقة من أربع غرف. وانكب إيليا نيقولائيفتيش على العمل بطاقته المعتادة وشرع أيضاً بسلسلة من النشاطات الخارجة عن نطاق معهد المدينة التعليمي . فقد كان يعلم في مدارس أخرى ، وكان عضواً في مجلس معهد عسكري ، وكان يتردد من حين لآخر على موسكو لحضور اجتماعات العاملين في هيئة التعليم ، ويزور المعارض التربوية ويعود منها وملؤه الحماسة بكل ما شاهد وسمع ،

وحقائبه مكتظة بكتب جديدة وموجزات مدرسية . وكان يلقى هو وزوجته حسن الترحاب من قبل جيرانهما وزملائهما ، وكان يسعدهما أن يتمكنا من المساهمة في حياة المدينة الاجتماعية والفنية ، وأن يخامرهما الإحساس بأنهما على قرب قريب من المراكز الفكرية الروسية . وكانا ، شأنهما شأن الأنتلجانسيا المحلية ، يطالعان ويناقشان الصحف الكبيرة التي كانت تحمل إليهما شهرياً أفكار دوبرو ليوبوف أو تشيرنيسفسكي[1] الجريئة الجامحة والفصول المسلسلة من رواية تولستوي « الحرب والسلم » . ولا غرو بعد هذا إن وجدناهما يذكران بشوق وحنين فترة إقامتهما في نجني – نوفغورود !

وجاءت ولادة آنا ، بكر أولادهما ، بعد عام من وصولهما ، وتلتها بفاصل سنتين ولادة ابنهما الكسندر . ولم يمكثا في نجني غير أعوام ستة . ثم انتقلا على حين غرة ، فيما كانت ماريا الكسندروفنا تنتظر طفلاً ثالثاً ، إلى مدينة أخرى ، سيمبرسك . ووصلا اليها في أيلول ١٨٦٩ . ورأى ابنهما الثاني النور في ١٠ نيسان ١٨٧٠ . وقد عُمد في كنيسة القديس نيقولا الصغيرة ، وأطلق عليه اسم فلاديمير . ويتوقف بعض المؤلفين عند الدلالة الرمزية لهذا الاسم : فلا – ديمير ، أي « حكم العالم » . ولكن هذا لم يدر قط في خلد الزوجين أوليانوف كما لم يعن بذهن الآلاف المؤلفة من الأهالي الروس الذين اعتادوا على إطلاق هذا الاسم على أولادهم الذكور .

وبدا للوهلة الأولى أن الطفل ينمو نمواً بطيئاً وئيداً : فقد كان رأسه ضخماً بالنسبة إلى سائر جسمه ، وكان أحمر السحنة ، ولم يشرع بالمشي إلا متأخراً ، وكان يقع ويتعثر . ولكنه سرعان ما تغلب على هذا العائق البدني . فكان على صغر سنه يتدفق عزماً ونشاطاً ، رشيقاً ، فارهاً ، خبيثاً ، وكان يحب الألعاب الصاخبة حباً جنونياً . تقول أخته الكبرى

---

١ من الكتاب الديمقراطيين الثوريين الروس . « المعرب »

إنه ما كان يلهو بدماه ، بل كان يكسرها . وفي الخامسة من العمر بات يقرأ ويكتب . وقد عهد به فيما بعد إلى عناية مؤدب من الأبرشية فهيأه لدخول المعهد المدرسي الذي أخذ طريقه اليه وهو في التاسعة من العمر .

لقد خسر آل أوليانوف كثيراً بانتقالهما من نجني - نوفغورود إلى سيمبرسك . فقد عين إيليا نيقولائيفيتش مفتشاً على المدارس الابتدائية في محافظة سيمبرسك . وكان منصبه هذا إدارياً أكثر منه تعليمياً . وكانت الحكومة بعد الاصلاح الكبير[1] وبداية تحديث البنى الاجتماعية الروسية تبذل الجهود لتحسين شبكة المدارس الابتدائية ولانتزاعها من سيطرة إكليروس نصف أمي ولوضعها تحت إشراف الزيمستفويات ، أي أجهزة الحكم الذاتي للنبلاء ، التي لم يمض على تأسيسها زمن بعيد . وكان على إيليا نيقولا ئيفتيش أن يشرف على هذه العملية في محافظة ريفية شاسعة تفتقر إلى الطرق ويقطنها ما يقارب المليون من الفلاحين الذين يحيون متناثرين في مئات بل آلاف من القرى والاكفار الموزعة على ١٦٦ ناحية[2] . وكان عدد المدارس ضئيلاً للغاية ، حتى في النظرية ، وكم بالأحرى في الواقع! وكان الأولاد يتجمعون في اكواخ تلفة ليتلقوا التعليم من قرويين «عصاميين» أو من كهنة مخمورين . وكانت المحاولات المبذولة للارتقاء بالتربية تصطدم بريبة ومعارضة الفلاحين والنبلاء على حد سواء . وصار إيليا نيقولائيفتيش مرغماً بحكم وظيفته الجديدة على الابتعاد عن بيته طوال أسابيع أو شهور متتالية : كان يمضي وقته في الجري من ناحية إلى أخرى في حمارة القيظ أو وسط عاصفة ثلجية ، وفي محاولة جمع الأموال ، والعثور على أناس قابلين لأن يصيروا معلمين ، وفي مكافحة الآراء المسبقة للموجيك الذين

---

١ أي إلغاء القنانة في مطلع الستينات من القرن التاسع عشر . « المعرب »

٢ أ . ف . كليانكين : « إيليا نيقولا ئيفتيش أوليانوف » في مجلة « قضايا تاريخية » السوفياتية - العدد ٦ - ١٩٦٧ .

كانوا يرفضون بعناد إرسال أولادهم إلى المدرسة . ولا مفرّ لنا من الإقرار بأن مثل هذا العمل لم يكن من ذلك النوع الذي يمكن أن يحلم به رب أسرة مـا عاد في زهو الشباب ولا يتمتع بصحة موفورة ، وأستاذ يحب التعليم . وعليه فإن شروط حياة آل أوليانوف لم تتحسن في سيمبرسك ، بل هي على العكس تدهورت .

تروي آنا ، كبرى البنات ، أن أمها « أحست أليم الإحساس بالفارق بين حيويـة نجني – نوفغورود ونشاطها وبين شظف العيش والجهل ، وبوجه خاص الوحشة المطبقة التي كانت تشكو منها في ذلك الجحر الريفي الخامـل البائس ... ولقد أخبرتنا فيما بعد بمدى شقائها بالسنوات الأولى من إقامتها في سيمبرسك . وكانت صديقتها الوحيدة القابلة إيلينا التي كانت تسكن في دارنا ذاتها والتي بذلت المساعدة في وضع جميع صغار الأسرة». وصحيح بعد هذا أن شروط السكنى السيئة كانت تلقى ما يعوض عنها جزئياً في إطار سيمبرسك الطبيعي الساحر : فقد كانت المدينة تطل من على الفولغا ، ومنازلها تتناثر على سفح مترامي الأطراف ، تكسوه المروج المنورة والبساتين والأحراش ، ويمتد أمامه النهر الذي يتحول في الربيع إلى ما يشبه البحيرة لاتساع عرضه ، ويليه السهل باخضيضاره اللامتناهي . ولقد وصف اكثر مـن كاتب ، بدءاً من بوشكين وغونتشاروف الى تروتسكي ، هذا المنظر الطبيعي الغزير النبات ، الغني الألوان . وقد أقام آل أوليانوف في حي لا تأنس اليه النفس كثيراً : فقد استأجروا شقة صغيرة في شارع ستريلتسكايا ، في ضاحية تعرف بضاحية « التاج القديم » ، على قمة التل التي يؤمها المتنزهون من الأسر الفقيرة الساكنة عند ضفاف النهر . كان المتنزهون يهرعون إليها جماعات أيام الآحاد ويخلفون وراءهم كمية هائلة من النفايات التي تذروها الرياح في كل اتجاه فيما تبقى مـن أيام الأسبوع . وكان في مقابل منزل شارع ستسريلتسكايا ، الذي رأى لينين فيه النور ، سجن كبير ، وكان المعتقلون يتأملون من خلف القضبان

متنزهي يوم الأحد أولئك .

غيرت الأسرة مكان إقامتها مرات عدة إبان الأعوام الثلاثة التالية . وكان على إيليـا نيقولاثيفيتش أن ينتظر عشر سنوات حتى يتمكن من الانتقال إلى منزل خشبي ، مريح وعريض المساحة ، له بستان ملحق به ، في شارع موسكو ، وقد استقر مقـام الأسرة فيه حتى رحيلهـا عن سيمبرسك .

إن العزلة التي طالما شكا منها آل أوليانوف إبان السنوات الأولى من إقامتهم في المدينة التي ستحمل اسمهم بعد وفاة لينين ، مردها إلى الروح الطائفيـة التي كانت تعيث فساداً في سيمبرسك اكثر منهـا في سائر « أعشاش الارستقراطيين » المتناثرة على ضفاف الفولغـا . فقد كانت الانقسامات الاجتماعية ، المتوارثـة جيلاً عن جيل ، ضاربة الاطناب ، راسخة الأقدام ، وكانت بنية المدينة بالذات تعكسها بصرامة مرآة عديمة الشفقة . ففي أسفلها ، وعلى امتداد النهر ، كانت تقبع اكواخ الأحياء الفقيرة بسكانها المكتظين وروائحها المنفرة . وفي السفح كانت تنتشر منازل التجار . أما في قمة التل ، وفي الضاحية المعروفة باسم « التاج الجديد » ، فكانت ترتع دور النبلاء الريفية وسط حدائقها التي تحميها أسوار عالية . وعلى مسافة منها ، مفصولة بخط « حدود » بارز للعيان ، كانت تقع منازل صغار الموظفين في حي «التاج القديم» حيث كان يقيم آل أوليانوف . وكان تسلسل المقامات ، البالغ التعقيد ، يفرض نفسه حتى على أمـاكن الناس في المواكب والاحتفالات الدينية التي كانت تقيمها كاتدرائية المدينة . وبالرغم من أن سيمبرسك كانت أحدث عهداً من معظم مدن الفولغـا — فهي قد أسست في القرن السابع عشر ليس إلا — فـإن طابعها العام كان رجعياً ، بل مفرطـاً في الرجعية . ذلـكم هو السور الذي كانت قد تحطمت عنده الثورة الفلاحية الكبرى التي قادها ستنكا رازين ، بعد مسيرتها المظفرة المذهلة على امتداد الفولغـا . ولقد صبغت مئات المشانق بظلالها

يومذاك مياه النهر بلون أسود . وعندما ثار الفلاحون من جديد ، بعد عدة أجيال ، بتحريض من بوغاتشيف ، محرزين الانتصارات ذاتها ، لم تواتهم الجرأة على مهاجمة سيمبرسك . وقد انجبت المدينة قبل لينين ابنين شهيرين على الأقل : المؤرخ كارامزين ، أبلغ مداحي القيصرية وفتوحاتها وأغلى غلاة الشوفينيين إشادة بها ، وغونتشاروف ، مؤلف « أوبلوموف » ، الذي كان سكرتير الحاكم وتولى فيما تولى وظيفة الرقيب الإقليمي . ولقد كان غونتشاروف ابن تاجر غني وكاتباً محافظاً لا يخلو من نزعة ليبيرالية مبهمة ، وقد وصف طبقة النبلاء المحلية بقدر ما فيها من الهجاء الساخر في روايته « أوبريف » (التل) . ولكن روايته « أوبلوموف » هي التي خلدت بلا شك محافظة سيمبرسك ، كما خلدت رواية «دون كيشوت» إقليم مانشا . ولقد كانت شخصية الأرستقراطي الذي يجرجر حياته بدلاً من أن يعيشها ولا يتوصل حتى إلى استجماع الطاقة اللازمة للخروج من فراشه ، تجسد كما خلقها غونتشاروف ، كل الانحطاط الخلقي والخمول والبلادة التي انتهى اليها النبيل الروسي ، بل روسيا القديمة بأسرها بوجه عام . هكذا تشاء مفارقات الأمور أن يشرع رقيب سيمبرسك السابق هذا بممارسة تأثير ثوري بالغ القوة . ولا غرو ، فقد كان بطله « أوبلوموف » دعوة مدوية الأصداء إلى تواجد أوبلوموف مضاد يهز روسيا من غفوتها وخمولها . ولقد كان هذا الرجل قد ولد لتوه في بلد أوبلوموف ، ولكن النظام الاجتماعي القديم كان في نظر أهالي أوبلوموفكا وفي نظر غونتشاروف نفسه كلي القداسة . وكان لبعد الإقليم عن العاصمة وانعزالـه دورهما في تأبيد ذلك النظام وحمايته . وقد لبثت سيمبرسك حتى أواخر القرن تقريباً بلا برق ولا هاتف ولا سكة حديدية لربطها بسائر العالم .

ولم يندمج آل أوليانوف حسن الاندماج بمجتمع المدينة . فإيليا نيقولائيفيتش ، « الميشانين » ، لم يكن يحتل ، بالرغم من منصبه الجديد ، مكاناً محدداً في الهرم الاجتماعي ، وامرأته لم تكن حتى روسية .

وكان دوره نشر التعليم بين أولاد الفلاحين ... ولكن ألم يحذرهم أوبلوموف جميعاً من أن « الألفبة ضارة بالموجيك : علموه القراءة والكتابة فيمتنع عن الحراثـة » . ولقد كان بعض ملاك الأراضي ، في أقاليم أخرى ، قد شرعوا في تحديث استثماراتهم وفي توظيف المال في الصناعة التي تحتاج إلى شغيلة متطورين . ولكن لم تكن هذه هي الحال في إقليم سيمبرسك . فلقد كان أولو الأمر ههنا ينظرون بلا ريب إلى المهمة التي جاءت بإيليا نيقولائيفيتش اليهم نظرتهم إلى شيء قليل الاحتشام ، بله هدام وضار . ومما صدهم عنه أيضاً فقره النسبي ، الذي عبر عن نفسه جلي التعبير في اختياره لمسكن رخيص في حي دون ، وتواضع مسلكه ، وكذلك — وهذا أمر لــه أهميته — مظهره القالموكي . ولقد كان يندر أن تقع العين في الجوار على تتريين أو قالموكيين أو شوفاشيين ، ولئن تواجدت قلة قليلة منهم فمركزهــا في أسفل الهرم الاجتماعي . أمــا آل أوليانوف فإنهم لم يحاولوا حتى اقتحام الحاجز الذي كان يفصلهم عن المجتمع الراقي . فإيليا نيقولائيفيتش سرعان ما استغرقه عمله : جولات في الإقليم بحثاً عن تلك المدارس المسجلة في السجلات الرسمية والتي لا وجود لهــا في الواقع ، وزيارات إلى المؤسسات النادرة التي فيهــا وجود فعلي للتعليم ، ودراسة إمكانيات تطوير التربية . لم يكن يملك لا الوقت ولا الرغبة للاهتمام بأمر عزلته عن سكان « التاج القديم » أو « الجديد » . ونحن نعلم ما كانت عليه مشاعر ماريا الكسندروفنا : فالثرثرة مع جارتها القابلة مــا كانت تتيح لها الإفلات من طوق وحدتها . فكانت تكافحها ، جهدها ، باستغراقها في أشغالها المنزلية وتربية أولادهــا . وكانت الأسرة تكبر وتزيد : فبعد عامين من القدوم إلى سيمبرسك أنجبت ماريا طفلها الرابع ، أولغا . وفي عــام ١٨٧٤ ولد أصغر أبنائها ، ديمتري . وكانت تساعدها في الاهتمام بالأطفال فلاحة تدعى فرفارا غريغورفنا ، ولقد ترسخت أواصر ارتباطها بالأسرة فما تركتها حتى مماتها . ولقد سافر آل أوليانوف مرة أو مرتين

إلى أستراخان ، عن طريق الفولغا ، لتقر عيون الأهل ، الجدة القالموكية والعمات والعم فاسيلي ، برؤيـة الأولاد . ولكن الجده قضت نحبهـا ، فتباعدت الزيارات إلى استراخان ، ثم توقفت نهائياً ، وشب الأولاد من غير أن يعرفوا الفرع الأبوي من الأسرة معرفة حقة .

كانت ماريـا الكسندروفنا تؤثر أن تأخذهم بين الفينة والفينـة إلى كوكوشكينو ، حيث كان ملك والدها القديم وحيث كانت بنات الدكتور بلانك ، وقد تزوجن جميعاً من رجال يمتهنون مهناً حرة ، يقدمن في كل صيف ليقضين عطلة طويلة ومرحة مع أزواجهن وأولادهن . كان ذلك أشبه بفاصل ترفيهي في حياة ماريا المتوحدة . وأرجح الظن أن إيليا نيقولائيفيتش ، بالرغم من حدبه على والدته وأخيه البكر وأخواته ، كان يحس بأنه أوفر راحة بين أسرة زوجته في كوكوشكينو منه بين أهله في الضواحي المنفرة من أستراخان . وربمـا كان في موقفه من الفرع العامي من قرابته شيء من نكران الجميل ومن حب التظاهر . وعلى كل ، فإن أواصره به كانت آخذة بالتراخي . ولقد كان من الصعب عليه أن يسلك غير هذا السلوك الذي كانت تمليه عليه مصالحه ومشاربه الشخصية ، هذا إذا لم نشأ أن نتكلم عن صبوات زوجته وعما كان يعتوره من رغبة في تنشئة أولاده في سياق متمدين . والحق أن منطق صعوده في مراقي المجتمع كان يثقل بوطأته على وشائجه العائلية .

بعد بضع سنوات من العمل في إقليم سيمبرسك منح إيليا نيقولا ئيفيتش وسام القديس فلاديمير ولقب « مستشار دولة عامل » ، فارتفع بذلك إلى مقام الطبقة النبيلة الوراثية . كما أنه رقي من التفتيش على المدارس الابتدائية إلى إدارتها . وكانت مرتبته الوظيفية الجديدة تعادل رتبة جنرال . وهكذا صار يرتدي بزة زرقاء موشاة بالذهب ، وبـات على الناس أن ينادوه بـ « صاحب السعادة » .

في وسعنا أن نتساءل عما فعله هذا « الميشانين » العامي الأصل حتى يستحق هذا التقدير الرسمي؟وإلى أي حدّ كان هذا التقدير مرتبطاً بموقفه من النظام القيصري وبآرائه السياسية ؟ وأي تأثير كان لنجاحه على أولاده ؟ الحق أنه لم يكن قد أبدى قط ، حتى تاريخ تكريسه نبيلاً وهو في حدود الأربعين من العمر ، أي رغبة في التمرد على السلطة . ولم يتقرب قط من الأوساط الثورية أو الراديكالية – الليبيرالية التي كانت تمارس التأثير على الانتلجانسيا . كان خادماً وفياً للقيصر وتلميذاً وطيد القناعـة للدين الشرقي الاورثوذكسي . وكان كله إيمـاناً ، شأنه في ذلك شأن جميع الأشخاص المتضعي الأصل الذين يرتقون في المجتمع بعرق جبينهم ، بأن في وسع الآخرين أن يفعلوا ما فعـل وبأن النظام الاجتماعي القائم يتيح لأعضاء الطبقـات الدنيا ما فيه الكفاية من الإمكانيات لتحسين أوضاعهم ومصائرهم . ولقد كان ينظر بعين الريبة إلى أولئك الذين يدينون القيصرية جملة واحدة وينادون بإصلاحات واسعة أو بثورة . وكان يدين أفكارهم وأفعـالهم بأنها تجديفية ، ويرى في التمرد على الكنيسة والدولة خطيئة ، ولا يدرك مـا يمكن أن يأتي به العصيان والتمرد للمضطهَدين . كانت الذكرى المشؤومة للقمع الذي أعقب التمرد الديسمبري ما تزال مطبوعـة في حوافظ الناس قاطبة يوم كان شاباً . ثم جـاء الإرهاب الذي سحق البتراشيفيين[1] وحطم رجلاً من شكيمة دوستويفسكي . وبعد عام ١٨٤٨ ، كانت هزيمة الثورة في جميع أرجاء أوروبا ، تلك الهزيمة التي ساهم فيها قوزاق القيصر والتي بدا وكأنها وضعت حداً لجميع آمال الراديكاليين . ففي إبان السنوات الأولى من حكم نيقولا الأول ، عندما كان أوليانوف على مقاعد الدراسة في جامعة كازان ، كان الطلاب والاساتذة معاً يرزحون

---

[1] نسبة إلى بتراشيفسكي الذي أسس جماعة ديمو قراطية ثورية بورجوازية أخذت على عاتقها النضال ضد القنانة . وقد صفيت الحركة في عام ١٨٤٩ بعد سنوات أربع من تأسيسها .

« المعرب »

تحت قبضة التجسس والاضطهاد إلى درجة كانت كفيلة بأن تخنق في المهد أي شبهة بالميل إلى المعارضة والنزعة الراديكالية. وما كانت هذه التجاريب كافة إلا لتطور لديه النزعة المحافظة المميزة للانسان الذي يصعد، لحديث النعمة الذي تجتمع في شخصه عادة، بنسب متفاوتة، فكرة حتمية إخفاق الثورة وعاطفة الاعتراف بالجميل للمجتمع والخوف من تعريض المستقبل للخطر، ذلك المستقبل الذي اقتضى شق الطريق اليه ما اقتضى منا مشقات وتضحيات.

بيد أن إيليا نيقولائيفيتش لم يكن عديم الإحساس ببؤس شروط حياة الناس الذين رأى النور بين ظهرانيهم. فجميع معاصريه يصفونه في صورة إنسان عطوف، عمل في سبيل الشعب طوال حياته، حسب آرائه، بمثالية ومن دون أن يقتصد في جهد. وبالرغم من ارتقائه السلم الاجتماعي، لم يكن من أولئك الطموحين الذين يريدون الوصول بأي ثمن. كما أن وصوله لم يملأه غروراً. ولقد ظل صاحب السعادة في زيه الموشى بالذهب، كما كان قبلاً، لين المعشر والعريكة، متواضعاً، لا يعرف الادعاء إلى نفسه سبيلاً. ولم تبدر عنه اي بادرة ذلة أو هوان لتسهيل صعوده. أما ولاؤه في مشاعره للقيصر فكان وليد قناعة عميقة، وإن مكتومة، ووثيقة الصلة بتدينه. وكان يعتقد أن في الإمكان الجمع بين خدمة الشعب وخدمة القيصر، أو بأن الاثنتين لا تقبلان انفصاماً. كان يعلم حق العلم أن روسيا ظمأى إلى تغيرات، وكان راسخ القناعة بوجوب تحرير الأقنان وتربيتهم وتمكينهم من التمتع بثمار كدحهم وكدّهم، وكان على يقين من ضرورة السماح للأمة بأسرها بالتقدم مع زمانها وبالتعبير عن نفسها بملء الحركة. وكان صلب الإيمان بقوة العلم والتكنولوجيا التحريرية. ولئن كان تلميذاً ورعاً للكنيسه، فإنه ما كان يمت بصلة تقريباً إلى دعاة السلافية الذين كانوا يقولون بالتفوق الروحي لنمط الحياة الروسي ما قبل الصناعي. ولكنه كان يرى أن التغييرات والإصلاحات يجب أن تأتي من

الأعلى ، بمرسوم من القيصر . وعندمـا أصدر الكسندر الثاني بالفعل ، ورغم أنف معارضة غلاة الرجعيين من ملاك الأراضي ، مرسوم تحريـر الأقنان وشرع بإصلاح الإدارة ونظام القضاء والتعليم ، رأى نيقولا ثيفيتش في ذلك فجر يوم ماجد . فشاطر الأمة الحماسة التي غمرها بها الاصلاح الكبير . وكان يعلم أن بعض الراديكاليين ينظرون بعين الشبهة إلى ليبيرالية القيصر ، وأنهم يعدون مرسوم التحرير خدعة ، وأنهم يأخذون عليه تجريده الأقنان من كل حق على الأرض في الوقت الذي يحررهم فيـه ويضعهم مـن جديد تحت وصاية سادتهم (سجن تشيرنيشيفسكي بعد عامين من الزمن في قلعة بطرس وبولس[1] لأنه أعرب على وجه التحديد عـن انتقادات من هذا النوع) . ولكن شيئاً من هذا كله لم ينل من قناعات إيليا نيقولا ثيفيتش الذي تلقى بترحاب عظيم خطوات التقدم الأولى هـذه التي طال انتظارها . وعندما عرض عليه ذلك المنصب في سيمبرسك تماشياً مع السياسة الحكومية الجديدة ، لم يتردد لحظة واحـدة في مقايضة الرفاه النسبي الذي كان يتمتع به في نجني ـ نوفغورود مقابل العمل الشاق الذي كان ينتظره في هذا الإقليم المتأخر الضائع عند تخوم روسيا النائيـة . فقد كان بث محاسن التربية والتعليم بين الأقنان السابقين وأولادهم يمثل في نظره رسالة حقيقية انصرف لها جسماً وروحاً . كان هذا هو أسلوبه في سداد ديونه تجاه الفقراء والمضطهدين . وكـان يؤمن عميق الإيمان ، بوصفه رائداً للتربية الشعبية ، بأن هذه الأخيرة قمينة وحدها على مر الزمن بشفاء جميع أدواء المجتمع الروسي وأمراضه ، بما فيهـا تلك التي تجمت عن « الإصلاح الكبير » بالذات . ورائد التربية الشعبية لا يمكن أن يكون ثورياً ، لأن ثمار هذه التربية لا تنضج إلا ببطء . وما كـان إيليا

---

[1] سجن رهيب في بطرسبورغ كان له في حماية القيصرية دور شبيه بدور سجن الباستيل في حماية الحكم المطلق الفرنسي . « المعرب »

نيولا ثيفيتش يبحث عن تلك الدروب المختصرة التي سيحاول أولاده أن يطرقوها والتي سيشقها ابنه بجرأة وتصميم عبر مفاوز التاريخ : بل كان يذرع بصبر الطرقات الموحلة ، وإذا لم تتوفر فالحقول ، بحثاً عن فلاح بسيط موهوب قابل لأن يعود معه إلى سيمبرسك ليتلقى فيهـا التأهيل الضروري للمعلم ، أو سعياً إلى معرفة عدد الأطفال الذين مـا يزالون محرومين مـن التعليم في المناطق التي تتوفر فيها إمكانية إحداث مدرسة . كل شيء في إبانه .

في ذلك العصر – وفي عام ١٨٧٣ على وجه الدقة – كانت الحركة الواسعة المعروفة باسم « خوذ دينيبه إي نارود[1] » تقترب من نقطة أوجها : فقد هب مئات الرجال والنساء من الانتلجانسيا ليشقوا « طريقهـم إلى الشعب » في محاولة لفتح أعين الفلاحين ولإطلاعهم عـلى خبايا مرسوم التحرير المريبة ولتأليبهم على الأشكال الجديدة لعبوديتهم واسترقاقهم . وقد ركز هؤلاء الدعاة النارودنيون جل جهودهم على إقليم سيمبرسك . ولا مراء في أن المفتش المتجول قـد صادف بعضهم أثناء طوافه في ريف المحافظة ، إذ كان من المستحيل ألا يلفت انتباهـه هؤلاء الرجال والنساء المثقفون القادمون من بعيد ، من بطرسبورغ أو موسكو ، والباذلون بحمية قصارى جهودهم لاكتساب ثقة الموجيك . ولقد كان يسلك ، بمعنى من المعاني ، طريقاً موازيـاً لطريقهم ، لأنه كان هو الآخر « يذهب إلى الشعب » . ولكن أهدافهم كانت تفترق : فقد كان إيليا نيقولا ثيفيتش يؤدي رسالته بهدوء واطمئنان ، مدعوماً بسلطة القيصر ، أما هم فكانوا يتحدون بيأس هذه السلطة . ولم يكن في نظرهم إلا واحداً من أولئك

---

١ أي «الهجرة نحو الشعب » . وهي الهجرة التي دعا اليها هرزن ، رائد الشعبيين الروس (النارودنيين) وتقدر بعض المصادر بثلاثة آلاف عدد المثقفين الذين ذهبوا إلى الشعب ، إلى الموجيك ، ليوقظوه.
« المعرب »

الموظفين الذين يساعدون القيصر والارستقراطية المالكة للاراضي على إبقاء الفلاحين في حالة القنانة . وما كانوا في نظره إلا كائنات قادمة من بعيد، أشبه ما يكونون بنيازك تهدد بتعكير هدوء هذه المنطقة ، ذلك الهدوء الذي هو شرط أساسي لتقدم عمله التربوي . وكان هذا الموظف المستقيم وذلك النارودني الراديكالي يجسدان في شخصهما الإحراج الرئيسي الذي كان على عدة أجيال من الروس أن تختار بين أحد حديه : إما الإصلاحات من أعلى وإما الثورة من أسفل .

وعلى كل ، وجد هذا الإحراج حله بسرعة ، إذ شرع الفلاحون بطرد النارودنيين من قراهم وبتسليمهم إلى رجال الدرك . وفي عام ١٨٧٤ ، العام الذي ارتقى فيه إيليا نيقولائيفتيش إلى مصاف الطبقة النبيلة، كانت تلك الحركة الكبيرة باتجاه الشعب – وهي أول مشروع ذي أهمية يبادر إليه النارودنيون – قد أخفقت : فقد زج بأعضائها كافة تقريباً في السجن . وما كان في وسع إيليا نيقولائيفيتش أن يستنتج من ذلك غير نتيجة واحدة : أن طريقته هو في الذهاب إلى الشعب هي الطريقة الوحيدة الواقعية . ولقد كان ، بمعنى من المعاني ، على حق . فلقد مُني النارودنيون بخيبة مريرة لأن الموجيك كانوا راسخي الإيمان بالقيصر المحرر ولأنهم لم ينظروا إلى أولئك الثوريين « من أبناء العائلات » القادمين من المدن لتأليبهم عليه غير نظرتهم إلى عملاء سخرهم سادتهم السابقون لزرع الشقاق بين الشعب والعرش . والحق أن الوهم الذي ولّده مرسوم التحرير في عقول الفلاحين ما كان سهلاً اجتثاثه : فستظل ذكراه عزيزة حتى في وجدان أحفاد الفلاحين . وهذا معناه أن « الإصلاح الأكبر » قد أخَّر لأكثر من نصف قرن من الزمن « حرب الفلاحين الكبرى » . وعليه فإن اختيار إيليا نيقولائيفتيش ، الذي عقد العزم على المراهنة بكل شيء على الإصلاحات الآتية من أعلى ، لم يكن يخلو من روح واقعية .

والشهادات التي خلفها لنا معاصرو إيليا نيقولائيفيتش ، والتي يعود

تاريخها إلى ما قبل الثورة بحقبة لا بأس بها ، أي إلى عصر ما كانت فيه هالة مجد ابنه قد توّجت هامه بعد ، تقطع بلا ظل من شك بأن حياته لم تكن حياة بيروقراطي روتيني وبأن التربية الشعبية كانت في نظره مشكلة قومية كبرى خليقة بأن يوليها فائق اهتمامه . وعندما فارق الحياة نعته جريدة « أنباء محافظة سيمبرسك » بعبارات حارة نظراً إلى « الحب العارم والصادق » الذي كان يكنه لمدارسه ، ونظراً أيضاً إلى « نشاطاته المتعددة الوجوه التي لم تعرف سأماً ولا كللا » . « لقد كان على إيليا نقولا ئيفيتش أن يبني بمفرده ومن لا شيء ، إذا صح التعبير ، كامل بنيان المؤسسات المدرسية . فقد كان عليه أن يحدد أهداف التعليم وأغراضه ، وأن يقرر مضمونه ومداه بالتفصيل ، وأن يضع برنامجه عاماً فعاماً ، وأن يختار الكتب المدرسية ، وأن يبين لكل معلم كيف يستخدمها وكيف يطبق هذا المنهج أو ذاك من مناهج التربية ، وبالتالي أن يربي المربين أنفسهم .. وهذا كله في إقليم سيمبرسك بأسره لا في مركز واحد أو حتى في دائرة واحدة . وهكذا بدأت أسفار إيليا نيقولائيفيتش التي ما كان لها من نهاية والتي انطبعت في جميع الذاكرات ... ولقد كان مرد النجاح الهائل الذي حققته جهوده ... إلى ما كان يملكه من مقدرة على بناء الاتصالات مع الناس مهما تباينت بيئاتهم ومهما تفاوتت درجة تربيتهم ، وكذلك إلى شخصيته الجذابة والمندفعة » . وقد أشاد أيضاً كاتب النعوة بـ « الخصال النادرة » التي كان « المدير » يدلل عليها تجاه مرؤوسيه « عطفاً ومودة » إذ كان « لا يفرض عليهم قط سلطته » . ولا ينبغي أن نرى في هذا المقال تعبيراً عن المثل اللاتيني السائر : « تولد للمرء محاسن يوم وفاته » . ففي عام ١٨٩٤ ، وبعد ثمانية أعوام من وفاة أوليانوف ، وفي زمن كان لا يخلو فيه من خطر الثناء على رجل كان الناس يعلمون أنه والد ضابط متآمر على حياة القيصر ، كرس له مرب آخر ، ف. نازايف ، سلسلة من الدراسات في الصحيفة نفسها : « كان

المفتش الجديد عاجزاً كل العجز عن الاكتفاء بموقف شكلي ... كان يمارس مهنته كمربٍ بحمية وجرأة فكر مذهلتين ... كان فور عودته من أسفاره في الإقليم يذهب ليقرع باب رئيس مجلس المدارس وأعضائه ، فيهزهم ويرنق طمأنينة روحهم بتقديمه إليهم تقارير تنذر بالويل والثبور، وبمجاهرته إياهم بأن الغالبية الساحقة من المدارس لا وجود لها إلا على الورق ، وبأن المعلمين والمعلمات لا يكلفون أنفسهم حتّى مشقة الظهور بين الحين والآخر في الصفوف ، وبأن تلاميذهم لا يعرفون لا القراءة ولا الكتابة ، ولا حتى تلاوة الصلوات المألوفة الدارجة . ولقد كان من المستحيل التخلص من بطل التربية هذا الذي لا يعرف الكلل سبيلاً اليه... وكان لا يتكلم ولا يريد أن يكلمه أحد عن شيء آخر غير المدارس التي عهد اليه بأمرها في إقليم سيمبرسك ... وكان يتحمل الوطأة الباهظة لهذا العمل الهائل[1] » . ويروي الكاتب في أي شروط ارتجل إيليا نيقولائيفيتش في البداية تأهيل المعلمين ، ويروي أنه تولى بنفسه توجيه الدروس حتى عام ١٨٧٥ وهو العام الذي تمكن فيه من افتتاح معهد تربوي في سيمبرسك. ولقد ظل تلاميذ هذا المعهد ، وجلهم من أبناء الفلاحين ، يحملون لسنوات طويلة لقب « اوليانوفتسي » . وقد كتب سوبيرانسكي ، واضع تاريخ التربية في تلك المنطقة من روسيا ، كتب في عام ١٩٠٦ ، أي بعد عشرين سنة من وفاة أوليانوف : « إنما بفضل حيوية إ. ن. أوليانوف وتفانيه اللامحدود ... صار المعلمون الذين أتقنوا أصول مهنتهم باتباعهم دروسه خير العاملين عندنا في سلك التعليم ... » . وينوه غيره من كتاب المذكرات ببساطة أوليانوف وبموقفه الديموقراطي : ففي غالب الأحيان كان « صاحب السعادة » يسافر في مهمة تفتيشية في « بريتزكا » غير

---

[1] لم يكن هناك وجود إلا لـ ٤٦٠ مدرسة من أصل ٦٨٣ مدرسة مسجلة في السجلات ، وكان ٨٠ ٪ منها عديم القيمة تماماً . « قضايا تاريخية » – العدد ٦ – ١٩٦٧ . المصدر الآنف الذكر .

مريحة ، أو في عربة فلاح ، أو في قطار ، وفي الحالة الأخيرة هذه كان يسافر في مقصورة من الدرجة الثالثة ، وقد تدثر فوق بزته اللامعة بمعطف من رديء النسيج . ويشير آخرون أيضاً إلى ما كان يبديه من اهتمام وعطف تجاه الأقليات غير الروسية : فقد كان أول من أحدث المدارس لأولاد الشوفاشيين والموردوفيين ، وأول من وفر أيضاً التأهيل الضروري لمعلميهم . وقد أصبح أحد هؤلاء فيما بعد مدير المعهد التربوي الشوفاشي ولبث طوال حياته صديقاً لأسرة أوليانوف .

لقد كان إيليا نيقولائيفتش قدوة لأولاده بوصفه موظفاً في « خدمة الشعب » . فقد كان معهم لين العريكة ، فكهاً ، ودوداً ، على استعداد دائم لقص القصص عليهم ولمشاطرتهم ألعابهم . ولما كان في غالب الأوقات غائباً عن بيته ، ولفترات طويلة ، فقد كان تأثير زوجته عليهم اكثر انتظاماً وربما أكثر عمقاً . تقول كبرى بناتها : « كان أولادها يحبونها ويطيعونها ، وما كانت ترفع صوتها ولا تلجأ البتة تقريباً إلى العقوبات » . وكانت تتمتع بجميع الفضائل الألمانية تقريباً : النظام والنظافة — كانت ربة بيت ممتازة — والاقتصاد والأرابة . (كانت ناديا كروبسكايا ، التي عرفتها معرفة وثيقة ، على قناعة بأن لينين ورث عنها مواهبه التنظيمية) . وكانت ماريا الكسندروفنا قد تزوجت وأنجبت عندما نالت الدبلوم الذي يؤهلها للعمل معلمة ، ولكنها لم تستخدم مواهبها التربوية إلا في مساعدة أولادها على أداء واجباتهم المدرسية . والفضل لها أيضاً في إتقانهم اللغات الأجنبية : فقد كانت تمر أيام لا يدور الكلام فيها في البيت إلا بالألمانية أو الفرنسية . (كان إيليا نيقولائيفيتش وزوجته قد تعلما أيضاً الإنكليزية في نجني — نوفغورود) . وقد علمتهم كذلك فن الموسيقى : فقد كانت عازفة ماهرة على البيانو ، وصار فولوديا موسيقياً ملهماً وهو في الثامنة من العمر . وبالمقابل ما كان آل أوليانوف يميلون إلى الرسم والنحت . فما كان في منزلهم لوحات ، وربما كان السبب في ذلك جزئياً عجزهم

المادي عن شراء لوحات ، ولكن العلة الرئيسية ترجع ، كما تؤكد ابنتهم، إلى أن تذوقهم للفنون البصرية كان ضامراً : وكان ذلك واضحاً من الطابع الحيادي لأثاث بيتهم المائل إلى الصرامة والطهرانية . هذه اللامبالاة تجاه الأشكال والألوان عاودت بروزها فيما بعد لدى لينين الذي ما كان يأبه للإطار الذي يحيا فيه إلى درجة كان يعرب معها عن ازدرائه العنيف للمظاهر الخارجية ، وهذا ما انتهى إلى أن يكون أسلوباً مميزاً للسياسة الثورية . ويبدو أن لينين قد أخذ عن والديه جميع المزايا التي كان من الممكن أن تتيحها له مصادفات الوراثة السعيدة والتربية . بل إنه قد أفلح في تحويل ذلك العيب الوراثي إلى مكسب مرموق .

تقول إحدى شقيقات لينين : « كنا أسرة متحابة ومتحدة »،وجميع كتاب المذكرات يؤيدون ذلك . ولكن الأولاد كانوا يشعرون بلا ريب بأن بين والديهم فوارق في المزاج والآراء منظورة أو شبه مستترة : فقد كان الأب منفتح السريرة ومفعماً بالحماسة ، بينما كانت الأم انطوائية ومتحفظة . وكان هو لا يميز بين شخصه وبين عمله وإقليمه وروسيا التي نذر نفسه لخدمتها . بينما كانت هي مترفعة عما يحيط بها لا يشدها اليه رباط داخلي عميق . وبالرغم من أنها كانت تجاهر أحياناً بعقيدتها الاورثوذكسية الشرقية وترافق زوجها إلى الكنيسة ، فإنها ما كانت لتذهب إلى أبعد من هذا الشأو : فهي ما كانت تشاطره حميته الدينية ولا تتناول[1] ولا تصوم معه . ما كان الدين يحرك أوتار نفسها ، وما كانت لتخر راكعة وتتلو صلاة إلا إذا ألم بها ضيق عظيم يقودها إلى حافة اليأس أو يحيي فيها إحدى العادات التي اكتسبتها في طفولتها . ومرد هذه البرودة إلى الريبية اكثر منه إلى الفتور وخمول الإحساس ، وربما كان يكمن وراءها ازدراء لا يعلن عن نفسه لطقوس الكنيسة الشرقية . ولم يسمع الأولاد قط والديهم يتناقشان

---

١ القربان بحسب التقاليد المسيحية . « المعرب »

حول هذه المسألة الدقيقـــة . بيد أن هذا الاختلاف المضمر في وجهات النظر كان أشبه ما يكون بصدع رهيف في تلاحم الأسرة المعنوي .

ومن الممكن أن نقول مع تولستوي إن الأولاد التعساء تعساء كل على طريقته ، وإن كل واحد منهم يتألم من نكبة خاصة به دون غيره ، في حين أن الأولاد السعداء متشابهون جميعهم تقريبـــاً . ولقد كانت طفولة فولوديا في غاية السعادة حتى انه لا تكاد تكون هناك جدوى من وصفها بالتفصيل ، ولكن ربما كان من المستحسن أن نبقيها ماثلة أمام أعيننا لأنها ساهمت بالتأكيد في تكوين طباع ثوري المستقبل : فقد ساهمت في منحه الثقة بنفسه وفي اكتساب توازنه الداخلي وفي تفتيح شخصيته . ولا يبدو أنه قد عانى قط من جرح نفسي خطير أو من أي قلق حـاد قبل سن السادسة عشرة . فقد كان الانضباط والحرارة السائدان في البيت وفي ذلك المجتمع الصغير من الأولاد – كانوا قد أصبحوا ستة – يوفران الأمان وتنوع الاهتمامات ، وأفراحاً وتنافساً ودياً وتسلية . وكان الصغير فولوديا ، المربوع القامة ، المتوقد الذهن ، الأصهب الشعر ، اكثر إخوته صخباً وفراهة ، فكانوا يلقبونه بالجرة البطين . وكانت أولغـــا أقرب إخوته وأخواته جميعاً إلى نفسه ، ومـــا كانت تصغره إلا بعام ونصف عام : فكان يأخذها للتريض ، ويصدر اليها الأوامر ، ويلعب معها بصخب كبير حتى كان إخوته الأكبر منـــه سناً يمتنع عليهم أوامر واجباتهم وكتابـــة وظائفهم ، فلا يجدون مناصـــاً من حبس المذنب في مكتب والده ومن تركه قعيد « الكرسي الأسود » إلى أن يستعيد هدوءه . وكان لا يمل من تحطيم ألاعيبه حتى يعرف ما في باطنها ويروي ظمأ فضوله الهدام . كان في مستطاعه أن يكون فظاً وعدوانياً وهُزَأة ، ولكنه كان دوماً يقر بذنبه في خاتمـــة المطاف . ولا مراء في أن « الأنا العليا » لهذا الصبي الصغير كانت على مستوى فراهتـه . وكانت واحدة من الألعاب الأثيرة لديه نصب الفخاخ للعصافير ، ولكنه امتنع عنها عندما مـــات أحدها ،

وكان من فصيلة أبي الحن ، في القفص . وعندما كان يلعب لعبة الهنود الحمر ، كان يتقمص على الدوام شخص الهندي الذي يطارده البيض ، أي الراشدون ، بضراوة ما بعدها ضراوة ، والذي يتصدى لصيد الحيوانات الكاسرة بضراوة مماثلة . وعند العودة من هذا الصيد المزدوج ، كان يروي مغامراته للصغار بفخر ويجعلهم يقسمون على ألا يشوا به لدى البيض . كان شجاعاً إلى حد التهور ، فيقتحم سباحة أعتى تيارات الفولغا أو نهر سفياغا ، ويتحدى الأمواج تجذيفاً في قوارب مهترئة يدلف اليها الماء ، وقد انتشله النوتية مرة أو مرتين من الغرق . وكان يدخل بلا وجل إلى « المنازل المسكونة » التي يتحاشى سائر الأطفال الاقتراب منها ، أو يتسلل خلسة خلف الأشخاص الكبار في مغامرات ليلية في الغابات المدلهمة . ولكنه كان يهوى ، أن يتبارى مع ساشا[1] الذي يكبره بأربعة أعوام . وكان بينهما شيء من ذلك التوتر الذي يقوم عادة بين الأخوين الكبير والصغير والذي يعلق عليه علماء النفس الآدلريون أهمية في تكوين الشخصية . وإلى هذا التنافس وما يترتب عليه من كبت وحرمان محققين كان مرد عدوانيته وتهكمه . ولم يتغلب أنبل عناصر المنافسة على الغيرة إلا في مرحلة المراهقة فحسب .

انتسب فولوديا في التاسعة من العمر إلى معهد المدينة التعليمي الذي كان مديره – هكذا تشاء نزوات التاريخ – فيودور ميخائيلوفيتش كيرنسكي ، والد الكسندر كيرنسكي الذي أطاح حزب لينين بحكومته عام ١٩١٧[2] . وبخلاف ما يؤكده كتاب السيرة السوفياتيون ؛ مارس كيرنسكي الأب على

---

[1] لقب الكسندر .　　　　　　　　　　　　« المعرب »

[1] كان لينين في الصف الثاني في عام ١٨٨١ عندما ولد الكسندر كيرنسكي . ويزعم هذا الأخير في « مذكراته » التي نشرت عام ١٩٦٦ في باريس أنه يحتفظ بذكرى مبهمة عن فولوديا . والحال أن ما يجعل قصته غير محتملة التصديق أنه لم يكن قد تجاوز السادسة عندما غادر آل أوليانوف سيمبرسك .

فلاديمير تأثيراً عميقاً ، وعلى كل حال تأثيراً أقوى من ذاك الذي مارسه على ابنــه الكسندر الذي أمسى هو الآخر من تلاميذه . وكان فيودور كيرنسكي ، مثله مثل إيليا نيقولا ئيفيتش ، ليبرالياً ذا نزعــة محافظة ، وقد أصبح الرجلان على مر السنين صديقين ودودين ، وكان لذلك شيء من التأثير في البداية على مصير لينين[1] .

كان فولوديا تلميذاً ممتازاً : فقد كان على رأس صفه من أول دراسته إلى نهايتها . وقد روى أصدقاؤه فيما بعد أنه كان شديد الانتباه والهدوء والانضباط أثنــاء الدروس ، وأنه كان اكثر صخباً ولجبة منهم أثنــاء الفرص . كان يستذكر دروسه ويسمّعها بلا جهد ، وكان واثقــاً من ذاكرته التي ما خانته قط . كتبت أخته تقول : « عند العودة إلى البيت كان فولوديا يقص على والده ما حدث في المدرسة وكيف أجــاب على الأسئلة . ولما كانت القصة تتكرر باستمرار تقريباً ، كما تتكرر الأجوبة الصحيحة والعلامات الجيدة ، فقد كان فولوديا يندفع ... عبر الدهليز ... وهو يهذر بسرعة وبلا توقف : خمس في اليونانية ، خمس في الألمانية . والمشهد ما يزال أمام عيني : أنــا جالسة في مكتب والدي ، أفاجىء ابتسامة الرضى التي يتبادلها مع أمي ، بينما يلاحقان بنظرهما الخيال الصغير المربوع ببزتـه المدرسية وشعره الأصهب المتدلي من تحت العمرة ... خمس في اللاتينية ، خمس في الجبر . في ذلك الزمان كان والدي يقول أحياناً لوالدتنا إن فولوديا قد لا يتعلم أبداً كيف يكد بالنظر إلى السهولة الكبيرة التي يتعلم بها دروسه ... ولقد اتضح أن مخاوفه ما كان لها ما يبررها ... » . فلقد فهم فولوديا من تلقاء نفسه فيما بعد ، كما تؤكد أخته ، أن عادة

---

[1] كان أولاد النبلاء والموظفين يشكلون غالبية التلاميذ في المعهد التعليمي ، وكان ثلث هؤلاء الأخيرين فقط متحدراً من الطبقات الوسطى . وما كان على إيليا نيقولا ئيفتيش ، بوصفه من العاملين في سلك التعليم ، أن يدفع الرسوم المدرسية عن ابنائه ، وكان مبلغ هذه الرسوم ٣٠ روبلا في السنة .

النجاح بلا جهد أو تعب عادة خطرة ، فصار يرغم نفسه عن قصد على العمل .. وفي تلك الحقبة بدأ تنافسه مع ساشا ، الذي كان يفرط في الجد والكد ، يؤتي ثماره الصالحة . فقد كان ساشا يحبس نفسه الساعات الطوال في غرفته يطالع أو يجري تجارب كيميائية . وما كان فولوديا يحب الكيمياء كثيراً ، ولكنه صار يحبس هو الآخر نفسه في غرفته ويطالع بنهم متزايد . وقد أخذ هذا التباري ينعكس أيضاً في خلقه وطبعه : صار يحاول أن يكتسب شيئاً من وقار ساشا ورزانته وحصافته ، وأن يسيطر بغض الشيء على اندفاع مزاجه الأحدّ مما ينبغي . وإذا كان المثل الأعلى – أن يصير مثل ساشا – قد بدا له بعيد المنال ، فإن فولوديا قد أصبح مع ذلك أقل مشاكسة وتهكماً ، وأخذ يقدر بعض السجايا الجديرة بأن تقلد . كانت علاماته في المدرسة ممتازة وكان يتطوع لمساعدة زملائه الأقل موهبة منه . وكثيراً ما كان يأتي إلى الصف قبل نصف ساعة من بدء الدروس ويقف إلى جانب السبورة معلماً . ولم يكن في مسلكه هذا أي ادعاء أو غرور: فقد كان يحب أن يعلّم . ويروي ابن عمه فيريتينيكوف أن فولوديا اتبع هواه مرة في إثارة الهزء ، فأبكى أحد زملائه ، وكان هذا غلاماً خجولاً وبسيطاً . ولكن ضميره أنبه فيما بعد على فعلته ، فسارع يبذل قصارى جهده لتعزيته وترضيته . وبالرغم من هذا الخبث والمرح لم يكن لفولوديا أصدقاء حميمون بين رفاقه في الصف : ولعل مواهبه النادرة أو طلاقة لسانه قد أبقتهم بمنأى عنه .

كان المراهق ، الذي جعلت منه المدرسة موضع فخرها ، يميل بوجه خاص إلى الآداب القديمة ، ولا سيما إلى اللاتينية والأدب الروسي اللذين كان المدير يتولى بنفسه تدريسهما في الصفوف العليا . وكان كيرنسكي أستاذاً يتطلب الكثير من تلاميذه . وكان يعلق عظيم الأهمية على إيجاز العبارة ووضوحها ، ويعرف كيف يبث في قلوب خيرة تلاميذه حباً جماً للموضوعات التي يعلمهم إياها . وكان مبدأه الأثير لديه في الانشاء هو

« ما قل ودل » و « لتكن جملكم وجيزة وأفكاركم واسعة » . وكان يقرأ موضوعات فولوديا على التلاميذ ويهنئه على تطبيقه ذلك المبدأ تطبيقاً نموذجياً . وكان فولوديا مولعاً باللاتينية ، فكان يترجم أصعب النصوص ارتجالاً ، وينكب على مطالعة الكلاسيكيين ، وكان شيشرون كاتبه المفضل. وكان كيرنسكي الأب راضياً كل الرضى عن تلميذه ، فكان لا يلتقي بأوليانوف إلا ويحدثه عنه : فقد كان لا يخالجه ريب في أنه سيصبح علاّمة عبقرياً . وإذا كان هذا الأمل لم يتترجم إلى حقيقة واقعة ، فمن المؤكد بالمقابل أن المدير الطيب ساهم في تكوين أسلوب من سيصبح مستقبلاً رجل دولة . (قال لينين بنفسه لزوجته إن اللاتينية كانت واحدة من « الرذائل الخطرة » التي كان يتوجب عليه أن يتغلب عليها حتى يتفرغ لعمله الثوري ، وكانت الرذيلتان الأخريان الموسيقى والشطرنج) . أما اهتمامه بالأدب فكان يلقى التشجيع عليه داخل نطاق الأسرة بالذات إذ كان جميع أفرادها يتلون بوشكين وليرمنتوف ونكراسوف ، وكذلك غوته أو شكسبير أحياناً . وكثيراً ما كان يلتئم شملهم جميعاً ليصغوا إلى واحد منهم وهو يقرأ صفحات من غوغول أو تولستوي أو تورغنيف . وقد ظل أبطال رواياتهم في مخيلة فولوديا رموزاً حية لمختلف مظاهر الواقع الروسي ، وربما كانت شخصية أوبلوموف أبقى في حافظته من سائر الشخصيات الأخرى .

ظل فولوديا حتى السادسة عشرة مؤمناً ، وإن لم يكن مثل والده حمية وورعاً . ولكن الديانة الاورثوذكسية الشرقية والكنيسة كانتا جزءاً من نمط حياته ، فكان يقبلها على علاتها . ولكنه لم يكن قد أبدى بعد أي ميل إلى الخروج على القواعد الاجتماعية – السياسية أو على القيم الأخلاقية التي كان مجتمعه يحتضنها . وصحيح أنه كان يحتقر غريزياً ، شأنه شأن جميع أفراد أسرة أوليانوف ، نظام الطوائف الذي زلزل الإصلاح الكبير أيمانه من غير أن يقوضه . بيد أن الأسرة نجحت في أن تحيا ، إذا صح التعبير ،

فيما وراء ذلك النظام، وفي أن تتجاهله واثقة من أنه في سبيله إلى الانهيار الحتمي . لم يكن لدى ذلك التلميذ النابغة شيء يبشر من قريب أو بعيد بالثوري . وما كانت تحوم حوله أي شبهة تمرد ، ولم تبد عليه أي أمارة من أمارات القلق وصعوبة التكيف التي تتسم بها عادة مراهقة عدد كبير من الناس الذين يصيرون فيما بعد بورجوازيين مُخْلِدين بدعة إلى مركزهم الاجتماعي الزائف السمو . كان ينمو ويترعرع بانسجام شبه كامل مع وسطه وبيئته. وقد عجز أفراد أسرته وزملاؤه في الصف عن أن يتذكروا حادثة واحدة من حوادث التمرد وعدم الطاعة في المدرسة ، وهذا بالرغم من أن بعضهم حاول فيما بعد أن يسبق تاريخ تطوره الثوري . وكل ما عرف عنه في هذا الموضوع مشاجرة بسيطة نشبت بينه وبين أستاذ جلف أساء ظلماً معاملة تلميذ بريء . ولكنه أعطى وعداً ، بعد أن أنبه إيليا نيقولا ثيفيتش على هذه الفعلة ، بألا يتورط مرة ثانية في مثل هذه الحوادث . وقد وفى بوعده . ونحن لا نتعجب في مثل هذه الشروط من أن يكون مديره قد أعلن ذات يوم أنه يضمن انضباطه وولاءه السياسي اللذين لا يقلان مثالية ونموذجية في رأيه عن نجاحاته المدرسية .

بيد أن فولوديا ما كان يستطيع أن يتجاهل المأساة السياسية المروعة التي كانت فصولها تمثل في تلك الأعوام . فقد كان له من العمر أحد عشر عاماً عندما اغتالت منظمة « نارودنايا فوليا[1] » القيصر الكسندر الثاني . وقد أقيمت في حينه مآتم دينية في المدارس والكنائس . وكال الوعاظ والخطباء اللعنات للقتلة وأقسموا أغلظ أيمان الوفاء للسلالة المالكة . وعانى إيليا نيقولائيفيتش من اضطراب وبلبلة عميقين . ويذكر أولاده

---

[1] منظمة إرهابية ثورية شعبية روسية ، تفرعت عن منظمة « الأرض والحرية » وتفرع عنها حزب الإشتراكيين – الثوريين . وترجمة اسمها هي « حرية الشعب » . أو « إرادة الشعب » .
« المعرب »

بأي وجه ساهم وسحنة قاتمة تلقى نبأ الاغتيال . ارتدى بزته الرسمية ، وذهب لحضور القداس في الكاتدرائية ، ثم عاد إلى منزله ليحدث أسرته بعبارات تقطر مرارة عن قتلة القيصر . قال إنهم مجرمون عديمو الإحساس بالمسؤولية أوردوا روسيا موارد التهلكة . ولم تملِ عليه رأيه هذا مشاعره كموظف مخلص أسخطه « العمل الهدام » فحسب . فهو قد نشأ وشب في عهد نيقولا الثاني ، أي في حقبة مدلهة الظلمات ما كان يضيئها بصيص من نور ، ولما قام عهد الكسندر الثاني رأى فيه وعداً وأملاً . أفليس الكسندر الثاني في نظره ، كما في نظر الموجيك جميعاً تقريباً ، هو القيصر المحرر ؟ وها هو الآن قد بات يخشى ردة الرجعية التي لا مناص من أن تكشر عن أنيابها من جديد ، الرجعية التي لا مفرّ من أن تحيي تقاليد نيقولا الأول وتقضي على الاصلاحات الليبرالية والتقدم الذي تحقق في الستينات والسبعينات . ولعلها المرة الوحيدة التي أعرب فيها إيليا نيقولا ئيفيتش عن قناعاته بمثل تلك الصراحة والشراسة : فقد كان يتحاشى في الأوقات العادية هذا النوع من الأحاديث ، فلا تفلت منه إلا تلميحات نادرة ، إذ كان يخشى أن يوقظ لدى أولاده الاهتمام بالسياسة . وقد أعاره بكراه ، آنا والكسندر ، أذناً صاغية ولكنهما احتفظا بأفكارهما لنفسهما . لا لأنهما كانا يتعاطفان منذ ذلك الحين مع الثوريين ، وإنما لأن انفلات موجة الاستنكار الامتثالي من كل حدب وصوب قد تركهما في حالة من عدم الاكتراث . وقد أقلق فتور رد فعلهما هـذا إيليا نيقولا ئيفيتش ، فالتزم الصمت واستغرق في تأمل عابس . ولم تكن لفولوديا بعد أفكار شخصية حول المسألة ، بل على العكس ، ولكنه أدرك لأول مرة وعلى نحو مبهم أهمية المنازعات التي كانت تهزّ أركان العرش والبلاد .

إن الصاعقة التي صرعت القيصر لم تنفجر في سماء صافية الأديم . ففي عام ١٨٦٦ وبعد أن كان إيليا نيقولا ئيفيتش قد ترك معهد دفوريانسكي في بنزا ، أقدم طالب سابق في هذا المعهد بغير نجاح على محاولة اغتيال

الكسندر الثاني ، وكان يدعى ديمتري كاراكوزوف . وفي العام الذي رأى فيه لينين النور كانت قضية نتشائيف تهز روسيا بأسرها . وأخيراً ، وبعد ثمانية أعوام من ذلك ، أطلقت فيرا زاسوليتش النار من غدارة على حاكم سان ــ بطرسبورغ ، الجنرال تريبوف . وقد ترجع صدى هذه الطلقات حتى في سيمبرسك النائية . فقد كان الحديث يدور همساً عن المنفيين السياسيين الذين كانوا يعيشون في مكان ما على ضفاف النهر : فلكأن مارك فولوخوف، الثوري الذي رسم غونتشاروف ملامحه الكاريكاتورية في روايته « التل » ، أو ذريته قد تجسدوا على حين غرة واستقروا في الجوار . ولم ينج المعهد التعليمي نفسه من العدوى : ففي نهاية السبعينات ظهر فيه أستاذ ثوري ، من رفاق بليخانوف الشاب ، حامت حوله الشكوك في أن يكون قد شكل جماعات سرية بين التلاميذ . ولكن المقام لم يطل به : فقد طرد . ومنذ ذلك الحين بات كيرنسكي الأب يسهر بشيء من القلق على الصبيان الذين أوكل أمرهم اليه وكذلك على معلميهم . أما أوليانوف الأب فكان يفعل كل ما في وسعه حتى يحول بين أولاده وبين الاحتكاك بالأفكار الراديكالية . وقد حالفه النجاح التام في ذلك مع فولوديا ، ولكنه لم يفلح في « حماية » الكبار ، ولا سيما ساشا الذي ما اكتفى بالإقلاع عن الصلاة بل انصرف أيضاً في أوقات فراغه بين تجربتين علميتين إلى مطالعة كتابات بيساريف ودوبروليوبوف وتشيرنيشيفسكي . كتبت آنا تقول : « لما كنا في الصفوف العليا قرأت مع ساشا جميع مؤلفات بيساريف من أول صفحة إلى آخر صفحة . وقد كان لها عميق الأثر علينا » . « كانت هذه الكتب محظورة في المكتبات ، لكننا استعرناها من أحد معارفنا ، وهو طبيب كانت لديه الطبعة الكاملة . كانت أول الكتب المحظورة التي نطالعها . ولقد استغرقتنا إلى درجة أننا وجدنا مشقة كبيرة عند الانتهاء من المجلد الأخير في الافتراق عن كاتبنا المحبوب . ونزلنا إلى الحديقة وروى لي ساشا قصة موت بيساريف : إذ يبدو أن

الدركي المكلف بتعقبه ومراقبته قد رآه يتوارى تحت الأمواج ، ولكنه تعمد ألا يستنجد بأحد وأن يتركه يموت ... شعرت باهتياج نفسي عميق ... وسدر ساشا الذي كان يسير إلى جانبي في صمته المعتاد من جديد ، وما كان غير وجهه المغتم والمتشنج ليشير إلى أن انفعاله لا يقل قوة عن انفعالي » .

كان ساشا وآنا قد ألحدا في ذلك الزمن ، ولكنهما لم يتناقشا قط في الموضوع مع والديهما ، كما لم يحاولا التأثير على أخيهما الأصغر . ولعل فارق السن — كان ساشا يكبر فولوديا بأربعة أعوام وآنا تكبره بستة أعوام — يفسر جزئياً هذا المسلك . فقد نشأ ساشا وآنا ، كما لاحظ تروتسكي ذلك بسداد ، في جو السبعينات الليبرالي نسبياً ، في عصر كان فيه الراشدون يتكلمون في السياسة بما فيه الكفاية من الحرية . أما في مطلع الثمانينات فكان الأهل يتحاشون هذه الموضوعات الخطرة ، فلا يكاد يصل منها شيء إلى الأولاد الأحدث سناً . وعلى كل ، كان تطور ساشا السياسي مبكراً ، ولم يكن تطور فولوديا كذلك . وما كان ساشا آنذاك — ولا حتى بعد بضع سنوات — ينتمي إلى أي جماعة راديكالية ، وما كان يبدو عليه أنه مهتم بالسياسة السرية . كان قد عقد العزم على أن يقف نفسه على العلم ، وما كان يفكر بشيء سواه . وفي عام ١٨٨٣ اجتاز امتحان تخرجه بعلامات ممتازة وبميدالية ذهبية . فلئن شق عليه أن يجاري فولوديا في ألمعيته ، فإنه ما كان ليفوته أن يكون الأول في صفه . ولقد كان من المفروض ألا يسبب مستقبله أي هم للأهل . ولكن إيليا نيقولائيفيتش كان قلقاً مع ذلك . فقد كان يدرك بالحدس التوتر المعنوي الشديد المسيطر على روح ابنه ، والأخطار التي قد يعرضه لها هذا التوتر . وهكذا ، عندما غادر ساشا في أيلول البيت الوالدي ليدخل إلى جامعة سان — بطرسبورغ ، توسل اليه إيليا نيقولائيفيتش بأن يلزم « جانب الحذر » وبألا يتدخل في أمور السياسة . ووسد ساشا ، وكان في نيته

حقاً أن يفي بوعده . كانت نفسه تجيش حماسة لمجرد التفكير بأن استاذه سيكون مانديليثيف[1] الذي أحدث قانونه الدوري ثورة في عالم الكيمياء . ثم إن النشاط السري في تلك الحقبة من الزمن ما كان يمارس غير جاذبية واهنة للغاية . فمنظمة « حرية الشعب » ، التي أنهكها الاندفاع الإرهابي الكبير لعام ١٨٨١ ، كانت قد كفت عن الوجود . وقد أخفقت جميع الجهود التي بذلت لبعثها . وكان مرتكبا تلك الأعمال الإرهابية ، فيرا فغنسر ولوباتين ، قد سقطا في أيدي الشرطة .

ولكن الرسالة الأولى التي كتبها ساشا إلى أسرته في ٢٧ أيلول كانت تنطوي على ما يشبه النذير . فقد وصل إلى سان – بطرسبورغ بعيد وفاة تورغنيف . وكان جثمان الكاتب قد أعيد من فرنسا ، وكانت انتلجانسيا العاصمة تأخذ أهبتها لتوديعه الوداع الأخير . وقد كتب ساشا إلى أهله يقول : « اليوم كان موعد دفن تورغنيف . ولقد ذهبنا أنا وآنا ورأينا الموكب : كتلة هائلة من الأكاليل والناس ، والنعش تحت ظلة مذهبة تغطيها الزهور والأكاليل . ولكن استعصى علينا الدخول إلى المقبرة (فقد كانت الشرطة تسد المداخل ومن امكنه الدخول قال إنه لم تلق غير أربع مراث فقط (كان الخطباء رئيس جامعة سان – بطرسبورغ ، وأستاذاً ليبرالياً – محافظاً موسكوفياً ، وأديبين ليست لهما أهمية كبيرة) . ولم يمنح أي إنسان آخر حق الكلام » . ولم يأت ساشا على ذكر هذا الحادث إلا باقتضاب ، في الفقرة الأخيرة من رسالته ، بعد أن وصف بالتفصيل إقامته في موسكو ، وروى أوصاف الغرفة التي استأجرها ، وما إيجارها ، وأين يتناول طعامه ، وما كلفته . ولم يعرب عن أي رأي بصدد ما حدث أثناء الدفن . ولكن تلك العبارة الموجزة : « لم يمنح أي إنسان آخر حق

---

[1] ديمتري إيفانوفيتش ما نديليثيف (١٨٣٤ – ١٩٠٧) كيميائي روسي ، واضع التصنيف الدوري للعناصر الكيميائية . « المعرب »

الكلام » ، كانت بلا مراء مشحونـــة بالانفعال . فقد كان تورغنيف الكاتب المفضل لدى أسرة أوليانوف . وما أكثر ما التأم شملهم ليقرأوا صفحات من مؤلفاته ! كانوا مغرمين بأقاصيصه وأسلوبه . ولم تكن فكرة حضور مراسم دفنـــه تنطوي على أي مظهر غير طبيعي بالنسبة إلى آنـــا وساشا ، وما كانت من قريب أو بعيد ذات طـــابع « هدام » . ولقد كان من الممكن لإيليـــا نيقولائيفيتش نفسه أن يرافـــق أولاده إلى مقبرة فولكوفو لو كـــان موجوداً في سان ــ بطرسبورغ في ذلك اليوم . ولنقل بالمناسبة إن تورغنيف لم يكن ثورياً : أفلم يصرح بأن فينوس ميلو [1] أقل إثارة لشكوكه من مبادىء الثورة الفرنسية ؟ ولئن كان ليبيراليـــاً ، فقد تخاصم مع الراديكاليين . ولا بد أن آنا وساشا قد تساءلا بينهما وبين نفسهما: لمَ ذعرت الحكومة والحالة هذه من التكريم الذي قد يحاط به عند تشييعه إلى مثواه الأخير ؟ لمَ أبدت كل ذلك القدر من الغباء والحساسة ؟ ولا بد أن يكون هذا السؤال قـــد طرح نفسه مراراً وتكراراً خلال الشهور التالية على ساشا ، طالباً منه جواباً وحاثاً إياه على الانتقال إلى العمل . ولنشر إلى أن الشرطة قـــد منعت الجموع في مقبرة فولكوفو من السير وراء نعش تورغنيف . هل كان في ذلك مـــا يشبه النذير ؟ إن أحداثاً مماثلة ، وقعت هي الأخرى بعد ثلاثة أعوام في إطار تلك المقبرة ، ستكون بمثابة الحافز النهائي الذي سيلقي بساشا في نضاله الثوري المأساوي والقصير الأجل . أما الآن فإن حادثة ٢٧ أيلول لم يكن لها عقابيلها . فقد كان ساشا منصرفـــاً كل الانصراف إلى دروسه . وكان يعلن في رسائله عن رضاه التام بأساتذته الذين وجد دروسهم ممتعة ، وكذلك بالمخابر الحسنة التجهيز وبمكتبة الجامعـــة التي لا ينقصها شيء . وكان علم الحيوان وعلم

---

[1] جزيرة يونانية اكتشف فيها في عام ١٨٢٠ تمثال فينوس المشهور المنسوب اليها .

« المعرب »

الأحياء قد شرعا يثيران اهتمامه إلى جانب الكيمياء. وكان نادراً ما يكتب، وكانت رسائله في غاية من الاقتضاب ومن « الجفاف » – كان يروي فيها بوجه خاص التفاصيل المادية لحياته اليومية – حتى لكان يصعب إدراك حقيقة مشاعره. وما كانت محبته الصامتة لتعبر عن نفسها إلا في بعض البوادر: فقد كان يرسل مجلات تحظى باهتمام إيليا نيقولائيفيتش وينقب في دكاكين الوراقين بحثاً لأولغا عن نوطات موسيقية لها بها ولع أو عن طبعات رخيصة الثمن لمؤلفات تولستوي، ويرسل بانتظام إلى فولوديا كتباً قمينة بأن تنفعه. « أرسلت إلى بابا الكراسة بصدد « السفسطات الرياضية » التي كان يحب لو يقتنيها. وأعتقد أنه من المفيد لفولوديا أن يحاول حل هذه السفسطات بنفسه. هل تلقى الترجمات الألمانية التي أرسلتها اليه بالبريد؟ »[١].

كان من الجلي الواضح أنه يحيا حياة متوحدة. نقرأ في إحدى رسائله تلك: « أنا في صحة جيدة »، ثم هذه العبارة الدالة: « إنني أحيا كما في السابق. أعمل في المخبر حتى السادسة مساء. وأمضي غالب أمسياتي في غرفتي ». ولم يكن له من أصدقاء عملياً: كانت آنا، التي درست هي الأخرى في سان – بطرسبورغ، قريبة إلى نفسه، ولكنه ما كان يسايرها، إذ كان في غاية الحرص على تفاصيل حياته الخاصة، الأمر الذي لم يكن مألوفاً لدى الطلاب الجامعيين الروس. وصحيح أنه كان منتسباً إلى « زملياشستفو »، وهي رابطة للطلاب الآتين من منطقة واحدة (أو حتى من مدينة واحدة) وأنه انتخب عضواً في مجلس واحدة من هذه الجمعيات التي كانت تمثل المنظمات الطلابية الوحيدة التي ما تزال الحكومة تسمح بها. وصحيح أن حلقات نقاش شبه سرية كانت تنعقد تحت جنح هذه الروابط اللاسياسية التي كان دورها الأساسي بذل المساعدة

---

١ « قضايا تاريخية » – العدد ٥ – ١٩٦٦.

المتبادلة للطلاب ، ولكن ساشا ما كان يزج بنفسه في تلك المناقشات ويحتقر « تلك الثرثرات التافهة التي لا تعرف من نهاية » . وما كان سلوكه المتوحد والانعزالي يمت بصلة إلى التكتم الذي لا غنى عنه للثوري العامل في السر . وكل ما هنالك أنه كان يوائم طبعه الجاد ، الزهدي ، وشغفه بالعلم . كان يحرم نفسه حتى من أبسط الملذات ، ويتناول جميع وجبات طعامه في مطعم الجامعة ، فلا ينفق غير جزء من المرتب الشهري الذي خصصه له والده ، ويعيد إلى أهله عند رجوعه اليهم الروبلات التي نجح في توفيرها . وأثناء العطل الصيفية في كوكوشكينو كان يحبس نفسه في مطبخ غير مستعمل حوّله إلى مخبر . وكان أهله يساورهم القلق على صحته ، إذ يرونه شاحب اللون منهلك القوى ، فيحاولون انتزاعه من هواء غرفة التجارب الفاسد وإشراكه في النزه والألعاب في الهواء الطلق . وكان يحلو لإيليا نيقولائيفيتش أن يلقبه مازحاً بـ « فيلسوفنا » أو « مستكشفنا » . وكان ساشا يسايرهم مكرهاً ويعود أدراجه إلى مخبره بأسرع ما يمكنه .

وإذا كان قد اتضح آنذاك أن الخوف من رؤية ساشا يتمرد على السلطان ويسبب لأسرته المتاعب ليس له ما يبرره ، فإن إيليا نيقولائيفيتش قد كابد مع ذلك من صدمة أخرى ، مردها إلى أسباب سياسية . فقد أبلغته وزارة الإعلام في عام ١٨٨٤ أنه سيحال على التقاعد في السنة التالية . وكان ، بوصفه ليبرالياً ، شبه مغضوب عليه ، وانعكس ذلك على عمله التربوي الذي بات مهدداً بأن يتوقف[1] . والحال أنه لم يكن قد تجاوز الثالثة

---

[1] يؤكد كتاب سيرة أسرة أوليانوف أن « إيليا نيقولائيفيتش كان وراءه ٢٥ عاماً من الخدمة وأن الوزارة منحته مهلة عام واحد فقط ، مع أن غالبية كبار الموظفين كانوا يستفيدون بوجه عام من مهلة خمسة أعوام » . ولكن إيليا نيقولائيفيتش لم تكن له خدمة ٢٥ سنة في عام ١٨٨٤ . فقد تصرمت ثلاثون سنة تقريباً منذ أن شغل منصبه الأول كمعلم في مدرسة خاصة في بنزا ، وأكثر من عشرين سنة منذ ارتحاله إلى كازان ، وما كان يقوم بمهام وظيفته الإدارية في سيمبرسك إلا منذ ١٥ عاماً .

والخمسين وكان في نيته أن يتابع نشاطه حتى الستين . ولكن الوزارة كانت على وشك أن تضع حداً للسياسة شبه الليبيرالية التي دشنها الكسندر الثاني . وكان القيصر الجديد يقدر أن أولاد الطبقات الدنيا يتوصلون إلى مستوى من التعليم أعلى مما تستوجبه مصلحة الاتوقراطية . وما كان يرغب في أن ينتشر في طول البلاد وعرضها عدد اكبر من المدارس الابتدائية . أما بصدد مسؤولية المؤسسات القائمة ، فقد انتزعت من أيدي الزيمستفويات ، تلك المجالس المستنيرة نسبياً ، لتوضع بين أيدي كهنة الأبرشيات الذين كانوا يشرفون على تعليم المرحلة الأولى قبل إصلاحات الستينات . كما أن المناهج التعليمية ستختصر اختصاراً شديداً ، حتى لا تعود المدارس وسيلة لتلقين أبناء الفلاحين عادات التفكير المشتط . وكان هذا الإصلاح المضاد مظهراً من مظاهر ردة الفعل ضد شبه ليبيرالية العهد السابق . فقد كانت العناصر الإقطاعية الأشد تخلفاً من أرستقراطية الأرض تجهد بعناد لوضع الطبقة الفلاحية تحت هيمنتها المطلقة من جديد ، ولوأد روح التقدم الأوروبية المصدر ، أي البورجوازية ، التي هبت على الدولة والمجتمع منذ نحو ربع قرن من الزمن . وكانت تلك العناصر قد وجدت حليفاً لها في شخص القيصر الجديد . وبعد أن أدخلت في ذهنه بلا صعوبة أن الكسندر الثاني قد قضى ضحية نزعته الليبيرالية ، راحت تحرضه على الانتقام للسلالة المالكة المهانة وعلى حكم البلاد بقبضة من حديد . وقد هتف المستشار الأول للقيصر ، ج. ب. بوبييدو نوستيف ، الذي كان أيضاً وكيل المجمع الكنسي المقدس ، هتف في جلسة لمجلس الوزراء : « لعلها نهاية روسيا ... فهناك أناس يريدوننا أن نشترع دستوراً ... خدعة تستخدم ... كما برهنت لنا على ذلك أوروبا الغربية ... أداة لمختلف أنواع الاكاذيب ... إن في ذلك لو فعلناه شقاءنا وهلاكنا ... لقد كانت روسيا قوية بفضل الأتوقراطية ... وهم يقترحون علينا أن نفتتح دكاناً للثرثرة ، شيئاً من قبيل الجمعيات التمثيلية الفرنسية . إننا نشكو أصلاً من

عدد زائد عن الحد من دكاكين الثرثرة الخاضعة مطلق الخضوع لتأثير الصحف المخزية التافهة التي تلهب الأهواء الشعبية » . وقد صنف بين دكاكين الثرثرة هذه الزيمستفويات والبلديات التي يتولى شؤونها « أناس لا أخلاقيون ومنحلون » ، والمحاكم التي تحتكرها ثرثرة رجال القانون والتي تظل بفضلها أشنع الجرائم بلا عقاب . وها هي ذي الحرية قد منحت للصحافة التي هي أشد « دكاكين الثرثرة » أذية وسمية . و « فكرة تحرير الفلاحين الكبيرة والجليلة تلك ، إلى أين قادتنا ؟ لقد أعتق الفلاحون ولكنهم لم يُخضعوا لسلطة لائقة . والحال أن جمهرة البؤساء لا تستطيع أن تحيا بلا سلطة » .

كان واضحاً للعيان أن إعادة العمل بنظام القنانة بتمامه قد فات أوانها: فالقنانة تتناقض ونمو الاقتصاد الرأسمالي . ثم إن خطر حرب فلاحية كان جسيماً . ومع ذلك أعيد العمل جزئياً بنظام القنانة . ففقد الفلاحون حريتهم في الحركة ، وأمكن لملاك الأراضي من جديد أن يجلدوهم بقلب يطفح جذلاً . وتم إخراس « دكاكين الثرثرة » . وقبضت الحكومة وشرطة القيصر على زمام النظام القضائي بيد من حديد . وجُردت الجامعات من كل استغلال ذاتي : فالوزارة هي التي ستتولى من الآن فصاعداً تعيين العمداء والأساتذة . وحُظرت المنظمات الطلابية وروابط الزملياشيستفو . واختفى من المكتبات الأدب الهدام ، بما في ذلك المؤلفات الموسومة بالنزعة الليبرالية الأكثر اعتدالاً ، أسواء كان مصدرها روسياً أم أوروبياً غربياً . وخُنقت الأفكار الخبيثة التي كانت كخميرة تحوّل روسيا ببطء . ولم تجد الانتلجانسيا مندوحة من الانحناء بلا حس أو نأمة أمام الاوتوقراطية والاورثوذكسية والشوفينية الروسية الكبيرة ونزعة الجامعة السلافية .

هكذا تطايرت جميع الآمال التي كان إيليا نيقولائيفيتش قد بنى عليها وجوده وعمله إرباً إرباً . أما يقينه بأنه قادر على أن يخدم القيصر والشعب

معاً فقد انكشف عن أنه خطأ محزن . كانت عشر سنوات قد تصرمت منذ أن عزز فشل النارودنيين في إثارة الفلاحين قناعته بأن طريقته في « الذهاب إلى الشعب » هي وحدها الطريقة المعقولة . ولكن الهزيمة التي يعاني منها الآن كانت اكمل وأشمل من هزيمتهم ، لأن رواد الثورة أولئك على إخفاقهم وفشلهم قد وجهوا على الأقل فكر خلفائهم نحو طرق أخرى في النضال الثوري ، في حين أنه انتهى ، هو الموظف الليبرالي - المحافظ ، إلى طريق مسدود . ولعله لم يدرك هذه الحقيقة بوعيه، ولكنه بات يشعر بغريزته أنه قد مني بهزيمة ماحقة . ولا ريب في أنه ألقى مسؤولية حركة القمع تلك على الثوريين . فقد كان في وضع يحول بينه وبين أن يفهم أن هؤلاء الثوريين يمثلون ضرورة تاريخية تتجاوزهم من بعيد . بيد أن « اشتطاطهم » بالذات ما كان يبرر في نظره اللجوء إلى مثل ذلك القمع المفرط الفظاظة والوحشية والهمجية . كان يستحيل عليه أن يقبل به . ثم إن الجرح الذي أصابه في شخصه بالذات كان بليغاً . فخلال خمسة عشر عاماً من الخدمة في سيمبرسك أسس ٤٥٠ مدرسة ، كما أن عدد تلاميذ الإقليم قد تضاعف خلال الحقبة ذاتها . وها هو ذا الآن يسمع من يقول له إن عمله هذا ، الذي نذر له روحه وجسمه ، ما عاد يحظى برضى السلطات ، وإن عليه أن يمتنع من الآن فصاعداً عن الاهتمام بمدارسه : أضف إلى ذلك أن الهموم ذات الطابع الشخصي زادت من بلباله : فقد كانت فكرة البقاء بلا عمل ترعبه ، وما كان لديه موارد مالية ، ومعاشه التقاعدي لن يكون بحال من الأحوال كافياً . صحيح أن أصدقاءه كانوا يبذلون قصارى جهودهم لإقناع الوزارة بإبقائه في منصبه . ولكن السلطات احتاجت إلى سنة كاملة لتأخذ قرارها النهائي . ولقد كانت هذه الشهور الاثنا عشر مشحونة بالتوتر والقلق بالنسبة إلى إيليا نيقولائيفيتش . وعندما ورد في النهاية الجواب - فقد قررت الوزارة تثبيته في وظيفته لمدة خمسة أعوام إضافية - كان قد تحطم . ثم إن هذا

القرار لم يحمل له غير باهت العزاء : فقد استوى لديه مذلة وهواناً أن يستمر في مثل هذه الشروط أو أن يقال من وظيفته . فالسياسة الحكومية ما عادت تتيح أي إمكانية عمل لهذا المربي الليبرالي الذي لم يبق له من خيار غير أن يتأمل عاجزاً انتصار نزعـة التجهيل التي اجتاحت المدارس التي خلقها .

وبذل إيليا نيقولائيفيتش ما في وسعه ليخفي عن أولاده ما يشعر به. كتبت آنا تقول : « لم أفهم إلا فيما بعد العذاب الذي سببه هذا كلـه لأبي وعجّل بانطفائه » . وتروي أنها في عام ١٨٨٥ ، وهي في طريق عودتها إلى سان ــ بطرسبورغ لتمضية عطلة الميلاد في البيت ، نزلت في سيزران ، المحطة الأخيرة باتجاه سيمبرسك ، فصادفت فيها أباها وهو راجع على صهوة حصان مما سيكون جولته التفتيشية الأخيرة في الإقليم . والصورة التي تركتها لنا عنه تذكرنا بدون كيشوت وهو عائد إلى مسقط رأسه للمرة الأخيرة ، مقهوراً صاحي الفكر بعد معاركه وأسفاره كافة . لم يبق فيه شيء من حيويته ومن تفاؤله السابق . « أذكر أنني سرعان ما وجدته قد تقدم به العمر ووهنت قواه كثيراً بالنسبة إلى الخريف السابق . وأذكر أيضاً أنه كان خائر النفس إلى حد يبعث على الاستغراب . وقد روى لي بحزن كبير أن الحكومـة تتمنى في الوقت الراهن تشييد مدارس تابعة للأبرشيات لا غير وتريد أن تعهد إلى الكهنة بتلك التي كانت تابعة حتى ذلك اليوم للزيمستفويات . وكان هذا معناه أن عمل حياتـه بأسرها سيتبدد وكأنه لم يكن ». وقد وجد إيليا نيقولائيفيتش في رسائل ساشا التي تصف الشروط التي أطبقت فيهـا القبضة الحديدية على الجامعات توكيداً آخر لانهيار آمالـه . فبعد حل الزمليياشيستفويات ، راحت الحكومة تهدد بفصل الطلاب الذين كانوا فيها أعضاء فيما سبق . وأحس ساشا بأن القلق قد استولى على أبيـه ، ولا سيما أن الصحف تتكلم عن اضطرابات في كييف وموسكو حيث راح الطلاب يحتجون عـلى الإجراءات الجديدة .

وبادر يبث الطمأنينة في قلبه : « إنك لمغتم بلا ريب إذ تقرأ ما يروى عن اضطرابات جامعتي كييف وموسكو . ولكن كل شيء هادىء هنا ... » . بيد أن هذه الكلمات نفسها كانت محملة بنذير السوء ، بإيحائها أن اضطربات مماثلة قد تقع أيضاً في سان ـ بطرسبورغ . ومن حين إلى حين كان ساشا يروي بوجيز العبارة تسريح أو استقالة أستاذ أو محاضر متهم بمعاداة أفكار بيوبييدونو ستوف ، ولا سيما بمعاداة نزعة الجامعة السلافية الرسمية . هذا ما كانه ، على سبيل المثال ، شأن ف. م. ديمتربيف ، مؤرخ التشريع الروسي الذي كان زميلاً ، وعلى ما يبدو ، صديقاً لإيليا نيقولائيفيتش في سيمبرسك . وكان ساشا ما يزال « يحيط نفسه بالانتباه » ولا يعرب عن أي رأي شخصي ، وإن كان يلاحظ من حين إلى حين أن هذا أو ذاك من المفصولين كان « أستاذاً ممتازاً » . وكان تبادل الرسائل هذا ، بالرغم من تحفظه ، يأخذ مكانه في إطار المناقشة المستمرة ، إيماءً وتلميحاً ، بين الأب والابن . وكانت أفكار ساشا ما تزال بعيدة عن التبلور . بيد أن كل رسالة من رسائله كانت تشير إلى أنه آخذ بالانحياز إلى جانب أولئك الذين يصارعون السلطة . وما كان في وسع إيليا نيقولائيفيتش إلا أن يتحسس من طرف خفي وعلى نحو غير كامل الوضوح الاتجاه الذي تتجه فيه أفكار ابنه وعواطفه ، ولم يكن قد تبقى في جعبته من حجة يواجهه بها لإيقاف تطوره .

في هذه الحالة النفسية المحزنة قضى إيليا نيقولائيفيتش الأسابيع الأخيرة من حياته . وكما هي الحال دوماً ، كانت الفترة الممتدة بين أواخر كانون الأول وكانون الثاني فترة نشاط محموم كرسها لتحرير تقاريره السنوية . ويروي أحد زملائه ، وهو ف. نازاريف ، أنه « في مطلع كانون الثاني ١٨٨٦ عمل من الصباح إلى المساء في تقرير معقد » ، وأنه « في الساعة من ١٢ كانون الثاني وضع مكرهاً ريشته جانباً وقد أخذ منه التعب كل مأخذ » . وكان منذ بضعة أيام يشعر بأنه ليس على ما يرام . بيد أن

أحداً لم يخامره شك في المسألة اكثر من مسألة توعك عابر . « لم ننظر بما فيه الكفاية من الجد إلى توعكه . كان على قدميــه لا يني يعمل ، وكان معاونوه — من المفتشين — يأتون لزيارته . وفي ١٢ كانون الثاني شق عليه اليوم . كنت إلى جانبه وسألني أن أقرأ لــه بعض الوثائق . لكني لاحظت أن أفكاره تختلط بعض الشيء ، وأن لسانه يتلعثم ، وأقنعته بأن يتوقف » . وفي اليوم التالي رفض أن ينضم إلى مائدة الأسرة متعللاً بعدم الجوع . ولكنه « دنا من الباب ونظر الينا (« كأنه أراد أن يودعنا » كما قالت والدتنا فيما بعد) . ثم ذهب ليتمدد على أريكة مكتبه ... وفي حوالي الخامسة نادتنا أمي أنا وفولوديا هلعة . كان واضحاً للعيان أن أبي يلفظ أنفاسه الأخيرة . واختلج عدة اختلاجات ثم تخشب » . لم يكن له من العمر سوى ٥٥ سنة ، وقد قال الأطباء إنه مات بنزيف في الدماغ : ولسوف يموت لينين بالعلة نفسها في الرابعة والخمسين . وترتأي ابنته آنا دونما مزيد من التفاصيل أنه كان مصاباً بتشوشات دماغية وأن الأطباء لم يشخصوها . ولكنها تؤكد أيضاً أن التوتر النفسي والعصبي الذي فرض عليه قد عجل بنهايته (سنصادف نفس هذه العلاقــة بين التوتر المعنوي وبين المرض في المرحلة الأخيرة من حياة لينين) .

ونظمت الجنازة بكل الأبهة اللائقة برتبة المتوفى ، وسط الندب ودخان البخور اللذين تتسم بهما الطقوس الاورثوذكسية الشرقية . وتروي ف. ف. كاشكا داموفا ، وهي صديقة للأسرة كانت مؤدبة لأولاد أوليانوف ، أن المنزل كان غاصاً بالناس ، وأن ميتيا (ديمتري) أصغر الأبناء ، الذي حاول الراشدون أن يبقوه بمنأى عن الجلبة ، اندفع صارخاً بكل قواه : « إنهــا الجنازة الخامسة اليوم » . أما ماريا الكسندروفنا فقد وقفت إلى جانب النعش « شاحبة ، هادئة جداً ، بلا دموع ولا عويل » . وتقول صحيفة « أنبــاء محافظة سيمبرسك » إن « حشداً غفيراً » تدفقا إلى الشارع ، أمام منزل أوليانوف ، عندما ظهر النعش « يحمله الإبن الثاني

(فلاديمير) وكذلك أصدقاء المرحوم وأقرب معاونيه إليه » (لعلها المرة الأولى التي تذكر فيهـــا صحيفة من الصحف اسم من سيكون لينين في المستقبل) . وفي المقبرة ، في حرم دير بركروفسكي ، كانت التراتيل والمراثي تتوالى بلا انقطاع . وغُطي القبر بأكاليل من الزهور تحمل أمثال هــذه العبارة : « من قبل المعلمين الأبرشيين في مدينة سيمبرسك الذين حز في نفوسهم اختفاء رئيس وأب قبـــل الأوان » . ومن خلال شتى أوصاف هذه الجنازة تبرز صورة الأرملة الصموت ، منتصبة ، جافـــة العينين ، وقد « انطوت على نفسها » كما تلاحظ كاشكا داموفا : « ابتعدت عن الناس وعن معارفها لتنذر نفسها بمزيد من التفاني لأسرتها » . ولقد فرض واقع ترملها المرير نفسه عليها فوراً ، فقد ترك إيليا نيقولائيفيتش أسرته بلا شروى نقير . ولقد وجدت نفسها مكرهة عشية الجنازة بالذات على تقديم طلب لتخصيص نفقة لها ولـ « أولادها الصغار الأربعـة » . ولما لم تتلق من جواب على الرغم من مرور أشهر ثلاثة كتبت من جديد إلى « صاحب السعادة مدير الخدمات التربوية في محافظة كازان ، المستشار المؤتمن بورفيري نيقولائيفيتش ماسلينيكوف » : « عمل زوجي ، إيليـــا نيقولائيفيتش أوليانوف ، طوال أكثر من ثلاثين عاماً في التعليم ... ولقد توفي وبقيت بلا موارد ، مـــع أربعة أطفال صغار يذهبون إلى المدرسة واثنين يتمان دراستهما العالية . إن علي أن أتدبر أمر معيشتهم . وبالرغـــم من أن لزوجي حقاً في معاش ، فإني لم أتلق شيئاً حتى الآن ، وعليـــه فإني أبيح لنفسي أن أسألكم بمزيد الاحترام عما إذا لم يكن في مستطاعكم أن تدفعوا لي معونة في شكل مبلغ إجمالي » . وبعد مرور ثمانيـــة أيام كررت « طلبها المتواضع » ، قائلة إنه لا مناص بلا ريب من الانتظار بعض الوقت للحصول على معاشها ولكن لا بد لها أثناء ذلك من أن تعيش و « تسدد المال الذي اقترضته من أجل جنازة الزوج ، وتطعم الأولاد، وترعى ابنة تتابع دروساً في التربية في بطرسبورغ وابنا بكراً ترك معهد

سيمبرسك التعليمي حاملاً ميدالية ذهبية ، وهو الآن في السنة الثالثة في كلية العلوم في بطرسبورغ حيث يتابع دراسته بنجاح ، وقد منح مؤخراً ميدالية ذهبية على الأطروحة التي قدمها [1] . وكلي أمل بأن يصبح في المستقبل بمعونة الله ركيزة لي ولإخوته وأخواته الصغار ، ولكنه في الوقت الراهن بحاجة إليّ ، شأنه شأن سائر الأطفال ... » . وفي خاتمة المطاف خُصص لها ولأولادها معاش سنوي مقدار ١٢٠٠ روبل . ولم يكن هـذا المبلغ كافياً لتغطية نفقات الأسرة واضطرت ماريا الكسندروفنا إلى تأجير نصف منزلها لأشخاص عدة .

كان فلاديمير في حوالي السادسة عشرة يوم وفاة والده . وكان أكبر أبناء أوليانوف ممن لا يزالون يحيون في سيمبرسك . ولم يحضر ساشا الجنازة . فالنبأ لم يصله إلا متأخراً ، وكان يستعد في ذلك الوقت للامتحانات التي عادت عليه بتلك الميدالية الذهبية التي أشارت إليها ماريا الكسندروفنا بمزيد مـن الفخر في العريضة التي رفعتها إلى السلطات . ويرى بعض كتاب السيرة في غيابه علامة على سوء تفاهم مع أسرته . وبالمقابل يروي كاتب أو اثنان من كتاب المذكرات أن وفاة والده قد أغرقته في حزن عميق ، ولكنه تمالك نفسه خلال أسبوع من الزمن ، ظاهرياً على الأقل ، وانكب على العمل من جديد . وأقامت آنا شهرين في سيمبرسك ، ثم رحلت إلى بطرسبورغ ثانية بناء على إلحاح والدتها حتى تستأنف دراستها . وعلى هذا فإن فولوديا هو الذي وقعت على عاتقه مهمة القيام مقـام الأب . إلا أن المصيبة التي ألمت بأسرته لم ترتق مراهقته التي مـا كانت تعرف غير الاندفاع . بل على العكس : فاختفاء السلطة الأبوية قد حرره مـن بعض الإكراهات ، فزاد عناداً وتشبثاً عما كان عليه من قبـل . تقول

---

[1] كان موضوع الأطروحة التي نال عليها الكسندر هذا التقدير هو : « الأعضاء الفصية والتناسلية لحلقيات المياه العذبة » .

أخته آنا : « كان فولوديا في ذلك الطور الانتقالي الذي تتبدى فيه فظاظة الصبيان وعدوانيتهم على أشد ما تكونان . وقد ازدادتا بروزاً لديه – هو الذي كان على الدوام صاخباً وواثقاً بنفسه – بعد وفاة والدنا ... وإني لأذكر كم حز في نفسي أن أراه على هـذا القدر من شكاسة الطبع » .
وفي الصيف التأم شمل الأسرة في سيمبرسك أولاً ثم في كوكوشكينو حسب ما جرت عليه العادة : كانت تلك آخر عطلة صيفية يقضيها ساشا ههنا .
وكان ما يزال عـلى طبعه صموتاً منطوياً على نفسه ، فيحبس نفسه في « مخبره » أو ينكب على مطالعة كتاب لم يسمع به أي فرد ممن حـوله قط : « رأسمال » كارل ماركس . وبالرغم من تحفظه لاحظ الجميع أن بينه وبين فلاديمير نوعاً من التناصر . وتروي آنا أنها سألته ذات يوم بصراحة عن رأيه بأخيها الأصغر . « إنه بالتأكيد صبي موهوب للغاية ، ولكننا لا نتفاهم جيداً (أو « لا نتفاهم بالمرة ») . مـا عدت أذكر جوابه بحرفه ، ولكني أذكر أنه لفظ تلك الكلمات بلهجة صارمة حازمة».
ولم يشأ ساشا أن ينطق بالمزيـد حول الموضوع . بيد أن آنا تلاحظ أن « موقف فولوديا المستعلي واللامسؤول ، ولا سيما تجـاه والدتنا التي شرع يرد عليها بأجوبة ما كان ليجرؤ على مثلها في حيـاة والدنا ، ووقاحته وتهكمه ... أمور كانت غريبة كل الغربة عن ذهن ساشا الذي كـان يقابلها باستياء » . إلا أن فلاديمير الفتى كان يكنّ مع ذلك إجلالاً كبيراً لأخيه البكر الذي ما فتىء يسعى إلى تقليده منذ نعومة أظفاره . هل كان يشعر بأن مثله الأعلى ما يزال بعيداً عن متناوله ، فيحرن ويشمس رغبةً في التعويض عن هذا الإحساس بالفشل ؟ ألم يكن موقفه المتصلب الوجـه الآخر لدرع الأمان التي تحميه من السقوط في الكبت الشامل ؟

كان ذلك العام بالنسبة إلى ساشا العام الذي تقرر فيه مصيره . كـان مزاجه أحدّ من المعتاد ، وما كانت حماقات فولوديا إلا لتزيده سخطـاً وغيظاً . ولقد حرره موت أبيه ، هو الآخر ، من بعض الإكراهات ،

ولكن بمعنى خاص به . فقد تخلى دفعة واحدة ونهائية عن المشاغل العلمية الخالصة كافة ليلتفت إلى القضايا الاجتماعية والسياسية . وما عاد في وسعه أن يفلت من جو التجهيل والإرهاب الخانق بالتجائه إلى قاعات الدروس ومخابر الجامعة . ففي ١٩ شباط ، أي بعد أقل من خمسة عشر يوماً من إنجازه أطروحته عن خصائص حلقيات المياه العذبة ، اشترك في عمل سياسي بالغ الأهمية : فقد ساهم في تنظيم مظاهرة تخليداً لذكرى أبطال الإصلاح الأكبر في عام ميلاده الخامس والعشرين . ولم يكن لهذه المظاهرة في حد ذاتها ، كما لاحظ تروتسكي ، غير مرامٍ في منتهى التواضع . فالإصلاح الأكبر بعد كل شيء أدين من قبل النارودنيين وأعضاء منظمة « حرية الشعب » وجميع الراديكاليين الذين رأوا فيه تدبيراً شائهاً وخدعة . ولقد كان المحافظون من ذوي الميول الليبيرالية ، إلى عهد قريب ، هم وحدهم الذين يرون فيه مرحلة على طريق التقدم أو حدثاً ذا أهمية تاريخية . وإذا كان الجيل الجديد من الطلاب قد راودته الرغبة في الاحتفال بذكراه وتمجيده ، فإن هذه الواقعة تظهر لنا إلى أي حد أفلت روح النقد الاجتماعي والصبوات السياسية بالمقارنة مع مستوى ١٨٦٠ — ١٨٧٠ الرفيع . ومع ذلك أخذ مشروع الطلاب ، في مناخ الردة العنيفة على عصر الإصلاح الكبير الذي تميز به عهد الكسندر الثاني ، أخذ طابع معارضة متطرفة ضد الحكومة . وإنما من هذه الزاوية نظر اليه جميع الناس : الطلاب أنفسهم وقد أخذتهم الرغبة في اختراق جدار الصمت الخانق الذي تنوء تحته بطرسبورغ ، المحافظون وقد صمموا على هدم ما بناه الإصلاح الكبير ، وأخيراً القيصر الذي رأى خطر الاغتيالات يرفع رأسه من جديد بحجة تخليد ذكرى مأثرة والده . والواقع أن الطلاب لم يدعوا الشعب إلى التجمع أو التظاهر في الشارع . فقد كان كل قصدهم أن ينظموا احتفالاً تذكارياً في مقبرة فولكوفو حيث جرت قبل عامين من الزمن مراسم دفن تورغنيف . وهنا أيضاً لم يكن الكسندر أوليانوف بحاجة إلى أن يكون

ثورياً أو حتى راديكالياً متطرفاً كيما تجتذبه هذه الفكرة : فقد كان من الممكن تماماً قبل بضع سنوات لا أكثر أن تراود والده بالذات الرغبة في الانضمام إلى هذا الاحتفال الرامي إلى تكريم أبطال الإصلاح الكبير . والحقيقة أن الانتقال من الليبيرالية المعتدلة إلى الراديكالية ، ومن الراديكالية إلى العمل الثوري ، كان آخذاً بالتحقق في سيرورة منطقية ولكن خفية لا تكاد تدرك .

في ١٩ شباط كان في المقبرة حوالي ٤٠٠ طالب . ولكن رجال الشرطة والدرك سدوا عليهم الطريق هذه المرة أيضاً . وثار سخط الطلاب، وتنبهت الحكومة . وبالفعل ، فإن السلطات التي حلت جميع المنظمات الطلابية ، لم تفهم من أين أتى الدافع الذي تولدت عنه الحركة ولا من هم منظموها . وانتهت إلى الاستنتاج بأن القمع لم يكن كافياً . وفي أوائل نيسان أمر رئيس شرطة العاصمة بإغلاق جميع المطاعم الطلابية ، إذ أين أمكن لأولئك « المتوحشين المهزولين ، الجائعين ، المعادين لكل شيء » أن يجتمعوا ويتآمروا إن لم يكن في تلك المطاعم الرخيصة الثمن ؟ ولقد كان لهذه الإجراءات الانتقامية أثرها بالرغم من خساستها . فقد واجه المتذمرون المزيد من الصعوبة في الاتصال فيما بينهم ، وانفصل أصحاب الأفكار الاكثر جرأة عن جمهرة الفاترين والوجلين . بيد أن تفاقم السخط شرع بتجذير الفكر السياسي للحلقة الصغيرة التي كان الكسندر يشعر بالانجذاب نحوها رغماً عنه تقريباً : وإذا كان قد حمل معه إلى كوكوشكينو في ذلك الصيف نسخة من « الرأسمال » فإن ذلك لم يكن من قبيل الصدفة .

لم يكن اقتناء كتابات كارل ماركس بالامر الهين في سان بطرسبورغ في تلك الفترة . ولكن إذا كان المرء يتمتع بثقة أحد باعة الكتب القديمة، فما كان من الصعب عليه أن يحصل خلسة على نسخة . وبهذه الطريقة أو

بطريق الاستعارة من أحد الرفاق ، كان من الممكن الحصول على « الاشتراكية والنضال السياسي » أو « خلافاتنا [1] » لبليخانوف، المنشورين في الخارج قبل سنتين لا أكثر . ومن المؤكد أن ساشا قرأ واحداً على لاقل من هذين الكتابين قبل عطلته الصيفية أو بعدها . وكان بليخانوف قد رسم في هذين الكتابين آفاقاً جديدة للكفاح الثوري الروسي : فقد برهن على أن النارودنيين يعللون أنفسهم بالاوهام إذ يضعون آمالهم وإيمانهم في الاشتراكية الفلاحية ، ونقد بصرامة منظمة « حرية الشعب » التي كان قد قطع صلته بها وإن هنأها في الوقت نفسه على إدراكها ضرورة النضال السياسي ضد النظام الاوتوقراطي . وكانت النتيجة التي خلص إليها تنبؤه بأن الطبقة العاملة الصناعية ستكون ، في روسيا كما في أي مكان آخر ، الأداة الرئيسية للثورة القادمة . ولقد كان بين الطلاب القلائل الذين كان في مقدور الكسندر أن يتبادل معهم النقاش حول ذلك كله من يقول عن نفسه إنه اشتراكي — ديموقراطي أو بليخانوفي ، بينما كان بعضهم الآخر ما يزال متشبثاً بالنارودنيين أو بـ « حرية الشعب » . ويبدو أن الكسندر قد تصدى لهذه المشكلات وجهاً لوجه في محاولة لاستيعابها ، وأنه عقد العزم ، إزاء إصرار بليخانوف على التوكيد بأن النظرية الماركسية قابلة للتطبيق في روسيا قابليتها له في أوروبا العربية ، على دراسة هذه النظرية من منابعها . ومن المؤكد على كل حال أن « الرأسمال » كان بالنسبة إليه اكتشافاً هاماً . وقد تناقش بصدده مع آنا ثم مع رفاقه . ولكن أفكار ماركس وبليخانوف لم يكن لها عليه ، بمعنى من المعاني ، غير أثر سلبي . فقد تحرر من أوهامه بصدد فعالية النارودنيين ، وأدرك أن مفهوم الاشتراكية المؤسسة على المشاعة القروية ليس بمفهوم واقعي ، وأن النظام

---

[1] كتابان أساسيان لبليخانوف كان لهما فضل كبير في تجذير الفكر الثوري الروسي وتمهيد الطريق أمام الماركسية . « المعرب »

الاوتوقراطي الروسي لا سبيل إلى الإطاحة به عن طريق بعض محاولات الاغتيال الإرهابية ضد القيصر . إلا أنه لم يتبين بالمقابل إمكانية ترجمة نظرية ماركس أو أفكار بليخانوف ترجمة مباشرة إلى أفعال . فقد كان منظور ثورة تنجزها الطبقة العاملة الصناعية بعيداً أكثر مما ينبغي في نظره. فتصنيع روسيا هو في بداياته الاولى ، وعمال المصانع القلائل الذين قد يصادفهم المرء في بطرسبورغ أو غيرها ما كانوا في حالة تؤهلهم بعد للعب دور في حياة الأمة السياسية ، حتى وإن كان بعضهم قد شعر بالانجذاب ، بصفة فردية ، نحو الاشتراكية وراح يحرض على الإضراب هنا وهناك . أما الفلاحون فقد كانوا يكابدون ، يائسين عاجزين ، من العودة إلى شبه القنانة . كذلك فإن الانتلجانسيا ، أو على الأقل ذلك النفر من أعضائها الذي لا يسير في ركاب بوبييدونوستسيف ودعاة الجامعة السلافية ، قد فقدت كل مطمح سياسي إذ أرعبتها وفتت في عضدها الإخفاقات المتوالية للحركات الراديكالية . صحيح أن النظام الأوتوقراطي قد أصبح لا يطاق ، ولكن لم تكن هناك أي طبقة اجتماعية مؤهلة لتحديه، وكم بالأحرى لتقويضه .

هذه هي الاستنتاجات الصاحية النيرة التي وصل اليها الفتى — كان له من العمر عشرون عاماً بالضبط — بعد أن تناقش مع رفاقه في سان بطرسبورغ وقرأ بانتباه « الرأسمال » في الصيف : ولقد وقف بعد أشهر قليلة في قفص الاتهام يعرض هذه الأفكار بوضوح رهيب . كان يعلم أن الأمة في مأزق على الصعيد السياسي ، وأن أي عمل فوري لتغيير الأحوال القائمة مستحيل فيما خلا العمل برسم المستقبل عن طريق نشر أفكار جديدة كما كان يفعل بليخانوف . وكذلك ما كان يجهل أن الثوريين يسعون إلى فشلهم بأنفسهم بمحاولتهم استئناف النضال داخل روسيا . هكذا لم يبق أمامه غير أن يحاول نسيان هذه الإحراجات السياسية التي ليس لها من حل وأن ينكب من جديد على أعماله الجامعية . فأفكار مانديليثيف قابلة

للتطوير والتطبيق حتى في ظل نظام أوتوقراطي ، بينما أفكار ماركس غير قابلة لذلك . وإذا كان الكسندر قد دلل على مزاج عكر حاد إبان ذلك الصيف الأخير الذي قضاه مع أسرته ، فليس ذلك كما تفترض أخته لأنه عقد العزم على الانغمار في العمل الثوري، بل على العكس لأنه كان في صميمه يخشاه ويبتعد عنه . هذا هو بلا أدنى ريب سبب ذلك التحفظ الشديد ، غير المعتاد « حتى بالنسبة اليه » ، الذي لاحظته آنا : فقد راح يخفي عنها اكثر من أي وقت سبق آراءه السياسية ويأخذ حذره منهـا بالرغم من ثقته بتعاطفها وتفهمها . والحق أنه ليس من طبع الثوري أن يصارح الآخرين بأنه يشعر بأنه يتخبط يائساً في طريق مسدود . ولو كان الكسندر توصل إلى نتائج أخرى اكثر تفاؤلاً ، لكان في غالب الظن سارر بها أخته . كما أنه لم يبذل أدنى جهد للتأثير على فولوديا . ولقد كانت قلة المال في ذلك الصيف قد أرغمت الأسرة على اختصار نفقاتهـا ، فتشاطر الأخوان غرفة واحدة . وفيما كان ساشا يغرق في مطالعة « الرأسمال » ، كان فولوديا يستلقي على أريكة ويقرأ ويعـاود قراءة روايات تورغنيف ويتكلم عنها بحماسة من دون أن يبدي أي اهتمام بالكتاب الذي أخذ على أخيه لبه وكان غالباً ما يذهب لزيارة زميله في الدراسة أبولون أبولونوفيتش، سليل أسرة من أغنيـاء ملاك الأراضي والأرستقراطيين المالكين لمكتبـة ضخمة . فكان يتسلق السلم الصغير ، ويجلس على الدرجـة الأخيرة ، ويتناول المجلدات من الرفوف العليا ، ويروح يلتهمها . وفي طريق العودة كان يطفح بشراً وحماسة . كان مشغوفاً بالشعر والرواية ، وما كان يبالي بأي شيء آخر . ولم يحاول ساشا قط أن يثير اهتمامه بالاقتصاد أو السياسة، مع أن مثل هذا المسعى كان طبيعياً من قبل ثوري يتدفق حميـة وأملاً . ولم يكن قد بقي اعتبار لفارق العمر : فالمراهق ذو الأعوام الستة عشر و « الخـارق الذكاء » كان يملك القدرة بلا أدنى ريب على استيعاب الأفكار التي أسرت اهتمام أخيه ، ولو جزئياً على الأقل . ولقد كان وقتئذ

ناضجاً بما فيه الكفاية ليعطي أخته آنا دروساً في اللاتينية - وقد كانت بحاجة اليها في امتحاناتها - على الرغم من أنها تتقدمه في العمر بعدة سنوات ، وليبين لها أن المنهاج ، الموزع على مدى ثمانية أعوام في المدرسة ، يمكن تدريسه في عام أو عامين إذا ما تصدّى له المرء بصورة عقلانية . وكذلك فإنه كان يقدم مساعدة منتظمة لمعلم في المدرسة الشوفاشية ، أب لعدة أطفال ، راغب في الانتساب إلى الجامعة . فهل كان من الممكن في هذه الحال أن تتجاوز الموضوعات الكبرى التي يطرحها الفكر الراديكالي المعاصر على بساط النقاش مستوى إدراكه وفهمه ؟ كما أننا لا نستطيع أن نفسر تحفظ ساشا وتكتمه بنفوره من طباع أخيه ومسلكه . فلقد كان سلوك فولوديا يعبر ، كما تلاحظ أخته ، عن حالة من حالات عصيان المراهقين تدفع به إلى « رفض » سلطة عالم الراشدين وقيمه الأخلاقية . ولقد صار منذ ذلك الحين يجاهر بإلحاده ويسدد سهام تهكمه إلى بعض من أساتذته ممن كان يسخر من ضيق فكرهم وغبائهم . والشبان يكونون عادة في هذه المرحلة من العمر على أحسن استعداد لتلقي التأثيرات الراديكالية أو الثورية . وإذا كان ساشا قد أبى بالرغم من هذا كله أن يلعب دور المرشد بالنسبة إلى أخيه ، فهذا لأنه كان هو نفسه يتخبط في طريق مسدود ولا يتبين وسيلة للخروج منه . فما الداعي والحالة هذه إلى إشراك فولوديا أو حتى آنا بالقضايا الاجتماعية والسياسية ، ما دام ذلك لن يؤدي إلا إلى تخبطها هما أيضاً في مأزق لا مخرج منه ؟ ولهذا على وجه التحديد آثر أن يكتم عنهما الوضع الذي كان يتقاذفه شداً وصداً .

وعاد أدراجه إلى سان بطرسبورغ في مستهل الخريف . كان متوتراً ، حائراً ، وبه رغبة في التنحي بعيداً عن السياسة . ولكنه ما كان يستطيع أن يشيح طرفاً عن حلقة الطلاب الراديكاليين الذين كان يتعاطف معهم ويلعب في مناقشاتهم دوراً متزايد الأهمية : فلو فعل ذلك لكان مجرد فار جبان لا أكثر . وانتخب في تشرين الأول أميناً لرابطة الجامعة العلمية

والأدبية التي كانت تمارس نشاطها ببركة السلطات الأكاديمية. وما كان قد انتمى بعد إلى أي منظمة سرية ولم يكن في الجامعة آنذاك على ما يبدو أي منظمة من هذا القبيل. وعليه فإننا لا نستطيع أن نقطع بيقين بصدد مصدر المبادرة إلى تنظيم التظاهرة السياسية القادمة التي ستكون آخر تظاهرة يشارك فيها الكسندر. وفي هذه المرة أيضاً لم تكن المسألة تتعدى إقامة احتفال ديني تذكاري في مقبرة فولكوفو في ١٧ تشرين الثاني بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لوفاة دوبروليوبوف. ولئن كان أولئك الشبان قد دللوا على إصرار عجيب في اتخاذ المقابر محجاً لهم، وفي التعبير عن صبواتهم إلى حياة أكثر حرية أمام قبور المكافحين السالفين، ولئن استخدمت مقبرة فولكوفو تلك مسرحاً لثلاث تظاهرات شارك فيها الكسندر أوليانوف، فإن في ذلك الدليل الفصيح على مدى اليأس الأخلاقي والسياسي الذي سقط أولئك الطلاب في مهاويه. بيد أن إحياء ذكرى وفاة دوبروليوبوف كان يمثل تحدياً أصرح وأجهر من سابقيه للنظام القيصري وحلفائه من الليبيراليين الزائفين: فقد كان دوبروليوبوف، الذي رأى فيه ماركس ليسنغ أو ديدرو روسيا، ثورياً، وملهم الحركة النارودنية، والناقد الصارم لليبيرالية الهزيلة التي لم تعرف في روسيا غير حياة الخمول، وعدو الأوتوقراطية اللدود الذي لا تلين له قناة. ولقد كان بين تكريم ذكرى تورغنيف في عام ١٨٨٣ وإحياء ذكرى الإصلاح الكبير في عام ١٨٨٦ من جهة أولى، وبين هذه التظاهرة على شرف دوبروليوبوف من الجهة الثانية هوة عبرت عن تغير جذري في فكر المنظمين. ولهذا جاء رد فعل الحكومة – وكانت متنبهة إلى ذلك – أشد حزماً. فعندما اجتمع الطلاب أمام المقبرة، وكان عددهم أكبر مما في المرتين السابقتين – قدرته بعض المصادر بستمئة وبعضها الآخر بألف – وجدوا الأبواب مغلقة، وقيل لهم إن رئيس الشرطة بشخصه قد حظر الاحتفال التذكاري. وعندما استداروا على أعقابهم يريدون العودة من حيث جاءوا، وجدوا كوكبة

من فرسان القوزاق تحدق بهم . واعتقل عدد كبير منهم . وطرد أربعون طالباً من الجامعة وأبعدوا عن سان بطرسبورغ . وقد أثارت هذه الإجراءات الانتقامية ضد فتيان لا يمكن اتهامهم حتى بمخالفة القانون سخطاً كبيراً . وحرر الكسندر أوليانوف رسالة ندد فيها بالقمع واحتج على حظر التظاهرة وإطلاق القوزاق في أعقاب الطلاب . وسُحب من الرسالة نسخ عدة أرسلت إلى أساتذة جامعات وكتاب وصحفيين معروفين وأعضاء في السلك القضائي . ولكن لم تصل أي منها إلى المرسل إليهم . فقد أفلح رجال الشرطة في ضبطها جميعاً ، وفي هذا ساطع الدليل على مدى سدة الرقابة التي كانت مفروضة على المراسلات الخاصة . ودفعت هذه الفعلة بغالبية الطلاب إلى حافة اليأس . فقد أبانت لهم أنهم لا يستطيعون مناشدة الرأي العام ، حتى في أبسط الأشكال وأكثرها حذراً . كما أنهم لم يتمكنوا من إسماع صوتهم داخل الجامعة إذ كان تنظيم الاجتماعات والمهرجانات الخطابية محظوراً عليهم . ولئن كانوا قد مُنعوا من اتخاذ المقبرة مسرحاً لاحتفال مدني ، فإن حضور الشرطة الكلي الوجود قد حال بينهم وبين إيصال احتجاجهم إلى آذان فئة محدودة للغاية من الانتلجانسيا ، إذ كانت صناديق البريد خاضعة للرقابة .

يزعم بعض النقاد ، بما فيهم تروتسكي ، أن الجماعة التي انتمى اليها الكسندر أوليانوف لم تحاول التعبير عن أفكارها أو التفاهم مع أي من الطبقات الاجتماعية قبل أن تندفع في مؤامرتها الارهابية . وهذا ليس صحيحاً ، فقد سعوا إلى ذلك الكرة تلو الكرة ، وفي كل مرة كان الفشل قسمتهم . ذلك أن جميع وسائل الاتصال بمواطنيهم قد قطعت عنهم . ومن هذه الزاوية كان موقفهم أسوأ من موقف النارودنيين وأعضاء منظمة « حرية الشعب » الذين كانوا يتمتعون في عهد الكسندر الثاني بشيء من حرية الحركة ، حرية كانت بلا مراء محدودة للغاية ولكنهم تمكنوا بفضلها من عقد بعض الأواصر مع الفلاحين ومن التأثير على قسم

من الانتلجانسيا . أما الكسندر أوليانوف وأصدقاؤه فقد كانوا يعملون في شروط لا تكاد تختلف عن الشروط التي أوجدها نيقولا الاول ، قبل ثلاثين أو خمسة وثلاثين عاماً ، في عصر تمكن فيه الإرهاب والرقابة من خنق أوهى همسة تريد التعبير عن أفكار غير مباحة . ولهذا لم ير الطلاب من مفلت غير التآمر : فقد كان الحل البديل الوحيد المتاح لهم السلبية الشاملة . ونظراً إلى عجزهم عن التعبير عن احتجاجهم علناً أو حتى في رسائل خاصة ، فقد عقدوا العزم على نهج طريق آخر وعلى استخدام القنبلة والمسدس لإحداث بعض الصدى . ولقد كان الكسندر يعلم علم اليقين أن هذا الحل ليس إلا حل اليأس . وخلال الأسابيع الأخيرة المتبقية من العام انبرى يعارض المشروع ، معلناً أن من العبث ، بل من الانتحار ، الإقدام على نشاط سياسي من دون توضيح مسبق للأسس التي ينبغي أن يقوم عليها . وكان يرى أن من الضروري تعميق النظرية وتحديد الأهداف والوسائل الواجب استخدامها تحديداً أجلى وأدق . وفي هذا ، على ما يبدو ، دليل على أنه كان أنضج فكرياً من سائر المرشحين للمؤامرة ، مع أنهم كانوا يكبرونه على الإجمال بثلاث أو أربع سنوات . ولكنهم عارضوا وساوسه وهواجسه بحجة دامغة : فقد طرحوا عليه هذا السؤال : هل سنلبث مكتوفي الأيدي بينما يسقط رفاقنا ضحايا للقمع وبينما الأمة بأسرها تئن تحت نير الاضطهاد وكبت الافواه ؟ وأضافوا : إن الانكباب على إنشاء مبادىء نظرية في مثل هذا الظرف يعني التسليم . وفي مستطاع أي جاهل مغرور أن يتفلسف: ولكن واجب الثوري أن يقاتل . كان هذا بلا ريب صوت الغرارة وقلة التجربة ونفاد الصبر ، وبكلمة واحدة صوت الشباب . ولكن الكسندر ، وقد أحس بالطعنة مسددة إلى صميم شرفه الثوري ، ضرب صفحاً عن تحفظه الذي كان في محله ، وأذعن : كلا، إنه لن يقف مكتوف اليدين .

وفي كانون الثاني ١٨٨٧ كان المتآمرون قد نظموا الجهاز السري المكلف

باغتيال القيصر. وقد بلغ عدد الأشخاص المساهمين في المؤامرة خمسة عشر: تسعة طلاب ، وأحد خريجي كلية اللاهوت بسان بطرسبورغ ، وصيدلي، وشخص ليست له مهنة محدودة ، وقابلتان ، ومعلمة . ولقد كان ضعف هذه الجماعة بارزاً للعيان ، حتى في نظر أعضائها الذين أطلقوا على أنفسهم بتواضع ، لعلمهم بأنهم ليسوا على ما فيه الكفاية من القوة لتأسيس حزب جديد ، اسم « الفرع الإرهابي » من « حرية الشعب » . كانوا يعدون أنفسهم متابعي رسالة اندريه زيليابوف وصوفي بتروفسكي ونيقولا كيبالتشيتش ، قتلة الكسندر الثاني[1] . وكان زعيم الجماعة طالباً في الرابعة والعشرين ، بيوتر شيفيريف ، وكان اكثر أعضائها همة وفاعلية أوليانوف وأوسيبانوف. وقد شارك أيضاً في المؤامرة بولونيان: جوزيف لوكاتشيفيتش وهو طالب في الجيولوجيا ، وبرونسلاف بلسودسكي شقيق الماريشال جوزيف بلسودسكي دكتاتور بولونيا القادم . وقد خامر أحد المنظمين ، أورست غوفوروخين ، شعور بأن الشرطة تتعقبه ، فهرب الى الخارج حتى قبل أن يتكون « الفرع الارهابي » . وما كان شيفيريف وأوليانوف على وفاق تام فيما بينهما . فقد كان بود أوليانوف لو يولى التحقق من صفات أعضاء الجماعة وأقوالهم المزيد من الاهتمام ، ولا سيما أنه كان يرى أن عددهم أكثر من اللازم . بيد أنه لم يلق أذناً صاغية . وهكذا فإن اثنين من المتآمرين ، تم قبولهما بالرغم من اعتراضه ، ستخونهما أعصابهما وسيشيان برفاقهما. وقد يكون من المفيد أن نقيم توازناً بين موقف الكسندر وموقف لينين الداعي إلى تحديد عدد أعضاء الحزب السري في تلك الفقرة الاولى المشهورة من دستور الحزب التي ستحدث الانشقاق بعد ستة عشر عاماً بين البلاشفة والمناشفة لحقبة من الزمن . ولعل افتراض وجود هذا

---

١ لم يتجاوز عدد متآمري عام ١٨٨١ ستة وثلاثين . ولكنهم أعدوا العدة لعملهم طويلا وفي شروط أنسب بما لا يقاس .

التشابه لا يخلو من تعسف ، لأن الظروف التي عمل فيها الأخوان والسياق الذي دارت فيه مناقشاتهما كانت مختلفة عظيم الاختلاف ، ولكن ليس من المستبعد بالمرة أن تكون ذكرى الفشل المأساوي الذي انتهت اليه منظمة الكسندر قد ساهمت في تكوين أفكار شقيقه الأصغر منه سناً عن البنى الداخلية لحزب سري .

وقرر المتآمرون قتل القيصر في الأول من آذار ۱۸۸۷ ، بمناسبة الذكرى السادسة لاغتيال الكسندر الثاني . وعلى هذا لم يكن أمامهم غير شهرين أو أقل لانجاز استعداداتهم . والحال أن كل مؤامرة إرهابية يحف بها على الدوام خطران متناقضان : المجازفات الناجمة عن الارتجال المتسرع ، والمجازفات الناجمة عن تهيئة وإعداد أطول مدى يتاح فيها للشرطة المزيد من الفرص لاكتشاف المؤامرة . ولا ريب في أن خلفاء زيليابوف قد خلب ألبابهم الموعد المضروب في الأول من آذار لما له من مضمون رمزي . ولكن ليس عامل الزمن هو الوحيد الذي كانوا يفتقرون إليه : فقد كانت تنقصهم أيضاً التجربة والخبرة ، وخطة عمل مفصلة ، والوسائل التقنية . كان مشروعهم مقضياً عليه بالإخفاق . وما كان في استطاعة أوليانوف التملص بالرغم مما كان يحدثه به قلبه . ولم يكن من المفروض أن يشارك مباشرة في عملية الاغتيال : فقد كانت مهمة إطلاق النار وإلقاء القنابل تقع على جينيرالوف وأندريوشكين وأوسيبانوف وعلى طالب أو طالبين آخرين . ولكن دوره كان مع ذلك أساسياً : فقد كان عليه أن يحرر البرنامج الذي سيشرح للشعب هدف الاغتيال ، وأن يصنع القنابل أيضاً . ولم تكن الجماعة تملك شروى نقير – كان الكسندر قد رهن ميداليته الذهبية مقابل مئة روبل لتمكين غوفورخين من السفر إلى الخارج – وما كان بإمكانها بالتالي شراء متفجرات . ولم تنجح في اقتناء الحامض النتري ، الذي جاء به بلسودسكي من فيلنا ، ومسدسين قديمين إلا بعد مرور أسابيع عدة . وقد تبين أن المتفجرات ضعيفة المفعول ، وأن المسدسين لا يصلحان

للإطلاق . ومما زاد الطين بلة سذاجة أحد المتآمرين الذي حاول في رسالة إلى صديق له في خاركوف أن يبرر ويقرظ الإرهاب الثوري . فقد ضبطت الشرطة الرسالة ، وأوقفت الشخص الذي كانت مرسلة إليه ، وانتزعت منه اسم كاتبها ، ووضعت هذا الأخير تحت الرقابة قبيل نهاية شهر شباط. وفي اليوم الأخير من هذا الشهر رآه متعقبوه مع رفاقه في شارع نيفسكي وفي أيديهم صرر . ولما رأوهم في اليوم التالي أيضاً في المكان نفسه والصرر ذاتها ، اعتقلوهم واقتادوهم إلى أقرب مركز للشرطة . وما كان يخامرهم شك من قريب أو بعيد في أن هذه الصرر تحتوي على مسدسات وقنابل . ولكن أحد المتآمرين حاول في المخفر استخدام « أسلحته » ، فألقى بقنبلته ، فلم تنفجر . وعند التحقيق وشى كانشر وغوركن بسائر أعضاء « الفرع الارهابي » من « نارودنايا فوليا » .

جرى على الفور اعتقال الكسندر . وفتشت غرفته . وشاءت الصدف أن تأتي آنا ، وما كانت مشتركة بالمؤامرة ولا علم لها بها ، لزيارة أخيها في ذلك اليوم ، فسقطت بين أيدي رجال الشرطة . ويبدو أن الكسندر قد عقد العزم بلا تردد على أن يأخذ على عاتقه مسؤولية المؤامرة بكاملها لينقذ أكبر عدد ممكن من رفاقه . فقد صرح في التحقيق الأولي ، ثم كرر ذلك في المحاكمة : « لقد كنت أول من فكر بتكوين جماعة إرهابية ، وأنا الذي لعب الدور الأنشط في تنظيمها ... أما التزامي المعنوي والفكري بهذه المسألة فقد كان كاملاً . وقد نذرت له مواهبي كافة وعلمي كله وقوة معتقداتي بأسرها » . ولم يكن يعلل نفسه بالأوهام بصدد ما ينتظره ، فقد قال لأمه في إحدى مقابلاتهما الأخيرة : « لقد أردت أن اقتل رجلاً ، وهذا معناه انني انا الذي سيُقتل الآن على الأرجح ». ولم يكن له من هم اثناء المحاكمة غير أن يصوغ بأكبر قدر ممكن من الوضوح اتهاماته ضد القيصر والحكومة . ومما تجدر الإشارة إليه أن نص البرنامج الذي كتبه لحساب الجماعة كان قد ضاع ، وأن ملف المدعي العام

كان يفتقر بالتالي إلى هذه البينة . بيد أن الكسندر أعاد كتابة تلك الوثيقة في زنزانته وسلمها إلى المحكمة . وقد دافع بفخر واعتزاز عن أفكـــاره وشرح بأكبر قدر ممكن من الدقة الظروف التي أرغمته هو ورفاقه على سلوك الطريق الذي سلكوه . وأعلن أن النظـــام الاوتوقراطي هو عدو الشعب ، وان من حق الثوري وواجبه ان يلجأ إلى الوسائل الممكنة كافة للإطاحة به . واستقبل الموت بفكر صاحٍ .

ولم يصل نبأ اعتقال الكسندر وآنا إلى سيمبرسك إلا بعد مرور عدة أيام . فقد نقله أحد أقرباء آل بلانك إلى كاشكاداموفا ، سائلاً إياهـا أن تنقل الخبر الرهيب بدورها إلى الأم . ويبدو أن الشجاعة لم تؤاتها . فتدبرت أمرها حتى تجتمع بفولوديا وهو في طريق عودته مـن المدرسة . وقرأ رسالـــة بطرسبورغ بانتباه ، وفي صمت . وتروي كاشكاداموفا : لم يعد أمامي غلام طائش ومرح ، وإنما رجـــل ناضج يمعن الفكر في موضوع خطير . قال لي : « إنها لمسألة جادة قد تكون وخيمة العاقبة بالنسبة إلى الكسندر » . وبعد ساعة من ذلك لم تجد المربية العجوز بـدأ من مواجهة ماريا الكسندروفنا التي قرأت الرسالة بسحنة « شاحبة وقور » وسألتها أن تهتم بالأولاد أثناء غيابها : فهي مسافرة من فورها إلى سان بطرسبورغ . وحجز لها فولوديا مقعداً في عربة السفر . وعبثـــاً طرقت أبواب أصدقائها وجيرانها راجية إياهم مرافقتها . فما من أحد طاوعته نفسه بالسفر مع والدة من حاول اغتيال القيصر ، ولو إلى اقرب محطة . وعليه فقد غادرت أرملة « صاحب السعادة » سيمبرسك بمفردها لتحاول إنقاذ حياة ابنها البكر .

وفي سان بطرسبورغ قضت ما يقارب الشهر في ممرات القيادة العامة للشرطة وفي غرفة انتظار المحامي العام ، تترجى السماح لها برؤية ولديها . ورأت ساشا للمرة الأولى في ٣٠ آذار : فبكى وأمسك بركبتيها وتضرع

اليها بأن تغفر له ما يسببه لها من حزن . وقال : « إن للمرء علاوة على واجباته تجاه أسرته واجباته أيضاً تجاه بلاده » . وأضاف بأن كل رجل شريف ملزم بالنضال ضد اللاشرعية والطغيان اللذين يفتكان بالأمة . ولما ردت عليه معترضـــة على « بشاعة الوسائل » التي لجأ اليها المتآمرون ، كان جوابه : « ماذا كان في مقدورنا أن نفعل ما دام ليس هناك من وسيلة أخرى ؟ » . وحاول أن يهيئها لأسوأ الاحتمالات ، وحدثها عن عن العزاء الذي سيكون من نصيبهـــا في المستقبل عندما سترى أولادها يعيشون في مزيد من السعادة . وضاعفت هي من جهودها لإنقاذ حياته ولم تترك باباً إلا طرقته وقبيل ابتداء المحاكمة عادت إلى سيمبرسك لمدة يوم أو يومين وقالت لكاشكاداموفا إنها تتوقع صدور حكم بالسجن مدى الحياة ، وإنها ستذهب إلى سيبيريا لتكون على مقربة من الكسندر . وأضافت أنها ستأخذ معها الصغار ، بينما سيتدبر الكبـــار أمورهم بأنفسهم . وكان قد تصرم عام منذ أن كتبت تلك الرسالة إلى صاحب السعادة مدير الخدمات التربوية في محافظة كازان ، المستشار المؤتمن ب. ن. ماسلينيكوف : « كلي أمل بأن يصبح (الكسندر) في المستقبل بمعونـة الله ركيزة لي ولإخوته وأخواته الصغـــار ... » . وهي الآن على استعداد للتضحيـــة بنفسها في سبيله ، وكان جلياً للعيان « أنها تحب ابنها البكر أكثر من سائر أولادها » .

كان الكسندر يسير بخطى لا تهتز باتجاه مصيره . فقد عقد العزم ، إذ خشي ألا تتاح لأي من رفاقه القوة على المجـــاهرة بمبادئهم المشتركة أمام القضاة ، على تولج الأمر بنفسه . وهكذا صور نفسه على أنه رأس المؤامرة ، وقبل القضاة وسائر المتهمين بهذا التأويل . وبدأت المحاكمة في ١٥ نيسان ١٨٨٧ ، بعد ثلاثة أيام من عيد ميلاده الحادي والعشرين ، ودامت حتى ١٩ منه . كانت جلساتها سرية ، ولم يسمح إلا لأقرب أقارب المتهمين بحضورها . وقد روى فيما بعد أحد الناجين بحيـــاتهم من أفراد الجماعـــة ، وهو حامل الدبلوم في اللاهوت ، أن الكسندر كان متمالكاً

علأصابه في قفص الاتهام مثلما كان متمالكاً لها في الاجتماعات الطلابية : « كان قد اتخذ قراره ، ولم يكن له من مرد » . وقد همس في أذن لوكاتشيفيتش الذي كان يرتعد أوصالاً : « تستطيع أن تركز علي التهم إذا كان في ذلك نفع لك » . ويروي ناجٍ آخر أن « انتباه القضاة وجميع الأشخاص الحاضرين كان مركزاً على أوليانوف » . وقد سئل : « لماذا لم تحاول أن تهرب إلى الخارج ؟ » ، فأجاب : « لا أحب الفرار . إني أوثر أن أموت في وطني » . وقد اضطر المحامي العام بعينه إلى الإشادة ببطولته وبتفانيه في سبيل قضيته : « إن أوليانوف يحمّل نفسه الكثير من الأمور التي لم يرتكبها » . وقد قالت والدته فيما بعد مع أنها لم تحضر غير جلسة واحدة : « لقد أدهشني أن أسمع ساشا يعبر عن آرائه بمثل تلك القوة ، وبمثل ذلك اليقين ، وبمثل تلك الفصاحة . ما كنت أحسبه قادراً على التكلم مثلما تكلم . ولكن حزني كان رهيباً فما أمكنني أن استمع اليه مطولاً ، فغادرت القاعة » .

وفي ١٨ نيسان ، وفي معرض حديثه عن مبادئه ، تكلم عن الإحساس الغامض بعدم الرضى الذي كان يتصاعد في نفسه تدريجياً منذ حداثته الأولى ، وأضاف « لكن دراسة الأمور الاقتصادية والاجتماعية هي وحدها التي رسخت فيّ الإيمان للوطيد بأن الوضع القائم ليس بسوي » ، ثم اتخذت أحلامه الغامضة عن الحرية والمساواة والإخاء شكلاً علمياً ، أي شكلاً اشتراكياً . « لقد فهمت أنه ليس من الممكن فحسب ، بل من الضروري أيضاً تغيير النظام الاجتماعي » . ثم قال مردداً أفكار ماركس وبيليخانوف : « إن كل بلد يتطور تلقائياً ، تبعاً لقوانين محددة ، ويمر بمراحل محددة بدقة ، ويتوصل حتماً إلى تنظيم اجتماعي (أي اشتراكي). هذه هي النتيجة الحتمية للنظام القائم وللتناقضات الملازمة له » . ودرس دور الفرد في تحويل المجتمع ، وصرح بقوله : إن إنساناً واحداً لا يستطيع أن يغير بمفرده المجرى الطبيعي للتاريخ ، وكل ما يستطيع الفرد أن يفعله

هو أن يضع طاقاته الفكرية في خدمة مثل أعلى وأن يساعد المجتمع على وعي شرطه ومهامه . وبعد ذلك أعرب عن آراء كان يفترض فيها بحكم المنطق أن تمنعه من الاشتراك في المؤامرة : ما دام تغيير النظام الاجتماعي غير ممكن إلا عن طريق تغيير وعي المجتمع ، فإن « المنهج الصالح » الوحيد للوصول إلى ذلك هو الترويج للأفكار بواسطة الكلمة المطبوعة : « ولكن في الوقت الذي قادتني فيه جميع التأملات النظرية إلى ذلك الاستنتاج ، برهنت لي الحياة بدورها العملية على استحالة سلوك ذلك الطريق في الشروط السائدة . فموقف الحكومة من الحياة الفكرية يحول دون نشر الأفكار الاشتراكية ، بله الأفكار الثقافية العامة » . وأي محاولة للقيام بـ « تحليل علمي للمشكلات » هي على حد تعبيره أمر فائق الصعوبة : ثم حلل بعمق وضع المجتمع الروسي وعجزه عن التصدي للنظام الاوتوقراطي . وأشار إلى المسؤوليات الخاصة التي تقع على كاهل المتعلمين من الناس الذين يمثلون شعور الأمة ووعيها ، والذين تعجز أي فئة غيرهم عن تحدي السلطات القائمة وضمان التقدم للأفكار القمينة بتحويل المجتمع . ولكن « الانتلجانسيا عندنا في منتهى الضعف مادياً وفي غاية من اللاتنظيم حتى ليستحيل عليها في الوقت الراهن أن تخوض غمار الكفاح العلني . إن شكل العمل الإرهابي هو وحده الخليق بتمكينها من الذود عن حقها في التفكير وفي المشاركة في الحياة الاجتماعية . إن الإرهاب هو ذلك الشكل النضالي الذي خلقه القرن التاسع عشر ، ذلك الشكل الدفاعي الذاتي الذي هو الوحيد الذي تستطيع أن تلجأ اليه أقلية لا تملك من سلاح غير قوتها الروحية ووعيها لحقها ضد اكثرية مطمئنة إلى قوتها المادية » . وقد أشار مراراً إلى أن اللجوء إلى الإرهاب ليس مسألة اختيار وسبق إصرار ، وإنما هو ابن ضرورة مريرة . « بديهي أن الإرهاب ليس سلاح الانتلجانسيا في كفاح منظم . وإنما هو مجرد طريق يسلكه بعض الأفراد عفوياً عندما يأخذ عدم رضاهم أبعاداً متطرفة . والإرهاب من هذه الزاوية تعبير عن

النضال الشعبي وسيدوم ما دامت حاجات الأمة غير ملباة ... » . وتابع الكسندر يقول : إن الإمكانية متاحة لنا في روسيا لتطوير طاقاتنا الفكرية، ولكننا محرومون من الحق في وضعها في خدمة وطننا . « إن الرجعية تنيخ بثقيل اضطهادها على صدر الغالبية . ولكن الحكومة بتجريدها الأقلية من كل إمكانية للعمل المشروع تدفع بها في الطريق الوحيد المتبقي أمامها ... وهذا كله يلحق الضرر لا بالعقل فحسب ، بل بالانفعالات أيضاً . وإنكم لواجدون على الدوام في الأمة الروسية بضعة رجال ، تعلقهم بمثلهم العليا على درجة من الشدة وتأثرهم بتعاسة بلادهم على درجة من العمق ، لا يرون معها الموت في سبيل قضيتهم تضحية . إن أمثال هؤلاء الأشخاص لا يمكن أن يعرف الخوف سبيلاً إلى قلوبهم ... لقد نجحت في إقامة البرهان على أن الإرهاب هو النتيجة الطبيعية للنظام القائم ... وإذا كان الأمر كذلك ، فإن الإرهاب سيستمر ... » .

إن محضر المحاكمة الرسمي لم ينشر إلا بعد عام ١٩١٧ . ولكن الناس بالرغم من سرية الجلسات اطلعوا على الكثير مما دار فيها ، ووجد بيان الكسندر وحججه واللهجة التي عرضها بها جمهوراً واسعاً من المستمعين ، بعد أن جرى تناقلها من فم إلى فم . ولقد كان موقفه في قفص الاتهام يذكر من قريب ببطولة شهداء ١٨٨١ حتى ان الناس شبهوه بزليابوف . وكانوا إذا ما تكلموا عن المؤامرة قالوا : « قضية الكسندر أوليانوف ورفاقه[1] » . وقد نُطق بالحكم بالإعدام في الأسبوع الأخير من نيسان ، ولكن ماريا الكسندروفنا لم تنكص عن محاولة تخفيفه ، فذهبت إلى ابنها في زنزانته لتتوسل اليه بأن يطلب العفو . فأجابها الكسندر : « لا أستطيع ذلك بعد كل الذي قلته في المحاكمة . ولو فعلت لكنت غشاشاً » .

---

١ ليس هذا تأويلا متأخراً يحيط الكسندر بهالة مجد لينين الكبير على العكس هو الذي كان يشار اليه في الأعوام الأولى من نشاطه السياسي بأنه « شقيق الكسندر أوليانوف الأصغر » .

وكان يحضر المقابلة ، بصفة غير رسمية ، معاون شاب للمحامي العام يدعى كنيازيف . وقد دلل على لباقة محمودة وتنحى جانباً . ولكنه سمع جواب الكسندر وهتف كأنه عجز عن كبح إعجابه : « معه حق ، معه حق » ؟ وما كان حكم الإعدام قابلاً للتخفيف إلا إلى سجن مؤبد في قلعة شلوسلبرغ . « أهذا ما تريدينه لي يا أماه ؟ » . كان كلاهما يعلم أن هذه العقوبه قد تكون أدهى حتى من الموت . وقد أبدى ساشا رغبته في أن يكرس آخر أيامه للمطالعة . وقد كان شاكراً لأحد الأصدقاء لأنه أرسل اليه بكتاب اقتصادي – مالي نشر حديثاً ، ولكنه أعرب عن رغبته في الحصول أيضاً على مؤلفات هايني في زنزانته . ولما كانت هذه المؤلفات محظورة من قبل الرقابة ، فقد كان من المستحيل العثور عليها عملياً . ولكن المحامي العام الشاب كنيازيف عرض هذه المرة أيضاً أن يزوده بها .

ولم تنكص ماريا الكسندروفنا عن الكفاح . فقد كان يدور همس في سان بطرسبورغ بأن القيصر قد يقبل بالإبقاء على حياة المتآمرين الشابة ، وكانت هذه الشائعات « ما تزال تغذي أملها الذي لا يقهر » . وهرعت إلى قلعة بطرس وبولس التي كان الكسندر قد نقل اليها . وخاطبته من خلال حاجز شبكي مزدوج بحضور دركي كان يذهب ويجيء بين الأم والابن . وأرادت أن توحي اليه بما يختلج به نفسها فصاحت به : « اطمئن ! تشجع ! » . وكانت هذه آخر كلمات توجهها اليه . فقد شنق الكسندر في ٨ أيار . وعلمت بنبأ تنفيذ الحكم فيه من جريدة اشترتها وهي في طريقها إلى سجن آخر : السجن الذي كانت آنا معتقلة فيه .

كان فلاديمير أوليانوف ، أثناء ذلك ، يقدم امتحان تخرجه من الثانوية . وقد كان عليه أن يحصل على الأذن بالسماح له بذلك . وفي ١٨ نيسان ، وبينما كان الكسندر يتحدى قضاته تالياً عليهم بيانه ، حرر فلاديمير هذا الطلب المقتضب : « إلى صاحب السعادة ، مدير معهد

سيمبرسك الكلاسيكي . لما كنت أتمنى أن أحصل على دبلوم الدروس الثانوية ، أتشرف بالطلب من صاحب السعادة بتواضع الأذن بالتقدم إلى الامتحان ... الامضاء : فلاديمير أوليانوف ، التلميذ في الصف الثامن » . وما كان في مستطاعه أن يطمئن إلى أنه سيحصل على هذا الأدن . فقد بدأ يحس بأن آل أوليانوف منبوذون ، وبأن أصدقاء قدامى للأسرة ، حتى الذين يدينون منهم بتعليمهم أو بوظيفتهم لربها ، وحتى الذين كانوا يطرقون بابها يومياً تقريباً لتبادل أطراف الحديث أو للعب الشطرنج ، باتوا يتحاشون أفرادها بلباقة ، وبغير لباقة أحياناً . وكان يتساءل بينه وبين نفسه : ألن يسلك المدير المسلك نفسه ؟. وكان فيودور ميخائيلوفيتش كيرنسكي متضايقاً فعلاً : فقد أنبته الوزارة على تشجيعه ومنحه ميدالية ذهبية لطالب اتضح فيما بعد أنه مجرم بحق شخص القيصر بالذات ، بل إنه وجد من يتهمه بأنه قد جعل من المعهد بؤرة للتآمر . ولقد كان من المستحيل التنبؤ بنتائج هذا اللوم على مستقبله ووظيفته . ولعل رجلاً غيره أوهى شكيمة منه ما كان ليحجم عن تبرئة ذمته لدى السلطات وعن تقديم البرهان على انصياعه للنظام بإساءته معاملة شقيق قاتل القيصر نيابة عن القاتل نفسه . ولا مراء في أن المدير قد حز في نفسه عميقاً بل أذله أن يصدر مثل ذلك المسلك عن تلميذه المبرز . ولا غرو : فقد كان فيودور ميخائيلوفيتش من رعايا القيصر المخلصين . ولكنه كان لا يقل إخلاصاً أيضاً لذكرى إيليا نيقولائيفيتش ، وعاقداً العزم على الوقوف إلى جانب أسرة صديقه في بليتها . وعليه فإنه لم يكتف بتأييد طلب فلاديمير بل حرر له أيضاً شهادة حسن سلوك : « خارق الموهبة ، دائم النشاط والاجتهاد ، وكان (فلاديمير أوليانوف) على الدوام على رأس صفه . وقد منح في نهاية دروسه الميدالية الذهبية التي يُكافأ بها اكثر التلاميذ جدارة من حيث العمل والتقدم والسلوك . ولم يصدر عنه قط ، لا داخل المعهد ولا خارجه ، لا بالقول ولا بالفعل ، أي بادرة تدعو إلى ... الاستياء » .

ومن دون أن يأبه المدير للمخاطر التي قد يعرضه اليه موقفه عامل تلميذه الأثير لديه أعدل معاملة ممكنة . أضف إلى ذلك أنه بذل كل ما في وسعه لمحو سبة العار التي لحقت به . فقد تكلم بوصفه صديقاً للأسرة : « لقد سهر والدا أوليانوف عن قرب على تنشئته الفكرية والأخلاقية ... وكان الدين والانضباط الحكيم أساس هذه التربية . وسلوك (فلاديمير) أوليانوف الممتاز يقيم الدليل على أنها أتت ثمارها » . ولقد كانت هذه التوكيدات صحيحة على وجـه الاجمال ، وإن كان المدير متأخراً بعض الشيء عن الأحداث : فقد كان يجهل بلا مراء أن فلاديمير قد « فقد الايمان » ، كما أنه لم يأت على ذكر اشتباك أو اشتباكين كلاميين وقعا بين الصبي وبين أساتذة لم يقصر في التهكم عليهم . بيد أنه أضاف ملاحظة فيها ما فيها من الغموض : « لقد وجدت نفسي مكرهاً على أن ألاحظ ، وأنا أتمعن في دراسة طباع أوليانوف وحياته الخاصة ، أن به ميلاً مشتطاً إلى الانعزال وأنه ... غير ألوف المعشر أحياناً » . ومن المؤكد أنه مـا كان يحاول بكلامه هذا أن يحفظ لنفسه خط الرجعة تجاه رؤسائه ولا أن يخفف من وقع الرأي الحسن الذي أبداه في صالح تلميذه : وكل مـا هنالك أنـه وصف بواقعية واستقامة شطط أوليانوف في التحفظ والحذر ، ذلك الشطط الذي حال بينه وبين عقد أواصر صداقة متينة مع زملائـه والذي جعله فيما بعد ، عندما بلغ مبالغ الرجال ، مترفعاً بعض الشيء حتى تجاه أقرب رفاقه اليه . ولقد كان هذا الطبع مشتركاً بين فلاديمير والكسندر ، ولعل هذه الملاحظـة قد أثارت للحظـة من الزمن قلق المدير الطيب القلب . ولكنه أسرع يطمئن أولئك الذين حرر برسمهم شهادة حسن السلوك منوهاً بأن « والدة أوليانوف تزمع أن تبقى بجانبه طوال مدة دراسته الجامعية » . وكان قصده الضمني من ذلك أن الكسندر إذا كان قد حاد عن الطريق المستقيم فإنما كان ذلك في سان بطرسبورغ فقط حيث ما عاد أهله يشرفون على توجيهه ولا عاد هو في ذلك البيت العائلي الذي يؤلف فيه « الدين

والانضباط الحكيم » أساس التربيــة . وأرجح الظن أن هذا الرأي كان يتبناه أيضــاً أصدقاء أسرة أوليانوف المحبون وكذلك ماريـا الكسندروفنا نفسها . ولا ريب في أنهــا قابلت كيرنسكي إبان إقامتهــا القصيرة في سيمبرسك قبيل المحاكمــة ، وساررته بأنها تزمع أن ترافــق ساشا إلى سيبيريا . ولكنهــا اضطرت في الواقع إلى إعداد العدة للسفر إلى كازان لأن السلطات أعلمتها بأن فلاديمير لن يسمح له بأن يتسجل في غير هذه الجامعة .

وتقدم الفتى إلى الامتحان الأول (تحليل أدبـي لـ « بوريس غودونوف» لبوشكين) في الخامس من أيار ، قبل ثلاثة أيام من تنفيذ حكم الاعدام بالكسندر . وتقدم إلى امتحان الرياضيات في اليوم الذي ارتقى فيه أخوه سلم المشنقة . ويروي أحد زملائه : « كنا جميعاً في اضطراب شديد ما عدا فلاديمير أوليانوف الجالس وراء منضدته يكتب بهدوء وبلا عجلة... وقد سلم ورقته قبل الجميع وكان أول من غادر قاعة الامتحان ... » . وكانت الصحف المتضمنة وصف تنفيذ حكم الاعدام قد وصلت إلى سيمبرسك عندما كان فلاديمير يحل مسألة من مسائل علم حساب المثلثات ويترجم إلى الروسية مقاطع من توسيديدس . وعادت أمه إلى البيت — وقد ابيض شعرهــا في غضون أسابيع قليلة — قبل ثمانية أيام من امتحانه الشفوي . وعــادت معها كذلك آنا ، ولكنها اضطرت إلى الرحيل فوراً إلى كوكوشكينو ، لأن سراحهــا لم يطلق إلا بشرط أن تذهب لتعيش في مزرعة جدها تحت رقابة الشرطة . ودامت الفحوص الشفوية من ٢٢ أيار إلى ٦ حزيران . وأثناء ذلك كانت الدار ومفروشاتها قد عرضت للبيع ، الأمر الذي أتاح لفضوليات المدينة فرصة تملي والدة قاتل القيصر بتشفٍ وازدراء . ونال فلاديمير درجة الامتياز في كل امتحان من امتحاناته ، ومنح ميدالية ، ولكن مجلس المدرسة قرر أنه ليس من سليم الذوق حفر

اسمه على اللوحة الرخامية إلى جانب أسماء جميع من حصلوا في السابق على الميدالية الذهبية .

لقد أظهر مسلك فلاديمير خلال تلك الأسابيع للعيان مقدار سيطرته الفائقة على نفسه ، ولكنه طرح أيضاً السؤال التالي : ماذا كانت بالضبط شدة عواطف هذا الفتى البالغ السابعة عشرة من العمر ، الذي قدم امتحاناته « بهدوء وبلا عجلة » بعد النكبة التي انقضت كالصاعقة على شقيقه وأسرته ؟ يروي لنا أحد زملائه أنه التقى عشية الفحص صدفة بفولوديا: « لن أنسى أبداً تلك الأمسية الحارة من أمسيات أيار ... كنت أدندن بلحن خفيف . وعند مروري أمام المنزل الصيفي لمحت شخصاً يحدق في الأفق فيما وراء الفولغا . وعبرت من غير أن أعيره انتباهاً آخر ، وأنا أرفع عقيرتي بالغناء . وفجأة سمعت صوت فولوديا : « ألست تحضر للامتحان ؟ » . أسعدني أن التقي به فاقتربت منه . لاحظت أنه مستغرق مأخوذ ، وأنه أكثر تمسكاً بحبل الصمت من المعتاد . وجلست إلى جانبه لأتأمل منظر الفولغا . كان فولوديا صامتاً يتنهد بين الحين والآخر بزفرة عميقة . وأخيراً سألته : « ما بك ؟ » . فالتفت إلي ، وهم بأن يقول شيئاً ، ولكنه انكمش من جديد على نفسه . حسبت أنه يفكر بأبيه أو أنه مشغول البال على مصير الكسندر المعتقل ... حاولت أن أسليه، ولكن بلا جدوى . ما كنت أجهل أن من طبع فولوديا المرح تارة والتجهم طوراً وأنه يؤثر في مثل هذه اللحظات ألا يتكلم ... ولكن الأمسية كانت في منتهى الهدوء والدعة حتى لكان يبدو على الطبيعة نفسها وكأنها تريد أن تبث في نفوسنا الطمأنينة والسكون . وفاتحت فولوديا بهذا الشعور . وبعد هنيهة من الصمت قال لي إن حكم الاعدام قد نفذ بألكسندر في ٨ أيار . وأخذني الذهول . كان فولوديا جالساً إلى جانبي ، محدودب الكتفين . وراحت أفكاري تتزاحم شديد التزاحم فما تمكنت من الكلام . وران هذا السكوت طويلاً وأخيراً نهض فولوديا وعدنا أدراجنا من غير

أن نتفوه بكلمة واحدة نحو المدينة . كنا نسير بتؤدة . وكنت أشعر بأن فولوديا يكويه ألم عميق ، ولكني كنت أحس أيضاً بأن روحاً من التصميم العنيد قد ولدت فيه ... وقبل أن أتركه شددت على يده بقوة . فحدق فيّ ، وشد على يدي مثلما فعلت ، واستدار ومضى يحث الخطى » .

وهناك شهادات معاصرة أخرى تظهر لنا الفتى وقد برح به الألم يناضل لاخفاء مشاعره . ولقد كانت هذه السيطرة على الذات سمة من سمات الأسرة . فلقد عرفناها لدى الكسندر . ولسوف نعرفها لدى أخته أولغا . فعلى الرغم من أن هذه كانت تصغر فولوديا بعام واحد ، فقد تقدمت إلى فحص التخرج من المرحلة الثانوية في آن واحد معه . وقد اجتازته هي الأخرى بامتياز وفازت بالميدالية الذهبية . تروي إحدى زميلاتها : « لم تمتنع عن القدوم إلى المدرسة وكانت تسيطر على مشاعرها سيطرة تبعث على الدهشة ، فلكأنها استحالت حجراً » بيد أنه أغمي عليها في ٩ أيار أثناء قداس أقيم على ذكرى مديرة سابقة . « وقد قالت عندما استردت وعيها : كاتيا ، لقد أعدم البارحة . ولم تضف كلمة أخرى ... »... وأثناء ذلك كانت ماريا الكسندروفنا تستقبل في بيتها المعروض للبيع ، في ثياب الحداد ، وبقامة منتصبة وعينين جافتين ، الفضوليين من الناس سائلة إياهم ببرود : « أي قطعة أثاث ترغبون في شرائها ؟ » .

في الشهور والأعوام التالية راح فلاديمير يمعن التفكير في مغامرة الكسندر ويحلل تجربته ويستخلص منها درساً لحسابه الخاص . ولن يفيدنا في شيء أن نتساءل إذا كان سيصبح ثورياً حتى في غير هذه الظروف ، أي إذا لم تكن شهادة الكسندر قد وجهت حياته وفكره وجهة مغايرة تماماً . فالأسباب القمينة بأن تحمل الشبان من الانتلجانسيا على النضال ضد النظام الاجتماعي القائم لم تكن معدومة تحت نير الحكم القيصري .

ولقد كان لها أهميتها الحاسمة بالنسبة إلى فلاديمير أوليانوف أيضاً، إلا أنه لحظة إعدام الكسندر ما كان يتصور من قريب أو بعيد أنه قد ينذر نفسه ذات يوم كما فعل أخوه للثورة . فما كان يأسر انتباهه ويستغرق اهتمامه حتى الأول من آذار ١٨٨٧ غير كبار الشعراء والروائيين وأرباب النثر الاغريقي واللاتيني ، وكذلك ، وإلى حد ما ، التاريخ . وما كان يكترث للسياسة أو يأبه للاقتصاد . وكانت القضايا الاجتماعية المعاصرة غريبة عنه غربتها عن أي فتى في عمره لا تنازعه نفسه إلى مثل هذه الأمور . وما كانت حياته المضمونة المحمية ، ونجاحاته المدرسية ، واللذة التي يغترفها من إعماله ذكاءه ومن إعداد نفسه لذلك المستقبل الجامعي الكلاسيكي الجليل الذي كان جميع الناس يتوقعونه له ... ما كان شيء من هذا كله يشير إلى أن فلاديمير أوليانوف سيفلت ذات يوم من هذا النطاق ويشرع بطرق دروب جديدة قمينة بأن تقوده إلى الثورة . ولقد كان موت الكسندر الصدمة التي انهار تحت وطأتها كل عالم طفولته ومراهقته . فمنذ تلك اللحظة انكب على حين غرة على دراسة المشكلات الاجتماعية والسياسية ، وأخذ مصيره الحياتي وجهة غير متوقعة . فالتجربة التي عاشها وعاناها شخصياً مع موت أخيه أزاحت النقاب أمام عينيه عن الأسباب العامة التي تجعل من الثورة في روسيا ضرورة لا غنى عنها ، فلكأن شروط المجتمع الروسي انعكست في مرآة تلك المأساة العائلية . ومن هنا ، وحتى لو كان في مستطاعنا أن نفترض أن فلاديمير أوليانوف كان سيصبح لينين وإن لم يمت أخوه بحبل المشنقة ، فإن من المؤكد أيضاً أن شهادة الكسندر أسهمت بقسط وافر في الدفع به في وقت مبكر على طريق الثورة . ولقد كان هو نفسه واعياً لهذه الحقيقة ، وقد ألمح اليها باقتضاب أمام زوجته وأخواته . وإنه لأمر له دلالته أيضاً ألا يكون قد أشار قط علناً في حياته السياسية إلى حياة شقيقه أو موته . ونحن لا نعثر على اسم الكسندر في كتبه أو مقالاته أو خطبه ، ولا حتى في مراسلاته مع والدته وأخواته .

ولم يرد ذكر لألكسندر في المجلدات الخمسة والخمسين التي تتألف منها أحدث واكمل طبعة روسية لمؤلفاته غير مرتين ، وبصورة عرضية تقريباً : في استمارة أسئلة رد عليها (من دون أن ينجزها أو يرسلها قط) (« المؤلفات » – المجلد ٣٢ – ص ٢١) وفي رسالة كتبها عام ١٩٢١ يزكي فيها شخصاً يدعى شيبوتاريف : « لقد عرفت شيبوتاريف في الأعوام ١٨٨٠ لصلته بقضيه الأخ البكر الذي شنق عام ١٨٨٧ . إن شيبوتاريف لرجل شريف بلا مراء » (« المؤلفات » – المجلد ٥٤ – ص ١٣ – ١٤) . ولئن كان لينين قد قال « الأخ البكر » بدلاً من « أخي البكر » ، فهذا أمر له دلالته . ومثل هذا التحفظ الخارق للمألوف لا يمكن أن يعزى إلى البرود : فهو يخفي على العكس انفعالاً أعمق من أن يفصح المرء عنه وأشد إيلاماً من أن يطيق الإشارة اليه بكل رباطة جأش .

الماركسية في عصرنا[1]

ما عصرنا في نظر الماركسي وفي نظر الماركسية ؟ أهو عصر تقدم للماركسية أم عصر أفول ؟ إن الجواب الرسمي في الأقطار التي تعتبر فيها الماركسية مذهباً سائداً لهو بالطبع أن هذه الأخيرة تشهد في الوقت الراهن، على صعيد النظرية والممارسة سواء بسواء ، ازدهاراً منقطع النظير لا مثيل له ولا سابق . وبالمقابل يُلقى في مسامعنا عندنا ، في الغرب ، ولا سيما في البلدان الانكلو - ساكسونية ، المرة تلو الاخرى ويوماً بعد يوم ، بلسان العديد من الثقات الجامعيين وغير الجامعيين ، أن الماركسية لم تأفل فحسب ، بل أضحت أيضاً في غير محلها وزمانها وانقطعت أواصرها كافة بمعضلات عصرنا . وفي الوطن الذي رأيت فيه النور ، في بولونيا ، يرتفع صوت شاب ، صوت فيلسوف لامع ومحلل سياسي رديء في الوقت نفسه،

---

١ في شباط ١٩٦٥ ألقى إسحاق دويتشر المحاضرة الأولى من سلسلة محاضرات نظمتها « مجلة اليسار الجديد » في « مدرسة لندن للاقتصاد » وكان موضوعها « الماركسية في عصرنا » . وقد القاها إ . دويتشر على عادته مرتجلا ومعتمداً على بعض رؤوس أقلام . والنص التالي مأخوذ بلا تعديل يذكر عن شريط كان أحد المستمعين قد سجل المحاضرة عليه . ولم يبذل أي مجهود لقلب الصيغة « المنطوقة » إلى صيغة « مكتوبة » تولي الشكل المزيد من الاهتمام .

« تامارا دويتشر » .

ليقول لنا إنه ما عادت هناك جدوى من التناقش حول الماركسية ، لأن هذه الأخيرة قد انتصرت واكتسحت وغزت العقل الإنساني إلى درجة أمست معها مندمجة اندماجاً عضوياً بالفكر المعاصر . وليضيف أنه عندما يصل الأمر بمذهب كبير الى هذا الحد ، فيصبح جزءاً لا يتجزأ من الفكر الإنساني ، فإن لفي ذلك الدليل على نهايته . لقد عرف هذا الفيلسوف الشاب ، في وارسو ، عصراً ستالينياً خلط أثناءه أبناء جيله وهو نفسه بين الستالينية والماركسية . هم لا يعرفوف الماركسية إلا في شكلها الستاليني. ولقد قدمت لهم الماركسية الرسمية على طبق الستالينية،وقدمت لهم الستالينية على طبق الماركسية ، فآمنوا بذلك . وهم يرغبون الآن في قطع الأواصر مع الستالينية، ولما كانت الستالينية تعادل في نظرهم الماركسية فإنهم يحسبون أن ابتعادهم إنما يجب أن يكون عن الماركسية . ويخيل إلي من جهتي أنا – هذا هو جدلُ عصرنا المريرُ – أن الماركسية تتقدم وتأفل في آن واحد.

إنني ماركسي منذ بداية حياتي الراشدة ، أي منذ أكثر من أربعين عاماً ، ولم أتردد لحظة واحدة – لن أقول في « تبعيتي » ، فليس هذا هو المقصود – في رؤيتي الماركسية للعالم . إني عاجز عن التفكير . بغير المصطلحات الماركسية . وقد أقتل ولا أغير طريقتي في التفكير قد أحاول وقد أسعى ، ولكن لن تكون هناك من جدوى . لقد اندمجتُ الماركسية كامل الاندماج بوجودي . ولما كنت تجاه الماركسية في هذه الحالة من « التبعية » ، فإنني لا أرغب في أن أترك لديكم الانطباع ، أنتم الذين ربما تعرفتم إليها لتوكم ، بأن المذهب الماركسي يحيا في الوقت الراهن عصراً من عصوره الذهبية . إن عصرنا هذا ليس عصر انتصار للماركسية إلا بمقدار ما أن المرحلة هي مرحلة من الثورة يولد فيها نمط من مجتمع مضاد للرأسمالية ، ما بعد رأسمالي . ولكن عصرنا هو أيضاً عصر انحطاط للفكر الماركسي وأفول فكري للحركة العاملة في جملتها . فعلى وجه التحديد لأن الحركة العاملة المعاصرة لا تستطيع أن تجد مذهباً خلاقاً وخصباً

غير الماركسية ، ينخفض مستواها الفكري انخفاضاً مأساوياً عندما تتحجر الماركسية ، وفي كل مرة تتحجر فيها . إننا نشهد من جهة أولى توسع الممارسة الماركسية ، ومن الجهة الثانية انكماش الفكر الماركسي وانحطاطه . إن ثمة انفصاماً عميقاً بين التجربة العملية لثورة من الثورات وبين كل الإطار النظري الماركسي الذي تجد فيه هذه الثورة تبريراً لها على أسس فلسفية وتاريخية واقتصادية وسياسية وثقافية ، وحتى أخلاقية إذا شئتم .

إن ما قلته ليس خارقاً للمألوف بالنسبة إلى من درس مدارس الفكر والمذاهب الفلسفية أو التاريخية . فالأيديولوجيات الهامة فعلاً التي سيطرت على فكر أجيال متعاقبة قد عرفت جميعها تقريباً مراحل مرموقة من اليقظة والنمو والتوسع ومراحل من الانحطاط والأفول . ومن هذه الزاوية فإن المدرسة الفكرية الوحيدة التي تصمد للمقارنة هي المدرسة الارسطوطاليسية التي سيطرت على العقل البشري ما يقارب ألفي عام . فلقد مرت ، عبر تلك المراحل المتعاقبة ، بحقب عظيمة اتسمت بغزارة الشروح والتأثيرات الخلاقة ، ولكنها مرت أيضاً بحقب لم تنتصر فيها إلا في شكلها المقلد الشائه ، شكل السكولائية الكاثوليكية الوسيطية التي كانت أشبه ما تكون بصورة كاريكاتورية للفلسفة الارسطوطاليسية وإن تكن قد قامت على أساسها ؛ وحتى في العصر الوسيط لم يؤد ذلك إلى فناء مبرر وجود الفلسفة الأرسطوطاليسية أو إلى امحاء مراحلها المبدعة وتلاشي تأثيرها الإيجابي الذي حفز ثم ساعد أوروبا الوسيطية على الانتصار على الانحطاط السكولائي . ومن الممكن بهذا المعنى مقارنة الماركسية بالفلسفة الأريسطوطاليسية : فهي بالفعل نمط في التفكير يلخص ويعمم كل التجربة الاجتماعية والاقتصادية، وإلى حد ما السياسية ، للعالم في ظل الرأسمالية، ويزيح النقاب عن الدينامية الداخلية للتطور التاريخي الذي يقود لا محالة من الرأسمالية إلى شكل معين من نظام ما بعد رأسمالي نعده نحن اشتراكياً .

إن الماركسية ليست « موضة » فكرية أو جمالية أو فلسفية ، أياً يكن بها رأي أولئك الذين يصنعون الموضة . وقد يأتي هؤلاء ليقولوا لنا ، بعد أن يكونوا قد تولعوا بها طوال موسم أو موسمين ، إن أوانها قد فات . إن الماركسية نمط تفكير ، تعميم منبثق عن تطور تاريخي هائل. وما دمنا لم نخلف وراءنا هذه المرحلة التاريخية التي نحياها في الوقت الراهن، فإن المذهب قد يتكشف خطؤه في بعض النقاط التفصيلية أو في بعض مظاهره الثانوية ، ولكنه سيحافظ – ليس هناك من شيء يشير إلى العكس – على جوهر طابعه الراهن وقيمته وأهميته بالنسبة إلى المستقبل . إننا لندرك أن هناك طلاقاً بين النظرية والممارسة ، ندرك أن هناك تضاداً صارخاً – ومذلاً في غالب الأحيان بالنسبة إلى الماركسي – بين ما أسميه بالماركسية الكلاسيكية ، أي مجمل الفكر الذي أنشأه ماركس وانجلز ومعاصروهما ومن بعدهم كاوتسكي وبليخانوف ولينين وتروتسكي وروزا لوكسمبورغ ، وبين الماركسية المبتذلة ، الماركسية الزائفة بمختلف دعاتها من اشتراكيين – ديموقراطيين أوروبيين وإصلاحيين وستالينيين وخروتشفيين وغيرهم . إنني أتكلم ههنا عن التضاد بين الماركسية الكلاسيكية وبين الماركسية المبتذلة تشبهاً بما كان يقوله ماركس عن الاقتصاد الكلاسيكي والاقتصاد المبتذل . أنتم تعلمون أن مصطلح « الاقتصاد الكلاسيكي » هذا كان له عند ماركس معنى مختلف عظيم الاختلاف عن ذاك الذي تجدونه في موجزاتكم في « مدرسة لندن للاقتصاد » . وإذا لم أخطىء فإن الاقتصاد الكلاسيكي يدوم ، تبعاً لتلك الموجزات ، حتى نهاية القرن التاسع عشر ، بل حتى بداية القرن العشرين ، ومارشال نفسه يعد ركناً من أركانه . ولكن الاقتصاد الكلاسيكي ينتهي عملياً في نظر ماركس مع ريكاردو . وكل ما تلاه يؤلف في نظره اقتصاد البورجوازية المبتذل ، وهذا لسبب وجيه . فلقد وجد ماركس في الاقتصاد الكلاسيكي ، في أطروحات ريكاردو وسميث ، العناصر الرئيسية التي طور انطلاقاً منها نظريته الخاصة ، ولا سيما

نظرية قيمة العمل : القيمة المؤسسة على العمل البشري . ذلكم هو العنصر الثوري الذي كان كامناً في الاقتصاد السياسي البورجوازي الكلاسيكي . ولقد سعت البورجوازية فيما بعد إلى استبعاد هذا العنصر الثوري لأنه كان يبعث في أوصالها الذعر والخوف . ولقد كان في ود الاقتصاد بعد ريكاردو أن يستخلص القيمة من أي شيء فيما خلا العمل البشري . ولقد استخلصت المدارس الاقتصاديـــة المبتذلة التي خلفته القيمـــة من التداول . ولم تقم المدارس المتأخرة من اعتبار البتـــة للقيمة وشادت بدونها نظاماً للاقتصاد السياسي ، لأن مفهوم القيمة المخلوقة بالعمل البشري كان ينطوي في ذاته على جرثومة الثورة . لقد راح الفكر البورجوازي المذعور يتجنب ذلك المفهوم غريزياً ويسير في اتجاهات أخرى . يقول ماركس : إن الاقتصاد الكلاسيكي ، فكر سميث وريكاردو الاقتصادي ، قــد أخضع دواليب الرأسمالية لتحليل تجاوز من بعيد في عمقه الحاجات العملية للطبقة البورجوازية .

إن ريكاردو ، الذي كان على خير معرفة بالرأسمالية ، كان يعلم أن البورجوازية لا ترغب في فهم طريقة عمل نظامها الذاتي ، ولا تستطيع أن تسمح لنفسها بمثل هذا الفهم ، وأنـــه كان عليها بالتالي وللحال أن تتبرأ من نظرية القيمة المؤسسة على العمل . وهذه الظاهرة ، ظاهرة مذهب ونظرية يسلطان على دواليب النظام الاجتماعي من الضوء اكثر مما هو بحاجة اليه بالنسبة إلى الضرورات العملية للطبقة الاجتماعية التي يريد ذلك المذهب وتلك النظرية أن يخدماها ... هذه الظاهرة تحدث أحياناً في التاريخ . ولقد حدثت بالنسبة إلى الماركسية . فالفكر الماركسي الكلاسيكي في جملتـــه ينطوي على إمكانيات تحليل بالغة العمق وبالغـــة العظمة ، إمكانيات لم تكتشف ولم تستنفد حتى الآن ، حتى لتكاد تبدو وكأنها تتجاوز الحاجات العملية للطبقة العاملة . ولقد سبق لروزا لوكسمبورغ أن عبرت عن هذه الفكرة عند نشر المجلدين الثاني والثالث من « الرأسمال » . فقد قالت إن الحركة الاشتراكية ـ الديموقراطية الأوروبية قد بنت دعايتها وجهودها

التحريفية طوال ثلاثين أو أربعين عاماً على المجلد الأول من « الرأسمال »، أي على جزء واحد من نظرية ماركس الاقتصادية . ولكن ها هما المجلدان الثاني والثالث يصدران ، وها هي البناية الضخمة تنتصب أمام أنظارنا . والحال أن الحركة العاملة لا يخامرها من شعور بأنها شادت نشاطاتها العملية والنظرية على أسس ناقصة . فالمحتوى الفكري لما كان يؤلف جزءاً من « الرأسمال » قد كان كافياً ، إذا صح التعبير ، لإبقائها على قيد الحياة فكرياً طوال عدة عقود .

لقد أبدع ماركس منظومة فكرية تتجاوز من بعيد الحاجات العمليــة للحركة التي أراد لكتاباته أن تخدمها . ثم جاءت حركة التبسيط التي انطوت على شيء من التناقض الصارخ مع المذهب الأصلي ، ولكن التي كانت في الوقت نفسه انعكاساً لضرورات الحركات العــاملة والثورات التي كانت تلوح تباشيرها تحت راية الماركسية . وإني لآمل أن أكون قد أوضحت بما فيه الكفاية المعنى الذي أعطيه لعبارتي الماركسية الكلاسيكية والماركسية المبتذلة . ولعله يخلق بي أن ألخص محاججتي : إن الماركسية الكلاسيكية تسلط الضوء بالعمق من زاوية تاريخية على طريقة عمل الرأسمالية ، وعلى انحلالها المحتم في المستقبل ، وعلى مستوى أعلى أيضاً ، على علاقــات الإنسان بالإنسان وبطبقته وبسائر الطبقات داخل ذلك النظام ، وعلى علاقاته بتكنولوجيا عصره وموقفه منها . ولكن الماركسية المبتذلة ليست بحاجة إلى هذه المعارف كافة : فهي تكتفي بجزء يسير من كل هذه المعرفة وتضعه في المدار المحدود للحاجات العملية والنضالات العملية والمهام العملية . وفي هذا دليل على تضخم تاريخي مفرط في الممارسة وعلى ضمور في الفكر . وقد تكون هذه الممارسة عدوة للفكر أحياناً . وقد يتأذى هذا الفكر أحياناً من صلاته بالممارسة . ذلكم هو الجدل في أصفى أشكاله : فالفكر لا يمكن أن يوجد من حيث الأساس إلا من خلال صلاته بالممارسة ، والممارسة لا تستطيع على المدى الطويل أن تتجاهل النظرية . ولكن هناك مع ذلك مراحل

انتقالية ، مؤقتة وأحياناً طويلة بما فيه الكفاية ، يقوم فيها توتر لا حل له بين النظرية والممارسة ، ونحن نجتاز مرحلة من هذا القبيل منذ عقود عدة.

إن هذه التوترات المفتقرة إلى حــل تلحق الأذى بكل بنيان الفكر الماركسي .

لقد كانت البنية الفكرية للماركسية الكلاسيكية تقوم برمتها على أساس فرضية . ثورة اشتراكية تنشب داخل المجتمع البورجوازي الرأسمالي الذي أدرك مرحلة النضج . ولكن الأساس الذي تقوم عليه الماركسية المبتذلة في عقدنا هذا ، أي الماركسية الآتية إلينا من العالم الثالث ما بعد الرأسمالي، يتمثل في واقع محدد : واقع الثورات التي تنشب في المجتمعات المتخلفة . فما نتائج ذلك على بنية الفكر الماركسي ؟

لو قامت ثورة داخل مجتمع بورجوازي أدرك مرحلة النضج ، لترتب على ذلك ، ولنجم عن ذلك فعلاً وفرة مادية ، وفرة في السلع ، ووفرة في وسائل الانتاج ، ووفرة نسبية أو حتى مطلقة في وسائل الاستهلاك ، ووفرة في الآلات وفي الطاقات وفي الكفاءات البشرية ، ووفرة في الخبرات والموارد ، ووفرة في الثقافــة . وإذا قامت الثورة في مجتمع متخلف فإن العامل الأساسي والحاسم الذي ينبغي أن يقام له الاعتبار هو عامل الفاقة : الفاقة إلى وسائل الانتاج ووسائل الاستهلاك والكفاءات والطاقات والمدارس، والفاقة إلى الحضارة والثقافة ، والفاقة إلى كل شيء . ولن تكون هناك من وفرة ، أو حتى فيض وفرة ، إلا في العنصر الثوري . وإذا كانت الوفرة هي الأساس الذي تقوم عليه بنية الثورة برمتها وبنية الفكر الماركسي داخل الثورة ، فإن الحريــة السياسية تعتبر في هذه الحال من بديهيات الأمور . وعلى فرض أن الثورة أدت إلى اندلاع حرب أهليــة وإلى دكتاتورية البروليتاريا ، فإن هذه الدكتاتورية لا يفترض فيها أن تكون أكثر من مرحلة انتقالية هدفها المباشر الوحيد تحطيم المقاومة المسلحة التي

قد تلجأ إليها الطبقات المالكة القديمة، لا فرض الانضباط على الطبقة العاملة أو حتى الطبقة المتوسطة ولا إرغامها على الطاعة والامتثال . إن ماركس لم يتكلم إلا فيما ندر ، أو لم يتكلم بالمرة عن « الحرية السياسية » . وذلك على وجه التحديد لأنه كان يتصور الثورة في وفرة مجتمع بورجوازي ناضج، ولأنه كان يعد الحرية السياسية أمراً بديهياً ، إلى درجة أنه كان لا يناقش إلا في رياضياتها العليا إذا جاز التعبير ، ولا يولي اهتماماً إلا لتلك الأفانين من الحرية الحقيقية التي لا يرقى إلى مرقاها غير المجتمع الاشتراكي وحده. فعلى أساس الفاقة المادية لن يكون للحرية من وجود . أما على أساس الوفرة فلن تكون هناك من حاجة إلى مراوح واسعة في الأجور ، ولا إلى جميع الأنظمة والحيل التي لا يكون من نتيجتها غير إعادة خلق تفاوت ولامساواة مثيرين للاشمئزاز . وهذا التفاوت محتوم في مجتمع من الطراز الروسي حيث كان إنتاج الأحذية يقتصر — كما نوهت بذلك مراراً — على خمسين مليون زوج لمئة وستين مليون نسمة . هذه الحجة ، وهذه الصورة ، على قدمها ، ما تزالان تنطبقان ، بطريقة أو أخرى ، على الأقطار المتخلفة طراً تقريباً .

إن الإكراه الثقافي لا مكان له في إطار ثورة تتابع مسارها في بحبوحة الوفرة والمساواة المتزايدة . وهناك من يصور لكم هذا القسر، هذا الإكراه، على أنهما الثقافة البروليتارية ، الثقافة الاشتراكية . وليس للإكراه في مجال الثقافة من علة غير الإكراه السياسي . وإذا كان الرقباء يصادرون القصائد ، فخشية من أن تتحول هذه القصائد إلى بيانات سياسية . وهم بمطالبتهم بروايات موسومة بميسم « الواقعية الاجتماعية » إنما يشنون حرباً وقائية ضد بيانات المعارضة السياسية ، ضد ثورة محتملة ، ثورة قد لا تأتي حتى من الشعراء ، وإنما من أناس عاديين جداً ، في مقتبل العمر ، يعملون في المصانع أو الجامعات . إن الإكراه الثقافي قرين الإكراه السياسي والفاقة واللامساواة .

إن الماركسية الكلاسيكية لم تتصور قط « اشتراكية في بلد واحد » : لا في ألمانيا ، ولا في فرنسا ، ولا في انكلترا . لقد كان ميدانها الدائم أوروبا ، أو على الأقل أوروبا الغربية . ولقد كانت على الدوام أممية في نظرتها إلى الأمور . والحال أن تطورهـا التاريخي الواقعي قد قلصها إلى أبعاد الأمة . لقد أصبحت قومية لأن ستالين تصورها كافية نفسها بنفسها من وجهة النظر الاقتصادية ، وحتى الثقافية ، في إطار دولة واحـدة . ولقد كان هذا التصور أطروحة معادية للماركسية عميق العداء . كان انعكاساً لفكرة خاطئة : فكرة عزلة الثورة الروسية . وإلى اليوم أيضاً مـا يزال نمط التفكير في الشرق ، في روسيا ، في الصين ، ولدى أبرز الستالينيين في أوروبا الشرقية ، يتحدد بتقاليد « الاشتراكية في بلد واحد » ، أي باشتراكية تكفي ذاتها بذاتها ومنغلقة على نفسها ، وبمقتضياتها ومسلماتهـا الضمنية . وجلي للعيان أنه حيثما وجدت الفاقة والحرية المنقوصة والإكراهات الثقافية والفكرية والاشتراكية القومية ، وبالتالي حيثما وجدت نزعات قومية يصارع من جديد بعضها بعضاً ، عاد إلى الظهور شكل جديد من الداء الذي كان ماركس يسميه بالاستلاب ، وهو مصطلح يعرف اليوم ثانيـة ذيوعاً وشيوعاً . فالانسان يشعر وكأنه منحى عن المجتمع ، وكأنه دمية في أيدي القوى الاجتماعية التي تبدو له عشواء عمياء . إنه جزء لا يتجزأ من هذه القوى ، بل إنه واحد من صانعيها ، ولكنه مع ذلك ضحيتها. وفي نظر ماركس كانت ظاهرة الاستلاب هذه مستحيلة التصور في مجتمع اشتراكي ، في مجتمع يمد جذوره في التربة الغنية لحضارة رأسمالية اكتمل نضجها . والحال أن الثورة ، بخلاف تنبؤاته ، لم تتطور في أوروبا ، في الأقطار التي يحلو لنا أن نصفها بأنها مهد الحضارة الغربية ، وإنما تطورت في الشرق . وفي الشرق لا يمكن أن تنبني الاشتراكية كما تصورها ماركس. وكيف يمكن ذلك ما دامت القاعدة المادية منعدمة الوجود ؟ إن كل ما كان في وسع سكان تلك البلدان أن يفعلوه هو أن يشرعوا بإحدى المراحل

الأولية من السيرورة : مراكمة الشروط المسبقة للاشتراكية . وهذا ما يفعلونه في الوقت الراهن . ولنحذر من ازدرائهم ، ومن التقليل من عظمة مهمتهم وعظمة نجاحهم . فهم في سبيلهم إلى أن يتعلموا بعد طول تأخير ما تعرفه أمم أوروبا الغربية منذ أجيال عدة ، ولكنهم أيضاً في سبيلهم إلى أن يتعلموا ما لم تتعلمه قط هذه الأمم . إن التطور لمختلط : فالتأخر والتقدم العظيم يتعايشان . وإننا لنجانب الواقعية إذا غابت عن أنظارنا مظاهر التاريخ المتناقضة هذه .

ولكن قد يسألني سائل : لماذا لم يلب الغرب نداء الماركسية ؟ لقد انتصرت الثورة ، أول ما انتصرت ، في قطر كان متخلفاً ومتأخراً في عام ١٩١٧ ، وكانت بنيته الاجتماعية برمتها تتسم بهاتين السمتين بالرغم من المستوى المرموق لإنتاجه الفني والأدبي . ولقد ارتفع البنيان كله فوق أسس غير ثابتة ، وغير سليمة ، وتم كل شيء بالتكيف مع شروط التأخر القائمة . وارتفعت أصوات الشيوعيين القدامى بالشكوى الساخرة والمريرة معاً : « أما كان في وسع الله أن يساعدنا في إنجاب الثورة في قطر اكثر ملاءمة من روسيا تلك بفلاحيها ؟ » . كلا ، إن الله لم يساعدنا . ومن هنا كانت فجاجة ثورة حديثة على خلفية من التقاليد الموحلة البالية . ولقد كان لهذا الواقع أثر سلبي على إمكانيات التطور الثوري في الغرب . فالثورة التي قامت في مجتمع ما قبل رأسمالي ، وصبت مع ذلك إلى الاشتراكية ، أنجبت هجيناً يكاد يكون من اكثر من وجه كاريكاتوراً للاشتراكية . ولقد تتبع العامل الغربي ، بالرغم من أنه كان في الظاهر لا يكترث بالسياسة ، تتبع الأحداث باهتمام كبير ورأى بأم عينه أن الشعب الروسي يشكو من المجاعة والحرمان بعد الثورة . ورأى أيضاً أنه يقاسي من الإرهاب والاضطهاد . وكثيراً ما تساءل العامل الانكليزي أو الألماني أو حتى الفرنسي ، مهما كانت درجة بساطته أو سذاجته : أهذه هي الاشتراكية ! ها قد مضى قرن كامل على إيماننا

بها ، افترانا نسير خلف سراب خادع خطر ؟ لقد آثر العامل في أوروبا الغربيـــة ، وهو أسير الحيرة والتردد ، أن ينتظر ليرى كيـــف سيدور دولاب الأحداث . لقد كان للثورة الروسية مفعول « مطهر » على ثورة الغرب .

وبوجه الإجمال ينبغي أن ننظر إلى تتمـــة الأحداث في الغرب وإلى علاقات الماركسية بتطور صراع الطبقات في هذه المنطقة نظرتنا إلى حرب تدوم منذ أجيال ، وعلى وجه الدقة منذ قرن ونصف قرن من الزمن . ولقد كان لهذه الحرب مدها وجزرها ، وفواصلها ، ومعاركها النظامية، وهدناتها الطويلة الأمد بين موقعتين أو حملتين. وفي فترة الهدوء التي تفصل بين عاصفتين يستطيع أي امرىء أن يهتـــف : آه ، إن ماركسكم يزعم أن التاريخ بأسره هو تاريخ صراع الطبقات ، وصراع الطبقات لا وجود له ! وبديهي أن ماركس كان يعلم ، عندما كتب ذلك في « البيـــان الشيوعي » ، أن هناك فترات يخفت فيها صراع الطبقات إلى أدنى مستوى له ، أو يكاد يأسن . لقد كتب تشرشل في موضع ما أن تاريخ البشرية هو تاريخ الحروب (أهذا انتحال لا واعٍ عن ماركس ؟) ، والفارق أن ماركس كان يذهب به الفكر إلى « الحروب الطبقية » ، بينما ذهب الفكر بتشرشل إلى الحروب البحتة . ولكن تشرشل كان يعلم هو الآخر أن الحروب ليست متصلة ، كما كان ماركس يعلم أن الصراعات الطبقية تمر بمراحل من الهدنة والاحتكاك والتعارض الكامن والركود .

إن الحرب ضد الرأسمالية مستمرة منذ عدة أجيـــال . فقد كان هناك ١٨٤٨ ، و ١٨٧٠ ، و ١٩٠٥ ، و ١٩١٧ – ١٩١٨ ، و ١٩٤٥ – ١٩٤٦ : وقد كانت كلها معارك كبرى انتهت جزئياً بانتصار الثورة في الشرق وبهزائم فادحة للثورة في الغرب . وماركس لم يعد قط بأن الثورة ستنتصر في هذا اليوم أو ذاك من أيام الروزنامة . فكل ما توقعه هو أن

حرباً ستنشب ، حرباً عامة ، دامية أحياناً ، بين الطبقات والشعوب ، حرباً تدوم أجيالاً عدة وتنتهي لا محالـــة – إذا لم يكن مقضياً للحضارة بأن تنحط من جديد إلى همجية – بزوال الرأسمالية وولادة الاشتراكية . ولقد كان هناك بالطبع ، بالتوازي مع هذا كله ، استنفار لقوى الثورة المضادة . وأولئك الذين يحلو لهم أن يكرروا ويرددوا أن نبوءات ماركس لم تتحقق ، أيعتقدون حقاً بأن ماركس ما كان اكثر عمقاً من نقاده ؟ أو يحسبون فعلاً أنه كان يتصور طريق الاشتراكية بدون متاريس الثورة المضادة ؟ لقد رأينـــا القوى المضادة للثورة تُستنفر في العالم قاطبة ، في أشكال شتى ، من الفاشية إلى الإصلاحية الاشتراكية – الديموقراطية الاكثر نعومة وتهذيباً ، وتهب للذود عن النظام القائم . ولقد استغلت هذه القوى جميع المصاعب وجميع الجراح التي أصابت جسم الاشتراكية الكبير . ولم يحدث قط إلى يومنا هذا ، فيما خلا بعض الفترات الاستثنائية كما في عهد عامية باريس ، أن اعترفت الطبقة العاملة من معين ذاتها عشر القوة التي تعبئها الطبقات المالكة والحاكمة بصورة شبه دائمة . وحتى في عهد العامية لم يعبىء المتمردون قواهم فعلاً لكفاح حتى الموت : فكل الشهادات التي وصفت ما حدث تبرز خفة موقفهم ومرحهم وتفاؤلهم الجذل .

إنني عندما أتكلم عن الماركسية الكلاسيكية وعن قيمتها أقصد ما هو أساسي لدى ماركس . لقد وقف ماركس موقفاً سياسياً فعالاً في ١٨٤٧ – ١٨٤٨ ، وفي ١٨٦٨ ، وفي ١٨٧٨ . وكان يقول في الرسائل التي وجهها إلى إنجلز وأصدقائه إن الحركة العاملة قد تجد اندفاعتها الثورية خلال عام أو عامين أو ثلاثة أعوام ... وكتب إنجلز بعد وفاة صديقه إلى تلاميذه – وكانوا كُثُراً في أوروبا الغربية – بأنه مـا يزال يأمل أن يرى قبل أن يختفي من الوجود اتحاد عمال بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا . ولقد كانت هذه الآمال المحمومة طبيعية لدى هذين الرجلين ، ولكن ماركس وإنجلز كانا أيضاً مفكرين يعرفان كيف يتراجعان القهقرى إزاء التزاماتهما

المباشرة والتكتيكية ليستشفا الأفق التاريخي. لقد كان هنالك ماركس الذي أرسى أسس « الأممية الأولى » وراوده الأمل في أن تتوصل بسرعة، وبسرعة كبيرة، إلى إحداث انقلاب كبير. ولكن كان هنالك أيضاً ماركس الذي كتب « الرأسمال » والذي لم يتوقع شيئاً أو يتنبأ بشيء من خلال سياق هذا المؤلَّف العلمي والتاريخي المحض، والذي خلص من التحليل العميق، المفصل، الدقيق للرأسمالية، إلى استنتاج بحتمية انهيار هذا النظام لأن تناقضاته الداخلية ستحول في نهاية المطاف بينه وبين الاستمرار في عمله بصورة طبيعية. أما ميعاد حدوث هذا الانحلال والانهيار، فإنه لم يحدده، لا شططاً في الأرابة كما يلمح بعض النقاد الأربيين، وإنما لأنه كان يدرك طبيعة مسؤولياته. إن رجل السياسة قد يجد نفسه مكرهاً على المراهنة بأن بعض الأحداث واقعة لا محالة في أجل محدد من الزمن، وقد يحشد قواه وقوى أصدقائه وأنصاره برسم تلك المعركة. ولكن هذا الاحتمال محظور على رجل الفكر الذي لا يستطيع لا أن يتوقع تعقيدات التاريخ ولا أن يحدد مساره الدقيق.

لقد قلت إنني سأركز على ما هو أساسي لدى ماركس، وهأنذا قد تهت في مجال ليس بأساسي. اسمحوا لي إذن بأن أتطرق إلى مشكلة هامشية أخرى، المشكلة المتعلقة بمعرفة ما إذا كانت الطبقة العاملة مقضياً عليها بإفقار مطلق في ظل الرأسمالية. وهذا موضوع يثير منذ أمد نقاشاً حامياً في الأحزاب الشيوعية الأوروبية ولا سيما في فرنسا. والحال أننا نجد لدى ماركس عناصر تؤيد هذه النظرية وعناصر أخرى تدحضها. لقد كان فكر ماركس أعظم خصوبة وأشد تعقيداً من أن ترضيه الصيغ الضيقة. ولا ريب في أن العديد من الوقائع الاختبارية في عصره، وفي أوروبا الغربية، كانت تبدو وكأنها تؤيد فرضية إفقار تدرجي ومطلق.

ولكن لنعد إلى ما هو أساسي في النقد الماركسي للرأسمالية. يقال إن

الماركسية كانت مذهباً شديد التعقيد وواقعياً بالنسبة إلى القرن التاسع عشر، ولكنه تجووز الآن . ونحن نسأل : من أي وجه تم تجاوزه ؟ أمن وجه ما هو أساسي فيه ؟ إن لفي النقد الماركسي للكلاسيكية عنصراً أساسياً وحيداً ، وهو في غاية البساطة والوضوح ، ولكنه ينطوي في ذاته على جميع تحاليل النظام الرأسمالي بجوانبها المتعددة . اليكم : إن هناك تناقضاً صارخاً بين الطابع الاجتماعي المتعاظم لعملية الإنتاج وبين الطابع اللااجتماعي للملكية الرأسمالية . إن نمط حياتنا ، إن عملية الإنتاج في جملتها تصبح اجتماعية أكثر فأكثر بمعنى أن المنتجين الفرديين القدامى ما عاد في وسعهم الاستمرار في الإنتاج مستقلاً أحدهم عن الآخر ، من جيل إلى إلى جيل ، كما كانوا يفعلون في النظام ما قبل الرأسمالي . إن كل عنصر ، كل جزء ، كل عضو دقيق من مجتمعنا مرتبط مصيرياً بكل الباقي . وعملية الإنتاج برمتها تتلبس طابعاً اجتماعياً . وهي ليست قومية فحسب ، بل أممية . بيد أن هنالك في الوقت نفسه طرازاً لا اجتماعياً من الملكية : الملكية الخاصة . وهذا التناقض بين الطابع اللااجتماعي للملكية وبين الطابع الاجتماعي لانتاجنا هو منبع كل ما هو لا عقلاني وبائد في الرأسمالية .

هذا التناقض غير قابل للامتصاص على المدى الطويل . والمجابهة واقعة لا محالة . هذا هو كل ما قاله ماركس . حسناً ، هذا النقد الأساسي للرأسمالية هل تجووز ؟ هناك من يرد علينا أن بلى ، وأن الرأسمالية باتت تعرف منذ كينز كيف تخطط الاقتصاد . منذ ثمانين عاماً والتخطيط يُشهر في وجه ماركس . فههنا على ما يزعمون تكمن نقطة ضعف هذا الأخير. يقال لنا إن الرأسمالية قادرة هي الأخرى على التخطيط . فهل أعدت العدة قط لغير الحرب ؟ إذا كان الجواب بالإيجاب فإنني من جهتي لم أسمع بشيء من هذا القبيل قط . ولكن لنفترض أنها قادرة على ذلك . هل التوفيق ممكن بين التخطيط والرأسمالية ؟ لقد وُجدت على كل حال مشاريع

رأسمالية مسيَّرة على أساس إقطاعي . ومن الممكن أيضاً ، على ما أحسب، أن يُخلق ظاهر من اشتراكية على أساس رأسمالي . ولكن هل تستطيع الرأسمالية حقاً أن ترضى بذلك ؟ وحتى على فرض الإجابة بالإيجاب ، هل في مستطاعها أن تدرك معدل النمو الذي أتاح التخطيط إمكانية إحرازه في اقتصاد شعبي فعلاً ؟ كلا بالتأكيد ، لأنه لو كانت هناك رغبة حقيقية في تخطيط قومي أو أممي ، لكانت أفضل الشروط وأكثرها طبيعية أن يصبح التنظيم والملكية قوميين أو أمميين . ومن الممكن بلا مراء إدخال التخطيط في النظام الرأسمالي ، ولكن لن تكون النتائج إلا كالنتائج التي نحصل عليها إذا ركبنا محركاً لعربة تجرها الأحصنة . وهل تستطيع الرأسمالية أن تخلق مجتمعات أممية ؟ ستجيبونني : وهل فعل الروس والصينيون ذلك؟ كلا ، بالطبع . فالأسلوب الذي يصرِّف به الروس والصينيون أمورهم ما يزال يعكس نمط التفكير الرأسمالي . ولكن الرأسمالية عندهم تنعكس وتسقط نفسها على بنية اجتماعية ما بعد رأسمالية ، أما هنا فإن وضع الأمور مرتبط ومتلاحم تاريخياً مع طريقة عمل النظام الرأسمالي . وفي كل مرة تحاول فيها الرأسمالية أن تحطم قشرتها القوميــة لتفلت منها ، تفعل ذلك بطريقة مفجعة ، فتثير حروباً عالمية وتبتلع الأمم أو المزاحمين الأقل أهمية أو الأوهى شأناً .

لو درسنا العقدين الأخيرين من الازدهار الذي عرفته الرأسمالية منذ نهاية الحرب ، فماذا نجد ؟ أدحضاً للماركسية ؟ إنها ليست المرة الأولى التي يمر فيها في التاريخ عشرون عاماً من دون أن تنفجر الأزمة الشهيرة التي تتلوها طفرة ، على نحو ما كان يحدث للرأسمالية منذ عام ١٨٢٥ على الأقل وحتى الحرب العالمية الثانية . فبعد الحرب الفرنسية – البروسية في ١٨٧٠ – ١٨٧١ انقضت خمس وعشرون سنة تصنعت اثناءها المانيا تصنيعاً هائلاً وتطورت الرأسمالية من دون ما ازمة فعلية . وفي آخر هذه السنوات الخمس والعشرين جاء التحريفيون ، أصدقاء ماركس وانجلز وتلامذتهما،

وقالوا : « لا مراء في أن معلمينا قد أخطأ . فقد زعما أنه سيحدث انهيار وستقع أزمات وسيحصل ركود . ولم يحصل ركود . إن الرأسمالية ستتطور وستتقدم من الآن فصاعداً بدون مباغتات » . وبعد بضع سنوات من ذلك ، في عام ١٩٠٧ ، كانت الأزمة الكبرى . ثم تلتها أزمة أخرى لا تقل ضخامة ، فكانت الحرب العالمية الأولى .

إني لا أستطيع أن أقول ، وان كنت لا أريد أن أكون نبي شؤم، إني أؤمن بتطور تدرجي وسهل للرأسمالية الغربية . كما لا أعتقد أن ازدهارها المزعوم سيدوم أبداً . فبعد هذه السنوات العشرين من الرفاه ، ماذا نرى في المجتمع الغربي ؟ نرى فيه تفاقم جميع الميول التي كان كارل ماركس يعدها قمينة بأن تقود الرأسمالية إلى هلاكها . إننا نشهد في أقطار الغرب كافة زوال الطبقات المتوسطة التي كان يفترض فيها أن تكون الأساس المحافظ للرأسمالية ، وزوال صغار الفلاحين وملاك الأراضي. إن صغار الزراع الذين كانوا يؤلفون الجناح للرئيسي للحزب المحافظ الفرنسي صائرون إلى الزوال ، ولقد كفت فرنسا عن أن تكون قطراً مأهولاً بغالبية من الفلاحين .

وكذلك الأمر بالنسبة إلى معظم بلدان أوروبا الغربية . أما أميركا فليس فيها من فلاحين ، ولا يتعاطى فيها الزراعة غير نسبة ضئيلة للغاية من سكانها . هذا ما كان ماركس يتنبأ به : لن يبقى على قيد الوجود سوى البورجوازية والطبقة العاملة اللامالكة . ولقد ساد الاعتقاد طوال عقود عدة بأن هذا التشخيص الخاص لن تثبت صحته . وقد شرح كارل كاوتسكي في مؤلَّف ضخم متبحر عن المشكلة الزراعية لماذا لا يوجد في الزراعة ، كما في الصناعة ، تركز للرأسمال . بيد أنه كان يرى مع ذلك أن التشخيص الماركسي صحيح . وقد قبل لينين بمحاجة كاوتسكي ولاحظ أن الطبقة الفلاحية ما تزال موجودة وإن كانت تزداد فقراً يوماً

بعد يوم . والحال أن هـذه الطبقة الفلاحية صائرة إلى زوال في الوقت الراهن . وبالمقابـل تتضخم صفوف البروليتاريا . إن البلترة ، كابوس البورجوازية ، تتقدم سنة بعد سنة ، في أوج مجتمع الازدهار وحضارة الوفرة . وعمليات الانتاج تتم على نطاق متعاظم باستمرار ، وتتمركز ، وتتلبس طابعاً اجتماعياً لا يني يبرز ويتعمق ، وتزداد حاجتها يوماً بعد يوم إلى رقابة وإلى نمط ملكية اشتراكيين . إن القوى المنتجة في بلداننا تحتج وتتمرد على النزعة الانعزالية القومية التي تحبسها فيها التقاليد والطبقـات الحاكمة . إن الجحيم الماركسي هو الذي يعلن عن ظهوره على نحو غير منظور تقريباً ولا يكاد يقع تحت الإدراك المباشر في قلب ذلك الفردوس الذي يفترض بحضارة الوفرة أن تمثله .

وأثناء ذلك يخامرنـا شعور ، ههنا في الغرب ، بأن تطور صراع الطبقات قد توقف مؤقتاً وبأنه ينتظر خاتمة بعض فصول كبيرة . إن مسار التاريخ ينطوي على ميل عظيم الأهمية يَعِدُ – يعد ليس إلا – بأن يحول جذرياً اتجاه الماركسية والاشتراكية : أعني به نمو القوى المنتجة التي تدعم البنية الاجتماعية – الاقتصادية للاتحاد السوفياتي وكذلك سائر الأقطار ما بعد الرأسمالية . وعملية التراكم الاشتراكي البدائي التي كان لها القسط الوافر في تشويه البنية الفكرية والأخلاقية للماركسية لم يعد لها من العمر الشيء الكثير . إنني أجهل ما اذا كانت المسألة مسألة عشر أو عشرين سنة ، ولكن التطور سيكون قد اجتاز دائرة كاملة عندما ستتحول أخيراً روسيا ، ذلك القطر الذي كان متأخراً ومتخلفاً ، ومعها سائر الأقطار ، إلى أمم صناعية حديثة حقيقية ، وعندما ستحقق البلدان المتطورة ، التي ما تزال فيها على قيد الحياة بالرغم من كـل شيء تقاليدُ اشتراكية ، تلك الشروط المسبقة للاشتراكية التي كان يحلم بها ماركس وانجلز وأجيال من الاشتراكيين : الوفرة المادية والثقافية ، تحرر السياسة والثقافة ، تقـدم المساواة والنزعة الأممية .

إنني لا أشك ، بالرغم من المشاحنات البغيضة التي تنفجر بين موسكو وبكين ، في أن النظام الاجتماعي في هذين القطرين أعظم ذكـاء وأكثر تقدمية من قادتهما . ولسوف يرغمهم على الالتفات إلى النزعة الأممية حتى ولو كانوا أغبى الشوفينيين على وجه البسيطة . إنه سيطيح بهم ، وينحيهم جانباً ، ويخلق رجالاً جدداً قادرين على تلبية نداء الأممية ، وهذا مطلب تصوغه اليوم البشرية قاطبة . وحين سيصبح ذلك حقيقة واقعة فلن يكون تطور هذه الأقطار قد أدرك الماركسية الكلاسيكية فحسب ، بل ربما تجاوزها أيضاً . إن في مقدورنا إذن أن نطمئن ، على ما أعتقد ، إلى أن نظرية الماركسية وممارستها ستلتقيان من جديد ذات يوم ، حتى وإن لم يكن ذلك متوقعاً في مستقبل قريب . إن عليكم ، أنتم وأبناء جيلكم ، أن تنتظروا بثقة هذا اليوم الذي لن تعود فيه الماركسية تلك التي كان علينا أن نعيشها حتى الآن ، أي ماركسية التأخر المشوهة ، ماركسية الحضارة والمجتمعات المتأخرة . إن جيلكم سيشهد ، على ما آمل ، هذا النهوض الجديد ، هذا الصعود الجديد للماركسية لن يشوهها أي أفول فكري .

إن الماركسية والاشتراكية نتاج أوروبا الغربية . فقد خرجتا منها لتغزوا العالم ، فكان أن تقهقرتا في مسقط رأسها بالذات . فمتى ستعودان اليه ؟ لقد كانت إيطاليا أول قطر في أوروبا يعلّم جيرانـه فنون الرأسمالية . وكان رجال الاقتصاد الإيطاليون والمدن الايطالية والصيارفـة الإيطاليون يحتلون يومئذ مكانة الصدارة في أوروبا . ثم جـاء القرن التاسع عشر ، وأصبحت أوروبا بأسرها تقريباً بورجوازية ، بينما لم تكن إيطاليا قد شادت بعد رأسماليتها . وهي لم تفعل ذلك إلا فيما بعد ، متأخرة عن جيرانهـا أجمعين . فهل ستكون أوروبا الغربية إيطاليا الاشتراكية ؟ هل سيكون علينا أن ننتظر غزو الماركسية والاشتراكية للعالم قاطبة حتى تعودا إلينا ونحن في آخر الرتل ؟ أم أننا سنجد سبيلنا إلى التحرر من إسار الغزو المرعب الذي يهددنا به تأخرنا ؟

الانسان الاشتراكي

– ١ –

لقد[1] وجهت إلي الدعوة للحديث أمامكم عن موضوع الانسان الاشتراكي . وهذا موضوع واسع للغاية ، وعلى من يعالجه أن يتناوله من زوايا بالغة التنوع ، إلى حد لا أجد معه بدأ من أن أستمحيكم المعذرة مقدماً ، لأن ما سأقوله لكم أقرب إلى حديث متقطع متشعب منه إلى محاضرة منهجية .

يحب الماركسيون بصفة عامة الكلام عن الانسان الاشتراكي . ولا مناص لي من أن أقر بدوري أنني ترددت بعض الشيء وتحسبت عندما أقترح علي للمرة الأولى موضوع هذه المحاضرة . فأي محاولة لتقديم وصف إيجابي للانسان الاشتراكي ، أي العضو في مجتمع المستقبل اللاطبقي ، لا مفر من أن تتضوع بعطر يوتوبيا . وهذا ، في الحق ، ميدان اختصاص عظام أصحاب الرؤى الاشتراكية ، وبوجه خاص سان سيمون وفورييه اللذين كانا يتصوران ، مثلهما في ذلك مثل العقلانيين الفرنسيين في القرن الثامن عشر ، أنهما قد اكتشفا أخيراً – وأن العقل كشف من خلالهما – المثل الأعلى للانسان ، وأن هذا المثل الأعلى لا مفر من أن يضحي حقيقة

---

[1] محاضرة ألقيت أمام « المؤتمر المدرسي الإشتراكي » في أيلول ١٩٦٦ في نيويورك .

واقعة ما دام قد تم كشفه . ولقد كان هذا التصور أبعد ما يكون عن أفكار ماركس وانجلز وكبار الاشتراكيين في الأجيال التالية . فهؤلاء ما قالوا قط للبشرية : « هوذا مثالك الأعلى ، فخرّي على ركبتيك أمامه ! » . وبدلاً من أن يصفوا لنا بالتفصيل مجتمع المستقبل ، شرعوا بتحليل واقعي معمق للمجتمع الذي كان قائماً في عصرهم والذي ما يزال قائماً ، أعني المجتمع الرأسمالي . وإزاء صراع الطبقات والشكل الذي تلبسه في أيامهم ، انحازوا انحيازاً كاملاً ونهائياً إلى معسكر البروليتاريا . ولكنهم في الوقت الذي أولوا فيه جل اهتمامهم للضرورات الآنية، لم يديروا ظهرهم للمستقبل . فلقد حاولوا على الأقل أن يتكهنوا بجوهر ما سيكونه هذا المستقبل . بيد أنهم صاغوا فرضياتهم بتحفظ لا مستزاد عليه وعلى نحو عرَضي . ونحن لا نجد في كتابات ماركس وانجلز الغزيرة غير بعض الإشارات المتفرقة إلى موضوع نقاشنا : وصحيح أن بينها روابط دالة وأنها تفتح آفاقاً رحبة ، ولكنها لا تعدو مع ذلك أن تكون اكثر من إشارات . ومن المؤكد أن ماركس كان لــه تصوره عن الانسان الاشتراكي ، ولكن هذا التصور كان فرضية عمل بين يدي محلّل لا هذيان صــاحب رؤى . ولئن كان راسخ اليقين بالطابع الواقعي التاريخي لتنبؤاته ، فإنه ما كان يحجم مع ذلك عن إحاطتها بشيء من الريبة العلمية .

لقد كان ماركس يصور شعاعياً جنين الاشتراكية في أحشاء الرأسمالية . ومن هنا ما كان في وسعه أن يرى غير جنين الانسان الاشتراكي . ولا مندوحة لي من القول ، حتى لو كان في ذلك تخييب لآمال بعضكم ، إننا لا نستطيع حتى يومنا هذا أن نفعل اكثر مما فعل . فبعد جميع الثورات التي عرفها قرننا هذا ، وبالرغم من كل ما عرفناه عن المجتمع منذ عهد ماركس ، فإننا لم نحرز عليه أي سبق أو تقدم من هذه الناحيــة : إن مناقشاتنا حول الانسان الاشتراكي ما تزال إلى يومنا هذا عاجزة عن تخطي بعض العنــاصر الأولية . وكل مــا سنقوله حول هذا الموضوع سيكون

بالضرورة بالغ العمومية ، وجزئياً ، وإلى حد ما سالباً . فمن الأيسر لنا أن نحدد ما لن يكونه الانسان الاشتراكي من أن نحدد ما سيكونه . ولكن وصفنا للانسان الاشتراكي لا بد أن يشير مع ذلك إلى بعض من سماتـه الإيجابية ، وهذا بمقدار ما أن للنفي جانباً إثباتياً .

ترى الماركسية أن التناقض الأكبر للمجتمع البورجوازي والعلة الأعمق لفوضاه وللاعقلانيته إنمـا هو الصراع بين تعاظم الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج الجديث وبين الطابع اللا اجتماعي للرقابة التي تمارسها الملكية الخاصة على عملية الانتاج تلك . فالتكنولوجيا والصناعة الحديثة تنزعان إلى توحيد المجتمع ، بينما تمزق الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وحدته . ومن هنا كان من الضروري أن تتحرر عملية الإنتاج الاشتراكية الطابع ، بوصفها العنصر الأولي والبدائي من الجماعية القائمة في قلب الاقتصاد الرأسمالي ، أو الاقتصاد الرأسمالي الجديد إذا شئتم ، أقـول : من الضروري أن تتحرر من إسار الملكية البورجوازية التي تشدد الخنـاق عليها وتخل بتنظيمها . ولقد لبث الاقتصاديون البوجوازيون طوال اكثر من قرن من الزمن عمياناً عن هذا التنـاقض ، إلى أن اعترف به كينز وتلاميذه عـلى الرغم من نزعتهم الانتقائية ، مقرين بذلك بفضل النقد الماركسي وإن بصفة غير رسمية . ولكن كل ما حاول كينز والرأسمالية الجديدة ، التي تسلط عليها اكثر من أي وقت مضى شبح الشيوعية ، أن يفعلاه هو إدخال نوع من الرقابة الاجتماعية الزائفة على عملية الإنتـاج المشركة ضمن إطار الملكية الخاصة (أي المجتمعات الرأسمالية الاحتكارية) . وليست هذه هي المرة الاولى ولا الأخيرة التي يستميت فيها بلا جدوى رجال يحاولون ضمان البقـاء لمؤسسات أو لأنمـاط حياتية بالية بائدة في عصر ما عـاد يحتاجها أو يستخدمها . لقد رأيت ذات يوم في مسقط رأسي ، في بولونيا ، فلاحاً أصبح بحكم الصدفة مالكاً لسيارة ، وظل مصراً مع ذلك مطلق الإصرار على ربط أحصنته بها . والمدرسة الكينزية والرأسمالية الجديدة تتشبثان بدورهما

بربط أحصنة الملكية الخاصة إلى المركبات المسيرة بالطاقة النووية وإلى سفن عصرنا الفضائية ... وهما تهددان بأن تقيما الأرض والسماء وتقعداهما لمنعنا من فكها .

ولكن فلنعد إلى موضوعنا . إن فكرتنا عـــن الاشتراكية ليست بناء فكرياً متعسفاً ، وإنما استقطاب حذر وإسقاط على المستقبل لعناصر التنظيم الاجتماعي العقلاني الملازمة للمجتمع الرأسمالي وإن كان هذا الأخير يقضي عمره في مخالفتها وإنكارها . كذلك فإن فكرتنا عن الإنسان الاشتراكي ليست إلا إسقاطاً للإنسان الاجتماعي الموجود فينا من الآن وجوداً كامناً ، بالقوة ، وإن يكن مشوها ، مسحوقاً ، مشلولاً تحت وطأة الشروط التي نحيا فيها . (إن بذرة الانسان الاشتراكي ماثلة حتى لدى شغيل عصرنـا المستلب في اللحظات النادرة التي يعي فيها صادق الوعي دوره في المجتمع ، والتي يستيقظ فيها لديه التضامن الطبقي ويناضل في سبيل انعتاقه) هنـــا على وجه التحديد ترسي صبواتنا جذورها في الواقع وتتغذى به ، ولكنها أيضاً ، وكما يحدث في غالب الأحيان ، تغوص فيه وتأسن .

أعود فأقول: إننا نعرف ما لا يمكن للانسان الاشتراكي أن يكونه وما لن يكونه : فهو لن يكون نتاج مجتمع عدائي ، ولن يكون هناك مجال لوقوعه ، هو المنتج الجماعي ، تحت سيطرة نتاجه ومحيطه الاجتماعي بدلاً من أن يكون السيد عليهما . إنه لن يكون لعبة قوى السوق العمياء ، ولا آلة اقتصاد حربي رأسمالي جديـــد تسيّره الدولة . إنه لن يكون ذاك البروليتاري المستلب والمستعبد الذي كـــانه في الماضي ، ولن يكون تلك النسخة الرديئة عن البورجوازي الصغير كما هي عليه حاله في دولة الرفاه المزعومة . وبصفته شغيلاً جماعياً لن يكون في مستطاعه أن يكون ذاته إلا في مجتمع جماعي رفيع التطور . إن مجتمعاً من هذا النوع هو وحده الذي سيتيح له إمكانية تقليص ساعات عمله الضرورية اجتماعياً إلى حد أدنى بات

قريب المتناول بفضل التكنولوجيا الحديثة . إن مجتمعاً كذلك هو وحده الذي سيوفر له إمكانية تلبية حاجاته المادية والروحية بطريقة أمينة لا تحف بها المخاطر ، عقلانية لا تخضع للنزوات . وإنما في إطار مجتمع كهذا سيتمكن من تلبية حاجاته واستخدام أوقات فراغه بتبصر ، بالاعتماد على معايير ذكية ، بدلاً من أن ينساق لصوت الدعاية التجارية الخافت أو الراعد يوجهه كما يحلو له . وفي مجتمع اشتراكي فحسب سيكون في مستطاع الانسان أن ينمي طاقاته البيولوجية والفكرية ، وأن يطور شخصيته ويدمجها ، وأن ينبذ جانباً تلك التركة الثقيلة الموروثة عن آلاف السنين من الفاقة المادية واللامساواة والاضطهاد . وآنذاك ، آنذاك فحسب ، سيكون في وسعه أخيراً أن يخفف من حدة الطلاق بين العمل المادي والفكري ، ذلك الطلاق الذي نجم عنه استلاب الانسان بالنسبة إلى الانسان وانقسام البشرية إلى حكام ومحكومين وطبقات متناحرة ، ذلك الطلاق الذي لم يعد له من مبرر مع تكنولوجيتنا المتقدمة والذي لا تدخر مع ذلك الرأسمالية والرأسمالية الجديدة جهداً لتأبيده وتخليده . إن الانسان الاشتراكي لا يستطيع أن يأخذ أبعاده كافة إلا على أعلى مستويات ثقافتنا وحضارتنا ، تلك المستويات التي باتت نظرتنا تطالها ، ولكن التي لا تتيح لنا آنماطنا في الملكية ومؤسساتنا الاجتماعية وعطالتنا العميقة الغور إمكانية التقدم نحوها بالقوة والسرعة اللتين نقدر عليهما .

– ٢ –

غالباً ما تسدد سهام النقد إلى تصورنا عن الانسان الاشتراكي بسبب تفاؤله الوقح . فنحن نُتهم بأننا طوبائيون ، ويقال لنا إن مسلماتنا التاريخية – الفلسفية والبسيكولوجية لا تصمد للقراع . ويقال لنا فيما يقال إن « الجنة الأرضية » التي تكلم عنها دعاة الاشتراكية عصية المنال ، متعذرة البلوغ ،

شأنها في ذلك شأن الفردوس السماوي الذي وعد به اللاهوتيون . إن علينا أن نصغي إلى هذه الانتقادات بفكر مفتوح : فقد نكتشف فيها حبة من الحقيقة . ولنقر بأننا غالباً ما تصورنا بتفاؤل مفرط إن لم نقل الاشتراكية عينها فعلى الأقل الطرق المفضية إليها . ولكن إيانا أن ننسى في الوقت نفسه أن قسماً لا بأس به من هذه الانتقادات إنما يعبر ، بوجيز العبارة، عن يأس المجتمع البورجوازي ويأس أيديولوجييه وعن الشعور الذي يخامرهم بأن الطريق مسدود أمامهم ، أو يعكس بعض الأشكال اللاعقلانية من خيبة الأمل وزوال الوهم في معسكرنا بالذات . هكذا ينحي علينا بعض الوجوديين باللائمة لأننا نريد الافلات من الشرور التي هي خاصة الوضع البشري ، ويتهموننا بمحاولة تجميل وتمويه ما كتب على مصيرنا من عبث مقدور . والحال أنه من بالغ الصعوبة أن ندخل في نقاش مثمر مع خصوم يجادلون من وجهة نظر الأبدية وانطلاقاً من مقدمات لاهوتيه صرفة . إن الوجودية المتشائمة تطرح علينا هذا السؤال القديم الذي ليس بيننا من لا يعرفه حسن المعرفة : ما هدف الوجود والنشاط الانسانيين ومـا مبررهما بالنسبة إلى لاتناهي المكان والزمان ؟ ونحن بالبداهة لا نستطيع جواباً ... وهي نفسها لا تستطيعه . ولكن السؤال نفسه عبثي ، لأنه يصادر عـلى حاجة الوجود البشري إلى هدف نهائي ، ميتافيزيقي ، إلى مبرر من وجهة نظر الأبدية . ونحن لا نستطيع أن نقدم له مثل هذا الهدف، ولسنا بحاجة إلى ذلك أصلاً . إننا لا نعترف بمعنى ميتافيزيقي لوجودنا ، ولا نرى بالتالي فيه من عبث : فالمعنى الميتافيزيقي والعبث وجهان لميدالية واحدة . ولا سبيل إلى الكلام عن الثاني إلا إذا افترضنا من حيث المبدأ وجـود الأول . وعندمـا نفكر نحن بالشرط البشري فإن ما يحظى باهتمامنا ليس عزلة الانسان ووحدته في لاتناهي المكان والزمان – فحتى مصطلحات العزلة والوحدة والعبث لا معنى لها بالقياس إلى هذا اللاتناهي – وإنما وضع الانسان في المجتمع ، ذلك الوضع الذي يخلقه بنفسه والذي يملك القدرة

على تغييره . إن النقاش من وجهة نظر الأبدية عقيم على الصعيد الفلسفي ورجعي على الصعيد الاجتماعي . وهو يقود بصفة عـامة الى اللامبالاة الأخلاقية والسكونية السياسية ، ويفضي الى القبول بشروطنا الاجتماعية كما هي باستسلام . ولحسن الحظ أن الوجوديين ، كما يبين ذلك مثال سارتر الجديد بالإعجاب ، قد يخونون نظامهم الفلسفي ويقبلون بفكرة الانسان الاشتراكي بالرغم من وجهات نظرهم حول عبث الوضع البشري .

- ٣ -

إن النقد الذي يوجهه سيغموند فرويد إلى الصبوات الماركسية في كتابه « عسر في الحضارة » هو إلى حد ما أكثر تحديداً وتخصيصاً . فهو يرد علينا ، نحن الذين نزعم أن الإنسان يستطيع أن يعيش وسيعيش على الأرجح في مجتمع بلا طبقات ولا دول ، بالقول السائر القديم : الانسان ذئب للانسان . إنه يقول إن الكائنات البشرية ستظل أبداً تكن العداء والبغضاء لبعضها بعضاً ، وإن غرائزها العدوانية ، الجنسية المنشأ ، مقدورة محتومة بيولوجياً ، وأن أي تغير يطرأ على بنية المجتمع لن يؤثر عليها تأثـيراً يذكر . يقول فرويد : « يحسب الشيوعيون أنهم اكتشفوا طريق الخلاص من الشر . ففي تصورهم أن الانسان طيب أبداً ولا يريد غـير الخير لقريبه ، ولكن مؤسسة الملكية الخاصة أفسدت طبيعته . فامتلاك الثروات يقلد القوة فرداً وينمي لديه الميل إلى إساءة معاملة جاره . وبالمقابل فإن من لا يملك شيئاً منها ، فلا بد أن يصبح معاديـاً للمضطهِد وأن يثور عليه . ويوم تلغى الملكية الخاصة ، وتعود الثروات مشتركة بين الجميع، ويصبح في وسع كل فرد أن يشارك في الملذات التي توفر تلك الثروات أسبابها ، تتلاشى العدوانية وروح الأذى السائدتان بين البشر . ولما كانت الحاجات كافة ستُلبى ، فلن يبقى من داع لدى أي امرىء كي يرى

في الآخرين عـدواً ، وسيمتثل الجميع بملء إرادتهم وطوعهم لضرورة العمل » .

في ودي أولاً ، قبل المضي قدماً إلى الأمام ، أن أتأكد من أن فرويد يلخص بدقة وأمانة وجهة النظر الماركسية . فهل صحيح أننا نرى أن الانسان « طيب أبداً » بطبيعته وأنه كله حسن نية تجاه جاره ؟ لا ريب في أن فرويد ، الذي كان قليل الاطلاع على النظرية الماركسية ، قد صادف هذا النوع من التوكيدات في الدعاية الشيوعية أو الاشتراكية- الديموقراطية الرديئة التي لا مراء في أنهـا استخدمته واعتمدته . ولكن النظرية الماركسية الجـادة لا تجازف بنفسها في مثل هذه التكهنات عن الطبيعة البشرية ، ونحن لا نعثر على أثر منها إلا كتابات ماركس الشاب يوم كـان ما يزال تحت تأثير فيورباخ . وأذكر ان هذه كانت شغلي الشاغل في العهد الذي رحت اكتشف فيه ، وأنا في مقتبل العمر ، النظرية الماركسية وأحاول توضيح مفهوم الطبيعه البشرية الذي تنطوي عليه . وبعد دراسة نصوص ماركس وإنجـلز وكاوتسكي وبليخانوف ومهرينغ وروزا لوكسمبورغ ولينين وتروتسكي وبوخـارين ، خلصت إلى الاستنتاج بأن أفكارهم عن الطبيعة البشرية محايدة في الأساس والجوهر إن جاز التعبير . فهم ما كانوا يرون أن الانسان « كله طيبة » أو « كله شر » ، ولا أنه « كله حسن نية » أو « كله سوء نية تجاه جاره » . كانوا لا يقبلون بالتصور الميتافيزيقي عن طبيعة إنسانية ثابتة لا تؤثر عليها الشروط الاجتماعية. وإني لا أزال على اعتقادي بأنني لم أكن مخطئاً في هذا الصدد .

إن الإنسان نتاج الطبيعة ، ولكنه بوجه خاص نتاج جزء من هـذه الطبيعة يتميز عنها ويتنافى معها جزئياً . وهذا الجزء هو المجتمع البشري . وأياً يكن الأساس البيولوجي لوجودنا ، فإن الشروط الاجتماعية هي التي تلعب دوراً حاسماً في تكوين طبائعنا . والعوامل البيولوجية نفسها تنعكس

من خلال هذه الشروط الاجتماعية وتتعرض إلى تحول جزئي بحكم شخصيتنا الاجتماعية . ولقد غُمرت طبيعة الإنسان ، بما فيها غرائزه ، حتى يومنا هذا في شروطه الاجتماعية ولحق بها شيء من التشويه بنتيجة ذلك ، ولن يكون في مستطاعنا أن نحلل تحليلاً واضحاً علمياً مختلف العناصر البيولوجية والاجتماعية التي تكوّنها إلا يوم تفقد تلك الشروط طابعها الاضطهادي المشوِّه .

إن الانتقاد الرئيسي الذي يجد الماركسي نفسه مكرهاً على توجيهه إلى المدرسة الفرويدية – وأنا أتكلم بصفتي رجلاً يقر كامل الإقرار بمساهمة فرويد الأساسية في تفهمنا للبسيكولوجيا – هو أن فرويد وتلاميذه لا يقيمون اعتباراً في غالب الأحيان لذلك الانعكاس وذلك التحول اللذين يطرآن على دوافع الانسان الغريزية من خلال هويته الاجتماعية المتغيرة ... وهذا مع أن فرويد هو الذي أفهمنا عمليات التصعيد وآلياته . والتحليل النفسي ما أمكنه حتى اليوم أن يهتم بغير البورجوازي ، بورجوازي العصر الأمبريالي ، محاولاً أن يصوره على أنه الإنسان بصفة عامة ، معالجاً صراعاته الداخلية بطريقة فوتاريخية [1] ، ناظراً إليها على أنها صراعات تحاصر الكائنات البشرية في مختلف العصور وفي مختلف الأنظمة الاجتماعية ، صراعات ملازمة للشرط البشري لا تقبل عنه انفكاكاً . ومن وجهة النظر هذه لا يمكن عقل الانسان الاشتراكي إلا بوصفه نسخة عن الانسان البورجوازي . وفرويد نفسه يقول : « صحيح أننا بإلغائنا الملكية الخاصة ننتزع من العدوانية البشرية ومن اللذة التي تنجم عنها واحدة من أدواتها ، أداة قوية ، ولكن ليس أقواها . ولكننا بالمقابل لا نكون قد غيرنا شيئاً لا في طبيعة العدوانية ولا في فروق القوة والنفوذ التي تستغلها » . ويتابع مضيفاً هذا التوكيد القاطع : « إن العدوانية لم تخلقها الملكية ، بل هي كانت

---

١ تركيب مزجي يعني « ما فوق تاريخية » . « المعرب »

سائدة دونما حدود تقريباً في الأزمنة البدائية التي لم تكن فيها الملكية تمثل أمراً ذا بال . وما تكاد غريزة الملكية تفقد لدى الأطفال شكلها الشرجي البدائي ... حتى تتجلى العدوانية عندهم ... وحتى لو ألغينا الحق الفردي في الممتلكات المادية ، لظل الامتياز الجنسي قائماً ، الأمر الذي لا بد أن تنجم عنه بالضرورة غيرة بالغة الحدة بين كائنات تتباين أشكالها احتلالها للمرتبة الواحدة » . إن لفي هذا تحذيراً لنا إذن من أن الانسان الاشتراكي لن يكون أقل عدوانيه ولا أقل بغضاء تجاه أشقائه البشر من الانسان البورجوازي ، وأن عدوانيته تتجلى منذ نعومة أظفاره .

لنلاحظ أن فرويد ، في الوقت الذي يقر فيه بأن الملكية الخاصة تشكل أداة عدوان قوية ، يؤكد على نحو دوغمائي لا مستزاد عليه أنها ليست أقوى أدوات هذا العدوان . ما أدراه بذلك ؟ كيف يقيس القوة النسبية لشتى أدوات العدوان ؟ إننا ، نحن الماركسيين ، أكثر تواضعاً وأقل دوغمائية بصدد هذه النقطة : فنحن لا ندعي أننا قمنا بعمليات قياس مقارن بالغة الدقة حتى يكون في مستطاعنا أن نقوم وزن الدوافع الجنسية والعدوانية الغريزية بالنسبة إلى وزن الحاجات والمصالح والإكراهات ذات الصفة الاجتماعية . ومن المؤكد أن الدوافع الغريزية ستظل قائمة لدى الإنسان الاشتراكي – وكيف يمكننا أصلاً أن نفترض العكس ؟ – لكننا لا نعرف كيف ستنعكس من خلال شخصيته . إن كل ما يسعنا أن نتكهن به هو أنها لن تمارس تأثيرها عليه على نفس النحو الذي تمارسه على الانسان البورجوازي . (إننا لنفترض أن الانسان الاشتراكي سيقدم لأبحاث المحلل النفسي ولاستنتاجاته حقلاً أرحب بكثير وأدعى إلى الثقة لأنه سيكون في مستطاع عالم كفرويد في المستقبل أن يتبين ، من خلال ملاحظته للإنسان الاشتراكي ، كيف تؤدي الدوافع الغريزية وظيفتها أداء مباشراً ، لا من خلال النظارات السود والبلورات المشوهة المتمثلة في البسيكولوجيا الطبقية للمريض وللمحلل ذاته) . كذلك ليس هناك من مبرر لافتراض فرويد

بأن الملكية هي واحدة ليس إلا من أدوات غرائزنا العدوانية . بل على العكس : فكثيراً ما تتخذ الملكية من هذه الغرائز أدوات ، وتولّد منظومتها الخاصة من الدوافع العدوانية . وعلى كل ، قام منذ بداية التاريخ رجال منظمون في شكل جيوش بتذبيح بعضهم بعضاً لإيثار أنفسهم بالخيرات المادية أو للمطالبة بحق امتلاكها . ولكنهم لم يشنوا قط إلى اليوم ، اللهم إلا في الميثولوجيا ، حرباً تنازعوا فيها على « الامتيازات الجنسية » .

وعليه فإن فرويد بتوكيده أن إلغاء الملكية لن يغير شيئاً في « فروق القوة والنفوذ التي تستغلها العدوانية » ولن يبدل شيئاً في طبيعتها ، إنما يكتفي بالمصادرة على المطلوب[1] . وهو بإعلانه بعد ذلك أن « العدوانية... كانت سائدة دونما حدود تقريباً في الأزمنة البدائية التي لم تكن فيها الملكية تمثل أمراً ذا ذال » ، لا يخطر له من قريب أو بعيد أن هذه الندرة ، هذه الفاقة المادية على وجه الدقة هي التي حطمت وحدة المجتمع البدائي إذ حرضت البشر على الاختصام بوحشية على تلك الموارد الشديدة الندرة، الشيء الذي أدى إلى انقسامهم إلى طبقات متباغضة متعادية . ذلكم هو السبب الذي يجعلنا نقول إن الانسان الاشتراكي لا يمكن تصوره إلا في إطار تسود فيه وفرة لا سابق لها في السلع والخدمات المادية والثقافية . إنها ألفباء الماركسية . ولقد كان واحد من أصدقائي ، وهو محلل نفسي لبيب، يقول لي متنهداً : « آه ! لو أن فرويد قرأ إنجلز ، لو قرأ على الأقل « أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة » ، لكان تحاشى الكثير من الدروب المضللة ومن الأخطاء ! » . ولعله كان تفادى أيضاً أن يقدم ذخيرة لأولئك الذين يتخذون من « الإنسان ذئب للانسان » صرخة حرب ضد التقدم والاشتراكية والذين يلوحون بفزاعة الذئب البشري الأبدي

---

[1] المصادرة على المطلوب : مغالطة منطقية تقوم على افتراض ما هو مطلوب إثباته .

« المعرب »

لخدمة مصالح ذئب حقيقي ودموي ، ذئب الأمبريالية المعاصرة .

لنقبل بلا مماحكة بأن عدوانية الانسان الاشتراكي ستتجلى في دار الحضانة « في شكلها الأولي ، شكلها الشرجي » وفي أشكال أخرى اكثر تطوراً. ولكن كثيراً من الأشياء ستكون رهناً بطابع دار الحضانة تلك : فهل نراها فردية ، حبيسة إطار الوحدة العائلية كما نعرفها الآن؟ أم جماعية بعد انحلال هذه الوحدة العائلية ؟ إننا نصادر ، في فرضيتنا عن الانسان الاشتراكي ، على أن الإطار الذي سيحيا فيه لن يكون شبيهاً بإطار الأسرة الزوجية الراهنة التي يؤلف المال لحمتها وسداها والتي يكون فيها الولد والمرأة تابعين للرجل . إننا نفترض أن الانسان الاشتراكي سيكون في طفولته أقل خضوعاً للسلطة الأبوية من سابقيه ، وأنه سيكون متى بلغ سن الرشد حراً في حياته الجنسية والإيروسية ، أو على الأقل أكثر حرية بما لا يقاس من حرية الانسان البورجوازي في الوقت الراهن ، في اتباع دوافعه العاطفية وفي تلبية حاجته إلى الحب من دون أن يدخل في صراع مع المجتمع . ولسوف تنعكس دوافعه الغريزية من خلال شخصيته على نحو لا يمكننا التنبؤ به ، ولكنه بالتأكيد يختلف عن النحو الذي يعده فرويد بحكم الأمر المفروغ منه . أيجوز لنا على سبيل المثال أن نفترض أن الانسان الاشتراكي سيشكو بدوره لا محالة من عقدة أوديب ؟ وهذه العقدة ، التي أرست جذورها عميقاً في حياتنا النفسية ، على الأقل منذ أن أخلى نظام الأمومة الساح للمجتمع الأبوي ، هل ستبقى على قيد الوجود يوم تكون البشرية قد تجاوزت ، فيما إذا استطاعت إلى ذلك سبيلا ، مرحلة النظام الأبوي البورجوازي ؟ وفي وسعنا أن نتساءل عما ستكون الأنا العليا التي هي أشبه ما تكون فينا برقيب أخلاقي لاشعوري وبأب ؟ إن فرويد يخلط بين الأبوة التي هي مقولة بيولوجية وبين السلطة الأبوية التي هى مؤسسه اجتماعيـــة ويصادر على أن الأنا العليا وعقدة أوديب وسائر انعكاسات المجتمع الأبوي المتسلطة على نفسية الفرد ستدوم أبد الدهر . وصحيح أن الفكر ذهب به

لهنيهة من الزمن إلى احتمالات أخرى : « لو ألغينا علاوة على ذلك هذا الامتياز الأخير (« الامتياز الجنسي ») بإطلاقنا الحرية التامة للحياة الجنسية ، وبإلغائنا بالتالي الأسرة ... لما أمكننا أن نتوقع أي طريق جديد ستسلكه الحضارة لتتابع تطورها » . ولكنه عاجز عن تصور هذا المنظور فعلاً وحقاً ، لأن الأسرة الزوجية تبدو له خلية الحضارة وبذرتها التي ليس عنها غناء ، بل إنه لا يتوصل في فكره إلى الانفصال عن المريض البورجوازي سليل الأسرة الزوجية الممدد أمامه على أريكته . ومن هنا فإنه في الوقت الذي يقر فيه مرغماً باستحالة التنبؤ بالطرق الجديدة التي يستطيع تطور الحضارة أن يسلكها بدون الأسرة يؤكد بيقين مطلق أن عدوانية الطبيعة البشرية ، تلك العدوانية التي لا سبيل الى القضاء عليها ، ستطارد الانسان الاشتراكي الى ما بعد المجتمع الطبقي والدولة والأسرة .

وإننا لنؤثر ، نحن الماركسيين ، ههنا أيضاً درجة محددة من اللاأدرية . وبديهي أن شاغلنا الأول هو القسوة والاضطهاد اللذان يولدهما بصورة مباشرة الفقر وفاقة السلع والخيرات والمجتمع الطبقي وسيطرة الانسان على الانسان . أما فرويد فإنه ما يكاد يجازف في ميداني علم الاجتماع والتاريخ حتى يعرض نفسه لاحتمال لومه على أنه ينزل نفسه بإرادته وطوعه إلى حد كبير منزلة المدافع عن المجتمع القائم . بيد أنه قد علمنا مع ذلك شيئاً له أهميته عندما بيّن لنا واقع العناصر الهدامة والعدوانية التي تنطوي عليها الطبيعة البشرية . ذلك أن الأباطرة والملوك وسادة الحرب والدكتاتوريين والحكام والقادة بشتى ضروبهم ما كانوا ليفلحوا في أن يثيروا لدى البشر سلوكاً عدوانياً إلى الحد الذي عهدناه لو كانت العدوانية لا تؤلف جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة البشرية . فحكامنا قد استنفروا على الدوام أحط غرائز بني آدم . ولكن من المستحيل في الوقت الراهن الإجابة على السؤال المتعلق بمعرفة مدى تأثير هذه العدوانية البيولوجية المشروطة جنسياً على الانسان الاشتراكي في المستقبل .

إننا لا نزعم أن الاشتراكية ستجد حلاً لجميع أمراض الجنس البشري. ونحن إنمـا نناضل أولاً ضد تلك التي اختلقها الانسان بنفسه والتي يملك القدرة على شفائها. أتأذنون لي بأن أذكركم بأن تروتسكي، على سبيل المثال، يتكلم عن ثلاث مآسٍ أساسياً - الجوع والجنس والموت - تحاصر البشرية! ولقد تصدت الماركسية والحركة العاملة الحديثة لمعضلة الجوع. وطبيعي أنهما وجدتا في نفسهما ميلاً بنتيجة ذلك إلى تجاهل الكوارث الأخرى أو إلى التهوين من شأنها. لكن أليس صحيحـاً أن الجوع، أو بصفة أعم اللامساواة الاجتماعية والاضطهاد، قد عقدا إلى أبعد الحدود وزادا من حدة عذابات الجنس والموت بالنسبة إلى عدد لا يقع تحت حصر من الكائنات البشرية؟ إننا بنضالنا ضد اللامساواة الاجتماعية والاضطهاد إنما نناضل أيضاً في سبيل تخفيف وقع الضربات التي تنزلها بنا الطبيعة. وأعتقد أن الماركسية تسعى جاهدة للتصدي بنجاج للمهام التي يواجهها عصرنا. أما الفرويديون فإنهم بتركيزهم اهتمامهم كله على الجنس قد ضربوا صفحاً عن مشكلات الانسان الاجتماعيـة أو هونوا من خطرها. ومـاذا كانت النتيجة؟ أياً تكن أهمية التحليل النفسي للنظرية، فـإن منافعه العلاجية ليست متاحة في عصرنا إلا لأقلية صغيرة ضئيلة من أصحاب الامتيازات. وبالمقابل فإن رؤيتنا للانسان الاشتراكي قد ألهمت وحفزت شطراً عظيماً من البشرية. وبالرغم من أننـا صادفنا في نضالنا نجاحات متفاوتـة، وبالرغم من أننا منينا بهزائم ماحقة، فإننا قد أفلحنا مع ذلك في تحريك جبال، بينما يعجز كل ما في العالم من تحليل نفسي عن تقليص العدوانية التي تغلي بها معمورتنا ولو بأبسط نسبة.

أجل، إن الانسان الاشتراكي سيعاني هو الآخر من عذابات الجنس والموت. ولكننا لموقنون بأنـه سيكون خيراً منا عدة لمواجهتها. وإذا لبثت طبيعته على عدوانيتها، فإن مجتمعه سيقدم له مرحلة أوسع واكثر تنوعاً بمـا لا يقاس من الامكانيات المتاحة للإنسان البورجوازي لتصعيد

غرائزه واستخدامها في أغراض خلاقة . وحتّى على فرض أن الانسان الاشتراكي لن يتحرر من « الخطيئة والألم » إلى الحد الذي كان يحلم بـه شلي ، فليس من المستبعد أن ينتصب « حراً ، طليقـاً من كل قيد، متعادلاً ، بلا طبقة ولا قبيلة ولا أمـة ، متحرراً من التعبد والخوف » . بل إن العضو المتوسط في المجتمع الاشتراكي قد يرتفع ، كما يتوقع تروتسكي ، إلى سوية أرسطو أو غوته أو ماركس الذين يجسدون جزئياً على الأقل ، وإن كانوا غير متجردين من الغرائز الجنسية والدوافع العدوانية ، خير ما أنتجته الانسانية . وإننا لعلى ثقة من أن « ذرى جديدة ستبرز فيما وراء هذه المرتفعات » . ونحن لا نرى في الانسان الاشتراكي النتاج الأخير ، النتاج الاكمل للتطور البشري ، ولا نهاية التاريخ ، وإنمـا نرى فيه ، بمعنى من المعاني ، بدايته . وصحيح أن الانسان الاشتراكي قد يلبث على حساسيته بالشدة والضيق اللذين تفرضهما الحضارة على الجانب الحيواني من الانسان . ولكن من الجائز أن يجد في أعتى التناقضات والتوترات حافزاً له على التقدم وعلى الارتفاع إلى أعالٍ لا نملك نحن حتّى أن نتخيلها .

— ٤ —

إن هذه الأفكار قد تكون أو يفترض فيها أن تكون تحصيل حاصل بالنسبه إلى كل ماركسي . ولا ريب في أنـه ينبغي علي أن أعتذر إذ أعرضها أمـام مؤتمر من مفكرين اشتراكيين . ولسوء الحظ أن بعض الحقائق الأولية بحاجة ، في الوضع الراهن للحركة العاملة وللفكر الاشتراكي ، إلى أن يعاد توكيدها ، لأنها غالباً ما تُنسى أو تُحرف لأغراض سياسية مشبوهة . لقد قيل على سبيل المثال إن موضوع بحثي كان يجب أن يكون الانسان الاشتراكي كما يحيا الآن في الاتحـاد السوفياتي أو الصين . ولقد كان علي ، حتّى أتبنى وجهة النظر هذه ، أن أفترض أن هذين القطرين

قد توصلا إلى خلق الاشتراكية وبنائها بصورة كاملة أو شبه كاملة . والحال أنني لا أقبل بهذه الفرضية ولا أعتقد أن العضو النموذجي أو حتى الطليعي في المجتمع السوفياتي والصيني الراهن يمكن أن يعد هو الانسان الاشتراكي .

وبديهي أننا في أحاديثنا نشير إلى الاتحاد السوفياتي والصين والدول الحليفة باسم « البلدان الاشتراكية » ، ومن حقنا أن نفعل ذلك إذا كان قصدنا إبراز تعارض نظامها مع نظام الدول الرأسمالية أو التنويه بطابعها ما بعد الرأسمالي أو التوكيد على الصفة الاشتراكية لمنابت حكوماتها واتجاهاتها . ولكن ما نسعى اليه ههنا هو أن نصف وصفاً نظرياً صحيحاً بنية مجتمعها وطبيعة العلاقات الانسانية ضمن نطاق هذه البنية . ولعلكم تذكرون أن ستالين أعلن منذ اكثر من ثلاثين عاماً أن الاتحاد السوفياتي أنجز بناء الاشتراكية . وبالرغم من تصفية الستالينية ، وبالرغم من هدم العديد من الأساطير الستالينية ، ما تزال هذه عقيدة أساسية في الايديولوجيا السوفياتية الرسمية . أضف إلى هذا أن خلفاء ستالين يزعمون أن الاتحاد السوفياتي يمر الآن بالمرحلة الانتقالية بين الاشتراكية والشيوعية ، وأنه صائر إلى الانتقال إلى المرحلة العليا من المجتمع اللاطبقي ، المرحلة التي لا بد أن تتوج دورة التحول الاشتراكي التي شرعت بها ثورة اوكتوبر . وتذهب جمهورية الصين الشعبية إلى مثل هذا الافتراض بلسان الناطقين باسمها . والحال أن هذه العقيدة الستالينية عن نجاح الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي قد عدلت وأثرت إلى حد كبير على الصورة الشعبية للانسان الاشتراكي، بل حتى على أفكار نفر من المفكرين . بيد أن هناك حقيقة بديهية تفرض نفسها أو ينبغي أن تفرض نفسها : إن الممثل النموذجي للمجتمع السوفياتي ، سواء أعاش في عهد ستالين أم في عهد خلفائه ، يتناقض تناقضاً صارخاً مع التصور الماركسي عن الانسان الاشتراكي إلى درجة لا يعود معها مناص من تجريده من هذا اللقب أو من التخلي عن ذلك التصور كما فعلت ذلك منظومة الفكر الستاليني ضمنياً . وليست المسألة

مسألة خصومة شكلية ، وإنما المسألة مسألة مشكلة بالغة الأهمية نظرياً وعملياً بالنسبة الينا . فلئن كان هدفنا الانسان الاشتراكي فإن تصورنا عنه له أهميته الحاسمة بالنسبة إلى تفكيرنا النظري وبالنسبة إلى مناخ الحركة العاملة الأخلاقي والسياسي . فتبعاً لنوعية هذا الانسان وصفاته سنكون قادرين أو عاجزين عن أن نجعل منه مصدر إلهام للطبقات العاملة .

إن الانسان الاشتراكي ، في نظر ماركس وفي نظر جميع تلاميذه حتى ستالين ، لا بد أن يكون ، حتى في المرحلة الدنيا من الشيوعية ، منتجاً حراً يعمل بالتشارك في إطار اقتصاد مخطط عقلانياً . والمفروض فيه ألا يعود بائعاً أو شارياً يقايض منتجاته في الأسواق ، وإنما أن ينتج سلعاً للمجتمع في جملته وأن يأخذ حاجاته من الاستهلاك الشخصي من الصندوق المشترك لهذا المجتمع . إن الانسان الاشتراكي يحيا بالتعريف في مجتمع بلا طبقات وبلا دولة ، متحرر من كل اضطهاد اجتماعي أو سياسي ، حتى وان كان عليه أن يتحمل في البداية ، على نحو لا ينِي يخف ويهون، عبء اللامساواة الاجتماعية التي أورثها . والمجتمع الذي يحيا فيه لا بد أن يكون قد توصل إلى مستوى من التطور والغنى والتربية والحضارة مرتفع بما فيه الكفاية للاستغناء عن الحاجة أو الضرورة الموضوعية إلى السماح بنمو اللامساواة أو الاضطهاد من جديد في أي صورة من الصور . ولقد كان جميع الماركسيين قبل ستالين يعدون ذلك من بديهيات الأمور . وهذا المثل الأعلى هو الذي ألهم أجيالاً وأجيالاً من الاشتراكيين . ولولاه ما كانت الاشتراكية لتصبح قوة العصر الدينامية . ولقد أقامت الماركسية البرهان على الطابع الواقعي لهذا المثل الأعلى ببيانها أن كل تطور المجتمع الحديث بتكنولوجيته وصناعته وبالتشريك المتعاظم لسيرورة إنتاجه ينزع نحو تلك النتيجة . أما الانسان الاشتراكي كما صوره ستالين وخلفاؤه للعالم فهو تقليد مزرٍ للصورة الماركسية . وصحيح أن المواطن السوفياتي عاش في مجتمع تقبض فيه الدولة لا الرأسماليون على زمام وسائل الانتاج ،

ولكن هذا المجتمع كان وما يزال يشكو من فاقة مادية ، محسوسة بوجه خاص في مضمار السلع الاستهلاكية ، فاقة كان لا بد أن تفضي ، من عقد إلى عقد ، إلى معاودة ظهور اللا مساواة الاجتماعية وإلى استفحالها ، وكذلك إلى بروز هوة عميقة بين أقلية من أصحاب الامتيازات واكثرية تشكو من الحرمانات ، وإلى إعادة توكيد الدور العفوي لقوى السوق الاقتصادية ، وأخيراً إلى الانبعاث الشرس والنمو المخيف لوظائف الدولة الاضطهادية .

إن الانسان الاشتراكي الذي قدمه ستالين إلى العالم كان عاملاً أو فلاحاً جائعاً ، رث الثياب ، مهترىء النعل ، أو حتى حافياً ، يبيع أو يشتري قميصاً ، وقطعة أثاث ، وغرامات قليلة من اللحم ، وكسرة خبز ، في السوق السوداء ، ويعمل عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة في اليوم في مصنع يسود فيه انضباط الثكنات ، ويحكم عليه لجنحة أتاها فعلاً أو لفقت ضده بسنوات عدة من الأشغال الشاقة في معسكر اعتقال . وما كان هذا الانسان ليجرؤ على انتقاد مدير مصنعه ، وكم بالأحرى قائد حزبه . وما كان له حق في إبداء رأيه في المشكلات الكبرى التي يتعلق بها مصيره ومصير بلاده . وكان عليه أن يقترع على نحو ما يؤمر به ، وأن يصفق للزعيم بحماسة محمومة بحسب ما يتلقى من تعليمات ، وأن يدع ما يسمى بعبادة الشخصية يذله ويجرده من إنسانيته . وهذه هي الوقائع التي وصفها القادة السوفياتيون رسمياً والتي عكسها أدب هذه البلاد بغزارة . وعلى الرغم من أن هذه الشروط قد خفت حدتها كثيراً في الآونة الأخيرة ، فإن الفقر واللا مساواة وغياب الحرية الفكرية والسياسية والإرهاب البيروقراطي ما تزال سارية المفعول .

إذا كنت أعيد إلى الأذهان هذا كله ، فليس ذلك بهدف الجدال والحجاج . والحق أن العلة الرئيسية لهذا الوضع في تقديري ليست سوء نية

الحكام ، على الرغم من أنهم لم يفتقروا اليها يوماً ، وإنما هي الظروف الموضوعية ، ولا سيما ذلك الفقر الرهيب الذي ورثه الاتحـاد السوفياتي (والصين) من الماضي والذي كان ينبغي عليه أن يقهره ويتغلب عليه في شروط العزلة والحصار والحروب وسباق التسلح . وما كان هناك مجال للاعتقاد بـأن قطراً كهذا يقدر على بناء الاشتراكية في شروط كتلك . وهكذا وجد الاتحاد السوفياتي نفسه مكرهـاً على تكريس طاقاته جميعاً لـ « التراكم البدائي » ، أي لخلق المقدمات الاقتصادية الأولية والأساسية لبناء اشتراكية أصيلة في ظل نظام الملكية الجماعية . ومن هنا فإن المجتمع السوفياتي ما يزال إلى اليوم مجتمعاً انتقالياً ، يشق طريقاً له بين الرأسمالية والاشتراكية ، ويجمع بين سمات كلا النظامين ، ولم يتحرر حتى كامل التحرر من آثار ميراثه ما قبل الرأسمالي والبدائي إلى أبعد حد . وكذلك هي الحال بالنسبة إلى الصين وفيتنام وكوريا الشمالية والقسم الأعظم من أوروبـا الشرقية . ومسؤولية الامتحانات التي تمر بهـا هذه الأقطار تقع بباهظ وطأتها علينـا نحن الغربيين : فعجزنا عن إنضاج الاشتراكية في الغرب كان العلة الأخيرة لفشل تلك الأقطار . ولكن إذا كنا نريد أن نستأنف العمل وأن نتيح لجيل جديد من الاشتراكيين متابعـة النضال ، فـإن علينا بادىء ذي بدء أن نستأصل من عقليتنـا بالذات الأساطير والتأويلات الخاطئة التي تخلقت لدينا في العقود الأخيرة . إن علينـا مرة واحدة ونهائية أن نفصل الاشتراكية ، لا عن الاتحاد السوفياتي أو الصين وعن منجزاتهما التقدمية ، وإنمـا عن التقليد الستاليني وما بعد الستاليني لصورة الانسان الاشتراكي .

إنني لا أستطيع أن أصف هنا الدوافع ـ وهي تتصل باعتبارات العقيدة والحظوة ـ التي حملت ستالين على الإعلان بأن الاتحاد السوفياتي قد بنى الاشتراكية والتي تحفز خلفاءه على إشهار المزاعم نفسها . وما يحظى باهتمامي في إطار هذه المحاضرة هو مـا كان لهذه العقيدة أو لهذا التبجح من أثر

على الاشتراكية في بلدان الغرب . لقد كان هذا الأثر مفجعاً . فقد فتّ في عضد حركاتنا العاملة ومعنوياتها وزرع الالتباس في الفكر الاشتراكي . ولقد تتبعت طبقاتنا الكادحة بأسلوبها الخاص مجرى الأحداث في الاتحاد السوفياتي وخلصت منها باستنتاجات خاصة . وقد قالت بينها وبين نفسها بمختصر الكلام : « إذا كان هذا هو المثل الأعلى للانسان الاشتراكي فإننا لراغبون عنه » . ولقد صدر رد الفعل نفسه عن العديد من أعضاء فئتنا المثقفة الاشتراكية، فاختلط عليهم الأمر وضاعوا في متاهة الميتولوجيا والسكولائية الستالينية إلى درجة فقدوا معها اندفاعهم وقوتهم على الإقناع وتجردوا من أسلحتهم المعنوية ، فوقفوا عاجزين عن النضال ضد خيبة أمل الطبقات العاملة وفتورها .

لقد قيل عن اليسوعيين فيما غبر إنهم لم يألوا جهداً في إنزال السماء إلى الأرض بعد أن عجزوا عن رفع الأرض إلى السماء . وكذلك فإن ستالين والستالينيين ، العاجزين عن رفع روسيا البائسة المرهقة بالفقر إلى مستوى الاشتراكية ، قد هبطوا بالاشتراكية إلى مستوى البؤس الروسي . وقد يعترض علي معترض بأنه ما كان في وسعهم أن يصنعوا غير ما صنعوا . وحتى لو كان هذا صحيحاً ، فإن ثمة مهمة تفرض نفسها علينا : أن نعيد الاشتراكية إلى مستواها الحقيقي . وإنه لواجبنا نحن أن نفسر للطبقات الكادحة ولفئتنا المثقفة الأسباب التي حالت وكان لا بد أن تحول بين الاتحاد السوفياتي والصين وبين إنتاج الانسان الاشتراكي ، على الرغم من التقدم المرموق الذي يقلدهما الحق في أن نمحضهما تقديرنا وتضامننا . إن علينا أن نعيد إلى صورة الانسان الاشتراكي كامل عظمتها الروحية . ولنبدأ أول ما نبدأ بإحيائها في أنفسنا . ولا نألون جهداً بعد ذلك ، وقد عززنا قناعاتنا وتسلحنا من جديد سياسياً ، في بعث الوعي والفكرة الاشتراكيين لدى الطبقة العاملة .

جذور البيروقراطية

نشهد[1] اليوم تطوراً جلياً نحو نمو هيمنة البيروقراطية على المجتمعات المعاصرة أياً تكن بناها الاجتماعية والسياسية . ويؤكد لنا منظرون غربيون أن البيروقراطية تتطور بسرعة فائقة بتنا معها نحيا الآن في ظل « نظام المدراء » الذي حل خلسة ، من غير أن يثير انتباه أحد ، محل نظام الرأسمالية . ونحن ندرك من جهة أخرى مدى نمو البيروقراطية الهائل المعجز في المجتمعات ما بعد الرأسمالية ضمن نطاق الكتلة السوفياتية ، ولا سيما في الاتحاد السوفياتي . وهذا ما يبرر محاولتنا إنشاء نظرية عن البيروقراطية تكون أكثر إقناعاً وأكثر قابلية للفهم من الكليشة الدارجة الآن عن « مجتمع المدراء » ، تلك الكليشة التي تكاد تكون عديمة الدلالة . بيد أن مشكلة البيروقراطية ليست بالمشكلة التي يسهل إدراكها واستيعابها . وهي في الأساس قديمة قدم الحضارة ، وان تكن الحدة التي تجلت بها للبشر قد تفاوتت عظيم التفاوت على مر العصور .

وإذا كنت قد أخذت على عاتقي الكلام عن جذور البيروقراطية ، فهذا لأنه من الضروري في رأيي أن نحفر وننكش في الأعماق حتى نعثر

---

١ دراسة نشرت في مجلة « الإنسان والمجتمع » في الفصل الأخير من عام ١٩٦٩ .

على الأسباب الباطنة ، الأسباب البدئية للبيروقراطية ، وحتى نتبين كيف ولماذا أمكن لنكبة الحضارة هذه أن تنمو وتترعرع بنسب مرعبة . ففي مشكلة البيروقراطية ، الموازية بقدر أو آخر لمشكلة الدولة ، تتلاقى غالبية تلك العلاقات بين الانسان والمجتمع ، وبين الانسان والانسان ، التي جرت العادة اليوم على وصفها بأنها « الاستلاب » .

إن المصطلح يشير في حد ذاته إلى هيمنة « المكتب[1] » ، هيمنة الجهاز ، هيمنة شيء معادٍ ولا شخصي يتحكم في حياة الكائنات البشرية ويحكمها . وفي اللغة الدارجة يشار أيضاً إلى الأشخاص الذين يتألف منهم ذلك الجهاز بأنهم بيروقراطيون لاإنسانيون . فالكائنات التي تتولى تسيير شؤون الدولة تبدو لنا فاقدة إنسانيتها ، كأنها محض عجلات في آلة . وبعبارة أخرى ، نحن نواجه هنا ، على أشد نحو وأحدٍ شكل ، مشكلة تشيؤ العلاقات بين الكائنات البشرية ، مشكلة ظهور الحياة في الآليات والأشياء . وهذا بالطبع يثير للحال المسألة الكبرى ، مسألة الصنمية : فالانسان يبدو ، في اقتصاد السوق ، وكأنه تحت رحمة الأشياء والبضائع وحتى التقلبات النقدية . والعلاقات الانسانية والاجتماعية تتشيأ ، بينما تبدو الأشياء وكأنها تتقلد قوة العناصر الحية وسلطانها . وبديهي أن التشابه الملحوظ بين الاستلاب البشري إزاء الدولة وممثل الدولة — البيروقراطية — من جهة أولى وبين الاستلاب البشري إزاء منتجات العمل البشري من الجهة الثانية وثيق للغاية ، وأن هناك صلة متبادلة وقوية بالتالي بين نمطي الاستلاب الاثنين .

إنه ليشق علينا إلى أقصى حد أن ندرك خلف الظواهر البسيطة ، المركز الحقيقي للعلاقات بين المجتمع والدولة ، أو بين الجهاز الذي يسيِّر شؤون حياة مجتمع من المجتمعات وبين المجتمع نفسه . والصعوبة تكمن

---

١ البيروقراطية ، مشتقة في اللاتينية من المكتب « بيرو » (Bureau) . « المعرب »

في ما يلي : إن الظاهر ليس ظاهراً محضاً ، بل ينطوي أيضاً على جانب من واقع . فصنمية الدولة والبضاعة « منقوشة » ، وإذا جاز التعبير ، في طريقة عمل الدولة والسوق بالذات . والمجتمع غريب عن الدولة وغير قابل الانفصام عنها في آن واحد . والدولة عبء يرهق كاهل المجتمع ، ولكنها أيضاً الملاك الحارس للمجتمع الذي لا يستطيع بدونه حياة .

وهنا أيضاً تعكس لغتنا الدارجة على نحو واضح وأخاذ بعض المظاهر المستترة والبالغة التعقيد من العلاقات بين الدولة والمجتمع . فنحن عندما نقول « هم » ، قاصدين بذلك البيروقراطيين الذين يسيّرون أمورنا ، « هم » أي الذين يفرضون الضرائب ، « هم » أي الذين يشعلون الحروب ويأتون شتى أنواع الأفعال ويؤثرون على حياتنا جميعاً ، إنما نعبر عن شعور بالعجز تجاه الدولة وبالانفصال عنها . ولكننا نعي أيضاً أنه لولا الدولة لما قامت حياة اجتماعية ولما وجد تطور اجتماعي وتاريخ . إن صعوبة تمييز الظاهر من الواقع تتأتى من أن البيروقراطية تؤدي بعض الوظائف التي هي بلا مراء ضرورية لا غنى عنها لحياة المجتمع، بيد أنها تضطلع أيضاً بوظائف يمكن عدّها نظرياً غير مجدية ، ولا طائل تحتها .

إن المظاهر المتناقضة للبيروقراطية قد أفضت بلا مراء إلى نظرتين إلى المشكلة متناقضتين ، متعارضتين كل التعارض ، على الصعيد الفلسفي والتاريخي والسوسيولوجي . فنحن نواجه عادة ، إذا ضربنا صفحاً عن العديد من اللوينات المتوسطة ، طرحين أساسيين اثنين لمشكلة البيروقراطية والدولة : الطرح البيروقراطي والطرح الفوضوي . وفي وسعنا أن نتذكر أن الزوجين ويب[1] كان يحلو لهما أن يميزا بين الناس الذين يفهمون المشكلات السياسية من وجهة نظر بيروقراطية وبين اولئك الذين يفهمونها من وجهة نظر فوضوية . وهذه بالطبع رؤية مبسطة، بيد أن هذا التمييز له ما يبرره

---

[1] سيدني وبياتريس ويب : من موسسي الإشتراكية الفابية . « المعرب »

مع ذلك . ولقد كـــان لوجهة النظر البيروقراطية فلاسفتها الكبار ، وأنبياؤها العظام ، وسوسيولوجيوها الذين طبقت شهرتهم الآفاق . وأرجح الظن أن هيغل كان أعظم منافح فلسفي عن الدولة ، كما كان ماكس ويبر أعظم منافح سوسيولوجي عنها .

ولا مرية في أن بروسيا كانت جنة البيروقراطية . وعلى هذا فليس من قبيل الصدفـــة إذا كان أشد المدافعين عن الدولة والبيروقراطية حماسة قد رأوا النور في بروسيا . والواقع أن هيغل وويبر ، كلاً منهما بأسلوبه وعلى مستوى متمايز من الفكر النظري ، هما مـــا ورائيا البيروقراطية البروسية اللذان أخذا على عاتقهما تعميم التجربة البيروقراطية البروسية وإسقاط هذه التجربة على خلفية التاريخ العالمي . وعليه فـــإن من الضروري أن يبقى المذهب الأساسي لهذه المدرسة الفكريـــة ماثلاً أمام أذهاننا . فالدولـــة والبيروقراطية هما في نظر هيغل انعكاس وواقع الفكرة الاخلاقية التي هي بدورها انعكاس وواقع العقل الأسمى ، أي تجلي الله في التاريخ . أمـــا ماكس ويبر ، الذي هو إلى حد ما سليل هيغل وحفيده (ولعله حفيد منحط بعض الشيء) ، فيعبر عن الفكرة ذاتهـــا في الفهرس البروسي النموذجي لفضائل البيروقراطية :

« إن الدقة والسرعة والوضوح ومعرفـــة السجلات والمثابرة والتكتم والوحدة والائتمار الصـــارم وتقليص الاحتكاكات ونفقات العدة والجهاز – إن هذا كله ضروري كل الضرورة لإدارة بيروقراطية حازمة، ولا سيما في شكلها الحكومي الأحادي ... ويتحكم في البيروقراطية ، أيضاً مبـــدأ « لا ضغينة ولا محاباة[1] » .

لا ريب في أن هذه الكلمات ما كان من الممكن أن تكتب في غـير

---

[1] ماكس ويبر : « مقالات في علم الاجتماع » – نيويورك ١٩٥٨ – ص ٢١٤ – ٢١٥ .

بروسيا . ومن المؤكد أن فهرس الفضائل هــذا قابل بسهولة لأن يبطن مفعولَه فهرسٌ موازٍ بالرذائل . ولكن ما يبعث على الدهشة في نظري وما يثير القلق هو أنَّ ماكس ويبر قد أصبح مؤخراً الدليل الفكري لشطر واسع للغاية من علم الاجتماع الغربي (إن أعظم مأخــذ للأستاذ ريمون آرون عليّ ، في حجاج له ضدي ، هو أنني اكتب وأتكلم « كما لو أن ماكس ويبر لم يوجد قط ») .

إنني على أتم استعداد للاعتراف بأن ماكس ويبر هــو الوحيد الذي درس البيروقراطية بذلك القدر من الدقة والعمق . ولو وضع في الحقيقة قائمة بمختلف خصائص تطورها ، ولكنه لم يفلح في استيعاب دلالتهــا الشاملة . ونحن جميعاً نعرف السمات المميزة لتلك المدرسة الألمانية القديمة، المسماة بالتاريخية ، التي ما كانت لتحجم عن تكريس عدد هائل من المجلدات لهذه أو تلك من الممارسات البيروقراطية ، ولكن من دون أن تكون قادرة على استيعاب جوهر تطورها .

وفي الطرف المقابل تواجهنا النظرة الفوضوية الى البيروقراطية والدولة بنوابغ ممثليها باكونين وكروبوتكين ، وبمختلف الميول والتلوينات الليبرالية والفوضوية – الليبرالية المشتقة منها . والحال أن هذه المدرسة ، إذا مــا تمعنا في أمرها ، تمثل التمرد الفكري لفرنسا البورجوازية القديمة وروسيا الموجيك القديمة على بيروقراطيتها . وهذه المدرسة الفكرية تأخذ على عاتقها بالطبع وضع قائمة بالرذائل البيروقراطية . فالدولة والبيروقراطية تبدوان وكأنهما مغتصبتا التاريخ . تبدوان وكأنهما التجسد الحقيقي لكل شر المجتمع البشري ، ذلك الشر الذي لا يمكن استئصاله إلا بإلغاء الدولة وتدمير كل بيروقراطية . وعندما سعى كروبوتكين إلى إبراز مدى خطورة تدهــور الثورة الفرنسية الأخلاقي ، كان معوله في ذلك الإشارة إلى الكيفية التي

تحول بها روبسبير ودانتون واليعقوبيون والهيبرتيون[1] من ثوريين الى رجال دولة . فبيروقراطية الدولة هي التي شوهت الثورة في نظره ومسختها .

والحق أن كلا هذين الطرحين ينطوي على شطر من الحقيقة لأن الدولة والبيروقراطية كانت عملياً جيكيل وهايد الحضـــارة[2] . فهما تعبران عن فضائل ورذائل الحضارة وتطورها التاريخي على نحو يفوق دقة وحدة تعبير أي مؤسسة أخرى . ففي الدولة والبيروقراطية تتكشف وتتركز تلك الثنائية المميزة لحضارتنا والمتمثلة في أن كل تقدم يقترن بتقهقر ، وفي أن كل قفزة يقفزها الانسان إلى الأمام يدفع ثمنها نكسة إلى الوراء ، وفي أن كل تجلٍ للطاقة الانسانية الخلاقة يقابله شلل طاقة خلاقة أخرى أو فناؤها . ولقد كانت هذه الثنائية ، على ما أعتقد ، سمة بارزة في تطور البيروقراطية في ظل مختلف الأنظمة الاجتماعية والسياسية .

إن جذور البيروقراطية في أرجح الظن قديمة قدم حضارتنا أو ربما أقدم منها أيضاً ، لأن إسفينها قد دق في الحدود الفاصلة بين القبيلة الشيوعية البدائية وبين المجتمع المتمدين . فإلى تلك الحقبة التاريخية النائية يعود ظهور السلف الأول المنظور لآلات عصرنا البيروقراطية المعقدة المتضخمة . فقد رأت هذه الآلات النور في المرحلة التي انقسمت فيها المشاعة البدائية إلى قائدين ومقودين ، ومنظِّمين ومنظَّمين ، وحاكمين ومحكومين . وفي اللحظة التي أدركت فيها القبيلة أو العشيرة أن تقسيم العمل يزيد في سلطان الانسان على الطبيعة وينمي رسائله لتلبية حاجاته ، تفتقت البراعم الأولى للبيروقرطية لتكون أيضاً العلائم الأولى للمجتمع الطبقي

إن تقسيم العمل يولد مع تطور الانتاج الذي ينجم عنه تسلسل هرمي

---

١ أنصار الثوري الفرنسي هيبرت الذين أعدمهم وإياه روبسبير . « المعرب »

١ أي وجها الحضارة الصالح والطالح . « المعرب »

أول للوظائف . وفي تلك المرحلة تبرز إلى حيز الوجود للمرة الأولى في الهوة التي ستعمقها الحضارة بين النشاط الفكري والعمل اليدوي . ولعل المسؤول عن النمط البدائي الأولى لتربية الماشية كان سلف المتنفذ الصيني أو الكاهن المصري أو البيروقراطي الرأسمالي المعاصر . ولقد أدى الانقسام البدائي بين الدماغ والعضلات إلى أشكال متعددة من الانقسامات الفرعية بين الزراعة والصيد ، أو بين التجارة والصناعة اليدوية والملاحة . ولقد حذا انقسام المجتمع إلى طبقات حذو المسيرة الأساسية للتطور التاريخي . ففي المجتمعات التي ادركت عتبة الحضارة وفي المجتمعات المعاصرة على حد سواء لم يكن الانقسام الأساسي بين الإداري والشغيل بقدر ما كان المالك والإنسان المحروم من الملكية . ولقد امتص هذا الانقسام ووسم بميسمة الانقسام السابق . فلقد كانت الإدارة ، في غالب العصور ، تأتمر بأمر ملاك الخيرات والطبقات المالكة .

وفي وسعنا أن نضع جدولاً مجملاً بمختلف أنماط العلاقات بين البيروقراطية والطبقات الاجتماعية الرئيسية . ومن الممكن أن نسمي النمط الأول بالمصري – الصيني . ويأتي بعده النمط الروماني – البيزنطي ومشتقه : التسلسل الكهنوتي في الكنيسة الكاثوليكية . وهناك بعد ذلك نمط البيروقراطية الرأسمالية في أوروبا الغربية . أما النمط الرابع فهو النمط ما بعد الرأسمالي. وفي الأنماط الثلاثة الأولى ، ولا سيما في المجتمعات الشرقية والإقطاعية ، يكون الإداري تابعاً مطلق التبعية للمالك ، إلى حد أن البيروقراطيين كانوا يُجنَّدون عادة من بين الأرقاء في أثينا أو روما أو مصر . وفي أثينا تمت تعبئة قوة الشرطة الأولى من بين العبيد لأنه ما كان يليق بآدمي حر أن يحرم آدمياً حراً آخر من حريته . ما أصحه وأسلمه من رد فعل ! فلقد كان ذلك ، وإن على نحو لا يخلو من سذاجة ، تعبيراً صريحاً عن تبعية البيروقراطي للمالك : فالعبد هو البيروقراطي لأن البيروقراطية أمَة الطبقة المالكة .

وفي ظل النظـــام الإقطاعي تتعرض البيروقراطية إلى أفول نسبي لأن الإداريين يتحدرون مباشرة من صلب الطبقة الإقطاعية أو أن هذه الأخيرة تمتصهم . فالتسلسل الاجتماعي « منقوش » ، إن جاز التعبير ، في النظام الاقطاعي ، وتصريف الشؤون العامة وفرض عصا الطاعة عـــلى الجماهير المحرومة من الملكية ليسا بحاجة ماسة إلى جهاز تسلسلي خاص .

وفي زمن متأخر ومتأخر جداً ، فازت البيروقراطية بوضعية أدعى إلى الاحترام ، وصار معتمدوهـا أجراء « أحراراً » لدى الملاك . وساعتئذ زعمت أن من حقها الارتفاع فوق الطبقات المالكة وحتى فوق الطبقات قاطبة . ولقد استطاعت البيروقراطية فعلاً ، وإلى حد ما ، أن تفوز بهذا الوضع الممتاز .

ويظهر الانقسام الكبير بين جهاز الدولة وبين سائر الطبقات بكل وضوح في الرأسمالية ، لحظة اضمحلال التسلسل الأولي الصارم وعلاقات التبعية بين البشر وغيرها من الخصائص الخاصة بالمجتمع الاقطاعي . « البشر جميعاً متساوون » . إن هذا الوهم البورجوازي عن المساواة أمام القانون قد جعل من جهاز سلطة ومن آلة دولة صارمة التسلسل ضرورة لا غنى عنها .

إن على البيروقراطية بوصفها تسلسلاً سياسياً أن تبذل قصارى جهدها ، شأنها في ذلك شأن تسلسل السلطة الاقتصادية على السوق ، كيلا يكتشف المجتمع اللامساواة الفعلية تحت ظاهر المساواة . ومن هنا كان تطور المراتب والمصالح والمستويات الادارية القمينة بتأبيد وهم المساواة وتوطيد أركان اللامساواة في آن واحد .

فما سمات البيروقراطية عند هذه المرحلة المحددة ؟ أولاً ، البنية التسلسلية . وثانياً ، كون جهاز السلطة نظاماً مغلقاً يكفي نفسه بنفسه ظاهرياً . أي أن اتساع حياتنا الاجتماعية وتنوعها وتعقيدها تزيد أكثر فأكثر في صعوبة تسيير المجتمع ، فلا يقدر غير خبراء مختصين ضليعين بأسرار الادارة على

أداء وظائف التنظيم . كلا ! إننا في الحق غير بعيدين غاية البعد عن العهد الذي كان فيه الكاهن المصري يحتفظ لنفسه بأسرار سلطانه ويوهم المجتمع أنه هو وحده القادر ، بفضل إلهامه الإلهي ، على تصريف شؤون البشر. والبيروقراطية ، بعجرفتها وبرطانتها المضلّلة التي تكمن فيها إلى حد كبير ماهية حظوتها الاجتماعية ، ليست نائية كل النأي ، بعد كل شيء ، عن الكهنوت المصري وأسراره السحرية . أوليس هذا الأخير ، بالمناسبة ، قريباً غاية القرب من البيروقراطية الستالينية وهوسها في التكتم والاخفاء ؟

لقد استطاع إنجلز ، متقدماً بعشرات السنوات على ماكس ويبر الذي راعته وسحرت لبه حكمة البيرواطية السرية الباطنية ، أن ينظر إلى الأمور نظرة أكثر واقعية وموضوعية . فقد قال :

« ليست الدولة في حال من الأحوال سلطة مفروضة من الخارج على المجتمع ... إنما هي بالأحرى نتاج المجتمع في مرحلة محددة من تطوره، إقرار بأن هذا المجتمع يتعثر في تناقض مع نفسه لا حل له ، على أثر انقسامه إلى تعارضات لا تقبل التوفيق فيما بينها ... ولكن حتى لا تدمر التناحرات والطبقات ذات المصالح الاقتصادية المتعارضة بعضها بعضاً ، وتدمر معها المجتمع في صراع عقيم ، فقد بات من الضروري أن تقوم سلطة تهيمن ظاهرياً على المجتمع ، سلطة ينبغي عليها أن تسيطر على الصراع وأن تبقيه في حدود « النظام » . هذه السلطة ، المنبثقة عن المجتمع والمتعالية عليه والمتحولة أكثر فأكثر إلى سلطة أجنبية عنه ، هي الدولة » .

ونحن سنضيف بأن « دولة الرفاه » عينها ليست بعد كل شيء إلا السلطة التي تنبثق عن المجتمع وتصبح أجنبية عنه أكثر فأكثر . يتابع إنجلز قائلاً :

« إن الموظفين ، القابضين على زمام القوة العامة والسلطة والحق في الضرائب ، يظهرون الآن بمظهر الناطق بلسان المجتمع والمتعالي عليه » .

ويصف سيرورة ولادة الدولة منذ عهد المشاعة البدائية فيقول :

« إنهم (يقصد الموظفين) لا يكتفون بالاحترام المكنون عن طواعية لمؤسسات المشاعة القبلية ... فإحاطتهم بضروب التكريم، هم القابضين على زمام سلطة أجنبية عن المجتمع ، إنما ينبغي أن تأتي عن طريق قوانين خاصة تضمن لهم الاستفادة من حظوة ومن حصانة خاصتين[1] » .

بيد أنه لا يجدينا نفعاً أن نصب جام غضبنا على البيروقراطية : فما قوتها إلا انعكاس لضعف المجتمع القائم على أساس الانقسام بين الغالبية الساحقة من الشغيلة اليدويين وبين الأقلية الضئيلة المتخصصة في العمل الفكري. لقد ترعرع الاملاق الفكري ، الذي لم تتحرر منه أي أمة إلى اليوم ، فوق جذور البيروقراطية . ولقد تكاثرت طفيليات أخرى حول هذه الجذور ؛ ولكن الجذور نفسها استمرت في الرأسمالية وفي رأسمالية الوفرة، ولبثت على قيد الحياة في المجتمع ما بعد الرأسمالي .

– ١ –

أود أن أبدأ هذه الفقرة بتحديد أدق لموضوعنا . فتاريخ البيروقراطية العام لا يعنيني ، وأنا لا أرغب في وصف أشكال وضروب مختلف أنماط البيروقراطية . إن موضوعي على وجه الدقة هو : ما العوامل المسؤولة عن سلطة البيروقراطية السياسية ؟ ما العوامل التي تيسّر هيمنة البيروقراطية السياسية على المجتمع ؟ لماذا لم تفلح أي ثورة حتى الآن في تحطيم قوة البيروقراطية وتدميرها ؟ ففي أعقاب كل ثورة ، أياً يكن طابعها وأياً يكن النظام القديم الذي سبقها ، يتوالد من الرماد من جديد ، كالعنقاء، جهاز دولة .

---

١ انجلز : « أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة » .

لقد أشرت في مقدمتي، بشيء من التفاصح، إلى العامل الذي ييسّر أبد الدهر أمر البيروقراطية، وأعني به الانقسام بين النشاط الفكري والعمل اليدوي، الهوة التي تتعمق بين المنظِّمين والمنظَّمين. هذا التعارض هو في الواقع مقدمة المجتمع الطبقي. ولكن هذه المقدمة تبدو في سياق التطور الاجتماعي اللاحق غارقة في انقسام أدهى شأناً بين مالك الرقيق والرقيق، أو بين مالك الأقنان والقن، أو بين المالك والانسان المحروم من الملكية.

إن النفوذ الحقيقي المكثف للبيروقراطية، بوصفها فئة اجتماعية متمايزة ومنفصلة، لا يظهر إلا مع الرأسمالية، وهذا لأسباب شتى، اقتصادية وسياسية. إن اقتصاد السوق، والاقتصاد النقدي، والاتساع المتعاظم لتقسيم العمل، التي كانت الرأسمالية ذاتها نتاجاً لها، هي التي شجعت انتشار البيروقراطية الحديثة. فالبيروقراطي ما كان بيروقراطياً حقيقياً ما دام خادم الدولة أكاراً عاماً أو سيد إقطاعة أو معاوناً لسيد الاقطاعة.

لقد كان جابي الضرائب في القرنين السادس عشر والسابع عشر، أو حتى في القرن الثامن عشر، أشبه ما يكون بمقاول خاص أو بخادم الإقطاعة أو بواحد من أفراد بطانته. وما أمكن للبيروقراطية بوصفها فئة متمايزة أن تولد إلا بفضل توسع الاقتصاد النقدي وعمومه عندما صار كل مستخدم يتقاضى أجره في شكل مال.

ولقد كان اضمحلال الخصائص الإقطاعية وولادة السوق على نطاق قومي الحافز الأول لنمو البيروقراطية.

إن ظهور بيروقراطية قومية ما كان ممكناً إلا على أساس سوق قومية. وهذه العلل الاقتصادية العامة لنمو البيروقراطية لا تفسر في حد ذاتها إلا الكيفية التي تصبح معها البيروقراطية ممكنة في العصر الحديث، بيد أنها لا تفسر سبب نموها وسبب الأهمية السياسية التي اكتسبتها في ظروف تاريخية محددة. وإذا كنا نريد جواباً لهذه الأسئلة، فعلينا هذه المرة أن نبحث

عنه في البنى الاجتماعية – السياسية ، لا في التحولات الاقتصاديـــة . فما يثير الدهشة على سبيل المثال أن انكلترا ، موطن الرأسمالية الكلاسيكية ، كانت أقل الأقطار الرأسمالية بيروقراطية ، بينما كانت ألمانيا أكثرهـــا بيروقراطية على الرغم من أنها كانت حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر قطراً رأسمالياً متخلفاً . أما فرنسا التي كانت تحتل وضعاً وسطاً فقد كان سلطان بيروقراطيتها على الحياة السياسية متوسطاً .

ولو شئنا أن نبحث عن قواعد عامة لصعود النفوذ البيروقراطي وأفوله في المجتمع الرأسمالي ، لوجدنا أن سلطان البيروقراطية السياسي في ظل النظام الرأسمالي كان على الدوام متناسباً عكسياً مع نضج البنى التكوينية لكل مجتمع بورجوازي وصلابتها وقدرتها على تقرير مصيرها بنفسها . وبالمقابل ، عندما تنتهي الصراعات الطبقية في المجتمعات البورجوازية الأكثر تطوراً إلى طريق مسدود ، وعندما تتناوم الطبقات المتصارعـــة وتخلد إلى السكون مرهقة بالمعارك الاجتماعية والسياسية المنهكة ، نجد القيادة السياسية تنتقل انتقالاً آلياً تقريباً إلى يدي البيروقراطية . وفي ظروف كهذه تتوطد البيروقراطية من تلقاء ذاتها ، لا بوصفها جهازاً يتولى تسيير دفة الدولة فحسب ، بل أيضاً بوصفها سلطة تفرض على المجتمع اختياراته السياسية . ولا ريب في أن المهد الحقيقي للبيروقراطية الحديثة كـــان الحكم الملكي المطلق ما قبل البورجوازي متمثلاً في سلالة تيودور في انكلترا أو البوربون في فرنسا أو الهوهنزولرن [1] في بروسيا ، ذلك الحكم الملكي الذي كان يقيم توازناً غير مستقر بين إقطاع آفل ورأسمالية وليدة . فقد كان الاقطاع قد أصابه من إنهاك القوى ما يحول بينه وبين الحفاظ على هيمنته ، وكانت الرأسمالية

---

[1] تيودور : أسرة ملكية حكمت انكلترا بين ١٤٨٥ و ١٦٠٣ .والبوربون : اسم أسرة ملوك فرنسا المتحدرين من لويس التاسع . وهوهنزولرن : سلالة حكمت المانيا بين ١٧٠١ – ١٩١٨ .
« المعرب »

ما تزال أضعف من أن تفرض سيطرتها . وهذا الركود في صراع الطبقات بين الإقطاع والرأسمالية أفسح المجال أمام الحكم الملكي المطلق ليقف موقف الحكم بين المعسكرين المتنافسين .

وكلما كان التعارض بين المصالح الإقطاعية والبورجوازية أقوى شأناً ، وكلما كان الشلل الناجم عن تقيد الطرفين الضمني بالوضع القائم أصلب عوداً ، تمتعت بيروقراطية الحكم الملكي المطلق بالمزيد من الحرية لأداء دور الحَكَم .

ولنلاحظ بالمناسبة أن انكلترا (وكذلك الولايات المتحدة) كانت أقل الأقطار الرأسمالية بيروقراطية على وجه التحديد لأن هذا الصراع بين الإقطاع والرأسمالية قد وجد حله مبكراً في الاندماج التدريجي بين المصالح الاقطاعية والرأسمالية . فقد اضطلع الأعيان الاقطاعيون - البورجوازيون وكبريات أسر الارستقراطية الانكليزية ببعض الوظائف التي كانت تتقلدها البيروقراطية في البر الأوروبي . ولقد كانت العناصر الإقطاعية المتبرجزة تتولى بمعنى من المعاني تصريف شؤون الدولة ، من دون أن تصبح مع ذلك فئة اجتماعية متمايزة منفصلة . ولقد تفادت الولايات المتحدة هي أيضاً ، عبر تاريخها ، الصدام بين المصالح الإقطاعية والرأسمالية ، ذلك الصدام الذي كان في كل مكان حافزاً على نمو البيروقراطية .

وتمثل روسيا حالة خاصة ومغايرة : فقد كانت القوة الهائلة التي تتمتع بها الدولة والبيروقراطية نتيجة تخلف كلتا الفئتين الاجتماعيتين : فلا العنصر الإقطاعي ولا البورجوازية أدركا قط ما فيه الكفاية من القوة ليقبضا بيدهما على زمام الدولة . بل إن الدولة هي التي خلقت ، وكأنها الرب فاطر هذا الكون ، الطبقات الاجتماعية ، مشجعة تارة تكونها وتوسعها ، ومعرقلة طوراً تطورها ومعيقة له . هكذا أصبحت البيروقراطية جهازاً مهيمناً على الطبقات الاجتماعية كافة لا محض حَكَم بينها .

ولو كان علي أن أضع عنواناً فرعياً للملاحظات التي ستلي ، لكان على الأرجح عنواناً بالغ العمومية : البيروقراطية والثورة ، أو شيئاً من هـذا القبيل . وخليق بنا ههنا أن نزيل نوعاً من سوء التفاهم ، حتى لو كنت بعملي هذا سأصطدم بالعديد من المدارس التاريخية القائمة . ولما كان الأمر على كل الأحوال محتماً لا سبيل إلى تحاشيه ، فإنني سأطرح المشكلة في شكلها الأشد إثارة: هل كانت الثورة الطهرانية الانكليزية ثورة بورجوازية؟ هل كان للثورة الفرنسية الكبرى طابع بورجوازي ؟ الحق أننا لا نجد على رأس الكتائب المتمردة لا صيارفة ولا تجاراً ولا مجهزي سفن . وكـان اللامتسرلون [1] والعوام وبروليتاريا المدن والبورجوازيـة الصغيرة برمتها في مقدمة صفوف المقاتلين . فإلامَ انتهوا ؟ لقد ألغوا ، تحت قيادة أعيان الريف (في انكلترا) ورجال القانون الدكاترة والصحفيين (في فرنسا) الحكم الملكي المطلق وبيروقراطيته المؤلفة من حاشية البلاط وطوحوا بالمؤسسات الإقطاعية التي كانت تعيق تطور علاقات الملكية البورجوازية . وكانت البورجوازية قد أصبحت قوية وواعية بما فيه الكفاية لقدرتها حتى تطمح في حرية تقرير مصيرها السياسي . كانت قـد أمست راغبة عن وصاية الحكم الملكي المطلق وسلطته ، وراغبة في أن تحكم بنفسها . ولئن كانت جماهير العامة قد دفعت بها إلى أمام أثناء الثورة ، فقد حاولت بعد الثورة أن تنظم بنفسها الكتلة العظمى من المجتمع .

إن مسيرة الثورة بأزماتها وتناحراتها كافة ، وبالتنقل الدائم للسلطة من الجناح المغـالي في نزعته المحافظة إلى الجناح الأكثر جذريـة وحتى إلى الجناح الطوبائي من المعسكر الثوري ، إن هذا كله قد أفضى من جديد إلى نوع من الوضع السياسي القائم بين الطبقات التي بدأ نجمها يلمع . وكانت جماهير العامة واللامتسرولين وبروليتاريي المدن قد أخذ منها التعب

---

[1] اللا متسرلون : لقب الثوار الفرنسيين عام ١٧٩٣ . « المعرب »

وخاب فألها وصحت من وهمها . ولكن الطبقة المنتصرة ، السائدة الآن – البورجوازية – كانت هي الأخرى منقسمة داخلياً ومجزأة ومنهكة القوى بعد الكفاح الثوري وعاجزة بالتالي عن حكم المجتمع . ومن هنا ظهرت في المرحلة الأخيرة من الثورة البورجوازية بيروقراطية جديدة من طراز مغاير بعض الشيء : إذ توطدت دكتاتورية عسكرية بدت للأنظار ، على الأقل من الخارج ، وكأنها استمرار للحكم الملكي المطلق الذي كان قائماً قبل الثورة ، بل كأنها نسخة كالحة مستفحلة عن هذا الحكم. فلقد كان نظام ما قبل الثورة يملك جهاز دولة مركزياً ، بيروقراطية قومية . وكان مطلب الثورة الأول إزالة الصفة المركزية عن هذا الجهاز . إلا أن هذه المركزية لم تكن وليدة نيات العاهل السيئة ، بل كانت تعكس تطور اقتصاد هو بأمس الحاجة إلى سوق قومية ، و « حساء الثقافة القومية » هذا قد غذى القوى البورجوازية التي أنتجت بدورها الثورة . وكانت حصيلة الثورة تجدد المركزية . هذا ما انتهت اليه الأمور مع كرمويل ونابليون . ولقد كانت سيرورة المركزة والتوحيد القومي وقيام بيروقراطية جديدة في غاية الجلاء ومنتهى الوضوح، حتى إن توكفيل[1] على سبيل المثال لم ير فيها غير استمرار لتقاليد ما قبل الثورة . فلقد اكد بأن الثورة الفرنسية لم تصنع شيئاً سوى أنها تابعت عمل النظام القديم ، وبأن الأحداث كانت ستسير في المجرى نفسه حتى لو لم تقم الثورة . وبديهي أن هذه حجة رجل كان شاخص البصر إلى المظهر السياسي من التطور دون غيره، جاهلاً أتم الجهل بالخلفية والدوافع الاجتماعية الأعمق غوراً . حجة رجل وضع يده على شكل المجتمع لا على بنيته أو تلوينه .

لقد استمرت المركزة السياسية على سابق منوالها بعد الثورة ، ولكن سمات البيروقراطية وخصائصها اختلفت كامل الاختلاف وجوهري الاختلاف.

---

١ الكسي توكفيل : مؤرخ فرنسي لامع (١٨٠٥ – ١٨٥٩) . « المعرب »

فعوضاً عن بيروقراطية البلاط ، توطدت في فرنسا أركان بيروقراطية مجندة من مختلف فئات المجتمع . وهذه البيروقراطية البورجوازية التي أرست دعائمها في عهد نابليون عاشت إلى ما بعد عودة النظام الملكي ووجدت أخيراً زعيمها في شخص الملك المواطن .

أما المرحلة التي شهدت انطلاقة بيروقراطية جديدة وتصاعد الميول باتجاه مركزية الدولة ، فتتفق هي الأخرى مع حقبة من البطالة السياسية عانت منها الطبقات الاجتماعية كافة . فنحن نلاحظ في عام ١٨٤٨ وضعاً تعارضت فيه مصالح مختلف الطبقات ، ولا سيما مصالح البورجوازية الموطدة الأركان ومصالح البروليتاريا الوليدة . وإلى اليوم لم يصف أحد عملية الإنهاك المتبادل هذه بخير مما وصفها كارل ماركس ، وبوجه خاص في « ١٨ برومير » . ولقد أوضح أيضاً كيف أن إضعاف الطبقات الاجتماعية كافة قد عقد لواء النصر للبيروقراطية أو بالأحرى لقوتها العسكرية في عهد نابليون الثالث . وهذا الوضع لم يكن خاصاً بفرنسا وحدها ، وإنما ميز أيضاً ألمانيا ، وبوجه خاص بروسيا حيث كان المأزق بالغ التعقيد : فبين مصالح اليونكر [1] الإقطاعية ونصف الإقطاعية كانت هناك البورجوازية والطبقة الكادحة الجديدة . فكانت عاقبة ذلك في بروسيا توطد نفوذ بيروقراطية بسمارك ودكتاتوريتها . ولنلاحظ أن ماركس وانجلز حللا حكومة بسمارك بوصفها نظاماً « بونابرتياً » على الرغم من أن بسمارك كان في الظاهر قليل الشبه ببونابرت أو عديم الشبه به بالمرة .

- ٢ -

إنني لمدرك تمام الإدراك ، بالنظر إلى سعة الموضوع ، أنه يستحيل

---

١ اليونكر : فتيان الطبقة الأرستقراطية في ألمانيا من ذوي النزعة العسكرية . « المعرب »

علي أن أصنع من شيء غير أن أشير بإجمال واقتضاب إلى النقاط الرئيسية التي تقتضي إكمال الإنشاء في المستقبل . ولعله يخلق بي أن أحذركم من أنه ليس في نيتي معالجة مشكلة الاشتراكية الإصلاحية والبيروقراطية ، فهذه المشكلة ، على الرغم من أهميتها السياسية ، ولا سيما في بلادنا ، ذات فائدة محدودة للغاية في تقديري . وهي تشكل ، في ظني ، حالة خاصة من حالات « الرأسمالية والبيروقراطية » . فمجمل الاقتصاد يظل رأسمالياً حتى لو أممت الصناعة بنسبة ١٥٪ أو حتى ٢٥٪ ، والكمية ههنا تتحكم أيضاً بالنوعية . والأساس الذي تقوم عليه الحياة الاجتماعية رأسمالي في جوهره ، والروح الرأسمالية البيروقراطية الكلاسيكية تتغلغل في الفروع قاطبة ، بما فيها فروع القطاع المؤمم . والاستياء من « بيروقراطية سكك الحديد » وصناعة استخراج الفحم الحجري يتسع ويتعاظم . ولقد رأينا إبان الاضراب الأخير على شاشة التلفزيون بعضاً من عمال السكك الحديدية يقولون : « لم تعد الأمور كما كانت في السابق » . فلقد كان في مقدور العمال قبل تأميم سكك الحديد أن يقيموا فيما بينهم ومع أرباب العمل علاقات ذات طابع شخصي ، في حين أن حياة العمل قد أصبحت الآن مغفلة إلى درجة انقطع معها التماس الإنساني بين الشغيلة وبين هذا المشروع الواسع الرحب القومي الأبعاد . هذا « التماس الإنساني » منبثق في الحقيقة عن مخيلة الشغيلة . إذ ما نوع العلاقات الشخصية التي يمكن أن تقوم بين سائق القاطرة وبين رئيس إحدى شركات السكك الحديدية الخمس الضخمة ؟ ومع ذلك فقد كان من الأهمية بمكان ، من وجهة النظر السياسية ، أن يعتقد عامل السكة الحديدية فعلاً بأنه ليس محض عجلة في آلة شركة ميدلاند لسكك الحديد أو الشركة الجنوبية أو الغربية . والحال أنه يشعر اليوم بأنه « مستلب » تجاه ذلك الكيان الواسع الشاسع ، الذي ينبغي أن يندمج فيه وأن يعمل لحسابه . وهذا « الاستلاب » ، كما تشير اللفظة ، مشكلة مشتركة بين جميع المؤسسات البيروقراطية أياً تكن

بنيتها الاجتماعية ، وأنا آخر من ينفي وجود عدد محدد من السمات المشتركة بين بيروقراطية نظام رأسمالي وبيروقراطية نظام ما بعد رأسمالي .

أود الآن أن أتطرف إلى المشكلات النوعيــة التي يطرحهــا ظهور البيروقراطية في صناعة مؤممة برمتها بعد ثورة اشتراكية في ظل نظام قائم في بدايته على الأقل ، وبكل مــا في الكلمة من معنى ، على دكتاتورية بروليتارية . وهذه المشكلة على جانب عظيم من الأهمية ، حتى وان كانت لا تعني غير ثلث الكرة الأرضية . وإني لعلى يقين تام بــأن الكثيرين منكم يريدون لها أن تصبح مشكلة تعني ثلثي الكرة الأرضية على الأقل .

إن من الملاحظات التي خطرت لي ، وأنــا أتصفح بعض النصوص الماركسية الكلاسيكية عن البيروقراطية ، الطريقة المتفائلة نسبياً ، « بله المستخفة » التي تناول بها الماركسيون هذه المشكلة . وإذا شئتم أن أضرب لـكم مثالاً على ذلك ، فلأشر إلى أن كارل كاوتسكي قد تساءل في اكثر من مرة عما إذا كان هناك من داعٍ لأن يتخوف المجتمع الاشتراكي من ظهور آفــة البيروقراطية . وفي وسعنا أن نتذكر ، فيما إذا كنــا قرأنا « أصول المسيحية » ، أن كاوتسكي يروي قصة تطور الكنيسة المسيحية التي تحولت مـــن دين للمضطـَهدِين إلى جهــاز بيروقراطي أمبراطوري واسع . ولقد تم هذا التحول ضمن نطاق مجتمع يحيــا على عمل العبيد . ولقد كان عبيد العصور القديمــة ، المفتقرون إلى وعي طبقي حقيقي ، عرضة لأن يمسوا عبيداً للبيروقراطية . ولكن الطبقــة العاملة الحديثة ، الناضجة بمــا فيه الكفاية للإطاحة بالرأسمالية ، لن تسمح ، على حــد افتراض كاوتسكي ، بــأن ترتفع فوقها وتتعالى عليها بيروقراطية مـــن البيروقراطيات . ولم يكن هذا رأيــاً شخصياً أبداه كاوتسكي وحده ، كاوتسكي الذي كان يُعد على مدى اكثر من عشرين عاماً ، بين وفاة انجلز واندلاع الحرب العالميــة الأولى ، أنبغ شارح للماركسية وخليفــة

ماركس وانجلز الفعلي . فأنجلز نفسه ، في كتاباته المتنوعة ، ولا سيما في « ضد دهرينغ » ، يلزم نفسه برؤية تستبعد مسبقاً احتمال وجود البيروقراطية في ظل الاشتراكية .

« تستولي البروليتاريا على سلطة الدولة وتحول وسائل الإنتاج بادىء ذي بدء إلى ملكية دولة . ولكنها بفعلها هذا تلغي نفسها بنفسها بصفتها بروليتاريا ، تلغي جميع الفوارق الطبقية والتعارضات الطبقية »[1] .

لقد كانت الدولة ، في المجتمعات السابقة ، ضرورة كجهاز للطبقة المستغلِة ، كوسيلة لاضطهاد الطبقات المستغلَة من أرقاء وأقنان وعمال زراعيين . أما في ظل الاشتراكية فإن الدولة في اللحظة التي تصبح فيها ممثلة لمجمل المجتمع حقاً ، تمسي أيضاً فائضة عن الحاجة . ومع تطور القوى المنتجة الحديثة ، ووفرة السلع والخيرات وغزارتها ، لا يعود هناك من ضرورة لاسترقاق البشر والعمل .

إن تروتسكي هو الذي استخدم ، على ما أعتقد ، هذه الصورة المجازية البالغة البساطة والنافذة التعبير : إن الشرطي يستطيع أن يستعمل عصاه إما لتنظيم السير وإما لتفريق تظاهرة للمضربين أو للعاطلين عن العمل . وهذا الحكم يلخص التمييز الكلاسيكي بين إدارة الأشياء وإدارة البشر . فلو افترضنا مجتمعاً لا وجود فيه لهيمنة طبقية ، فلن يكون للبيروقراطية من دور غير إدارة الأشياء ، إدارة عملية الانتاج الموضوعية الاجتماعية . ولا مجال لتصفية جميع الوظائف الإدارية – فهذا أمر غير معقول في مجتمع صناعي متطور – ولكن يهمنا ألا نترك لعصا الشرطي غير دورها الخاص : منع عرقلات السير .

لقد استشف ماركس وانجلز ، في معرض تحليلهما عامية باريس ،

---

١ انجلز : « ضد دهرينغ » .

الأخطار البيروقراطية التي قد تبرز في المستقبل ، وحرصاً على التنويه بالتدابير التي اتخذتها العامية لحماية الثورة الاشتراكية من انبعاث السلطة البيروقراطية . وقد أشارا إلى أن العامية اتخذت احتياطات عديدة ينبغي أن تكون مثالاً وقدوة للتحويلات الاشتراكية في المستقبل : فقد أنتخبت العامية في انتخابات عامة وأقامت بدورها سلطة مدنية منتخبة يمكن تسريح أعضائها في كل وقت بناء على طلب الناخبين . كما ألغت العامية الجيش المحترف وأحلت محله الشعب المسلح ، وأقرت كذلك المبدأ الذي ينص على أن الموظف لا يجوز له أن يكسب اكثر مما يكسب الشغيل العادي . ولقد كان المفروض في هذا أن يلغي جميع الامتيازات التي تحوز عليها طبقة أو فئة بيروقراطية . وبعبارة أخرى ، ضربت العامية المثل على دولة مطالبة بأن تشرع بالتلاشي بمجرد أن تقوم . وليس من قبيل الصدفة البتة أن يكون لينين ، قبل أسابيع معدودة من ثورة اوكتوبر ، قد بذل مجهوداً خاصاً لإعادة العمل بذلك الجزء من التعاليم الماركسية المتعلق بالدولة والاشتراكية والبيروقراطية ، والذي كان منسياً وقتئذ عملياً . وقد عبر عن تصوره للدولة في هذه القولة المشهورة : إن الإدارة ستصبح في ظل الاشتراكية ، بل حتى في ظل دكتاتورية البروليتاريا ، أمراً في منتهى البساطة حتى إنه لن يصعب على أي طاه أن يصرف أمور الدولة .

وما أسهل علينا ، على ضوء التجربة الشاقة في العقود الأخيرة ، أن نقدر إلى أي مدى استهان ممثلو الماركسية الكلاسيكية بمشكلة البيروقراطية . ولهذا على ما أعتقد علتان . فالمؤسسون الأوائل للمدرسة الماركسية لم يسعوا قط سعياً حقيقياً إلى تحديد مسبق للمجتمع الذي سيقوم بعد ثورة اشتراكية . فلقد كان تحليلهم للثورة تحليلاً مجرداً إذا صح القول ، تماماً كما أن ماركس لم يحلل في « الرأسمال » نظاماً رأسمالياً بعينه ، بل حلل الرأسمالية في ماهيتها المجردة . كذلك فانهم تصوروا المجتمع الاشتراكي أو ما بعد الرأسمالي بطريقة مجردة . وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنهم شرعوا

بتحليلهم قبل وقوع الحدث بحقبة طويلة ، وجدنا أن منهجهم مبرر علمياً .
أما العلة الثانية فهي ، إن جاز القول ، بسيكولوجية . فهم ما استطاعوا أن يمتنعوا عن تخيل الثورة القادمة وفق نموذج أعظم تجربة ثورية في في حياتهم ، تجربة ١٨٤٨ . فقد تصوروا أن الثورة القادمة ستتشكل ، على نحو ما كانت عليه الحال في عام ١٨٤٨ ، سلسلة متصلة من ثورات أوروبية تنتشر في جميع أرجاء القارة في آن متواقت (هذا هو أصل فكرة الثورة الدائمة التي لا تعود في هذه الحال من ابتكار تروتسكي ، بل تجد جذورها العميقة في فكر الماركسية الكلاسيكية) . ولا مرية في أن أي ثورة اشتراكية شاملة للقارة الأوروبية برمتها لن تعود نسبياً في موقع الخطر بعد انتصارها . فمن بالغ الصعوبة أن تندلع حرب أهلية في سياق توتر اجتماعي واهن غاية الوهن . ومن دون تدخل خارجي لن تكون هناك ضرورة لإعادة تشكيل قوات مسلحة دائمة تكون مصدراً رئيسياً من مصادر البيروقراطية . ولقد افترضوا أيضاً أن أهمية الطبقة العاملة ستشكل دعامة جماهيرية قوية للحكومة الثورية ، وعلى الأقل في مجتمعات أوروبا الغربية الرفيعة التصنيع . ولقد حسبوا كذلك أنه بمجرد أن تنحاز غالبية الطبقة العاملة الأوروبية إلى قضية الثورة ، فإن هذه الطبقة ستبقى أبداً وفية مخلصة للثورة . وهذا بالإضافة إلى التقاليد الديموقراطية الوطيدة ، أعظم ضمانة ضد انبعاث أو تكوّن آلة بيروقراطية جديدة .

وإذا كنا نستشعر في أنفسنا ميلاً إلى لوم مؤسسي المدرسة الماركسية على استهانتهم بأخطار البيروقراطية في المجتمع الثوري ، فلا بد أن نتذكر أنهم كانوا يعدون وفرة السلع والخيرات شرطاً أول للثورة الاشتراكية ، مقدمتها ومبرر قيامها في آن واحد .

« إن إمكانية تزويد كل فرد من أفراد المجتمع ، بفضل الإنتاج المشترك ، بوجود ليس هو ممتلئاً مادياً فحسب ، وصائراً اكثر امتلاء يوماً

بعد يوم، بل بوجود يضمن للجميع التطور الحر والممارسة الطليقة لإمكاناتهم الجسمية والذهنية ــ هذه الإمكانية هي موجودة الآن للمرة الاولى، وإنها لموجودة حقاً »[1] .

هذا ما صرح به انجلز بشيء من التفخيم في « ضد دهرينغ » منذ نحو تسعين عاماً . والحال أننا نشهد في أواسط هذا القرن بعض محاولات لتحقيق ثورة اشتراكية في أقطار يستحيل فيها تأمين وجود مادي لائق بسبب عدم كفاية الإنتاج وضعفه المؤسس .

إن الماركسية تنطوي بلا مراء على شيء من الإبهام والالتباس بصدد موضوع الدولة . فهناك من جهة أولى ــ والماركسية تتفق في ذلك مع الفوضوية ــ قناعة راسخة تستند إلى تحليل تاريخي واقعي عميق بأن الثورات كافة ستظل محرومة من ثمار نصرها ما لم تلغ الدولة . وهناك من الجهة الثانية قناعة بأن الثورة الاشتراكية بحاجة إلى الدولة لتحقيق أهدافها ، ولتحطيم النظام الرأسمالي القديم وتدميره ، ولخلق جهاز دولة جديد قادر على ممارسة دكتاتورية البروليتاريا . ولكن هذا الجهاز يمثل لأول مرة في التاريخ لا مصالح أقلية من أصحاب الامتيازات ، وإنما مصالح جمهرة الشغيلة ، المنتجين الحقيقيين لثروات المجتمع .

« إن أول عمل تتشكل به الدولة بصورة فعلية كممثلة للمجتمع بأسره ــ الاستيلاء على وسائل الانتاج باسم المجتمع ــ هو في الوقت نفسه آخر أعمالها المستقلة بوصفها دولة . إن تدخل سلطة الدولة في العلاقات الاجتماعية يصبح عديم الضرورة في ميدان إثر آخر ، ومن ثم يتلاشى من تلقاء نفسه ، إذ يستعاض عن حكومة الأشخاص بإدارة الأشياء وبتوجيه

---

[1] انجلز : « ضد دهرينغ » . وقد أخذنا النص ، مع شيء من التعديل اقتضته دقة الترجمة ، عن الطبعة العربية الصادرة عن دار دمشق ــ ص ٣٤١ .

عمليات الإنتاج . إن الدولة لا « تلغى » ، بل تنطفىء »[1] .

ولقد كان واقع الثورة الروسية ، بمختصر العبارة ، نفياً للمسلمات التي قررتها الماركسية الكلاسيكية . ولا ريب في أنها ثورة في سماء المجرد، بل كانت على درجة كبيرة من الواقعية . وهي لم تقتد بنموذج ١٨٤٨ ، ولم تشعل نار الثورة في أوروبا بأسرها ، بل ما لبثت حبيسة قطر واحد . لقد قامت بين ظهراني أمة كانت البروليتاريا تؤلف فيها أقلية زهيدة ، وعلاوة على ذلك أقلية انحلت وتلاشت بوصفها طبقة في غمار الحرب العالمية والثورة والحرب الأهلية . ولقد كانت روسيا بلداً شديد التأخر أيضاً ، عضه البؤس بنابه ، وكانت المشكلة العاجلة المطروحة على الحكومة الثورية خلق المقدمات الأولية لحياة متمدينة حديثة ، لا بناء الاشتراكية . ولقد أفضى هذا كله إلى تطورين سياسيين كانت نتيجتها المحتمة ظهور آفة البيروقراطية من جديد .

لقد أوضحت كيف أن هيمنة البيروقراطية السياسية تعقب على الدوام نقطةً ميتة في صراع الطبقات ، مرحلةً تصاب فيها بالإنهاك قوى الطبقات الاجتماعية كافة من خلال مسيرة الصراعات السياسية والاجتماعية . ونحن بالإجمال نلفي وضعاً كهذا الوضع في أعقاب الثورة الروسية : ففي مطلع عام ١٩٢٠ كانت جميع طبقات المجتمع الروسي ، العمال والفلاحون والبورجوازية وملاك الأراضي والأرستقراطية ، قد حل بها الدمار الشديد أو أصابها الإنهاك الكامل سياسياً ومعنوياً وفكرياً . وبعد محن السنوات العشر من الحرب العالمية والثورة والحروب الأهلية وخراب الإنتاج الصناعي ، لم يعد في مستطاع أي طبقة اجتماعية أن توطد أركانها وتثبت مواقع أقدامها . لم يكن قد تبقى من شيء غير جهاز الحزب البلشفي ، فأرسى قواعد هيمنته البيروقراطية على المجتمع في جملته . ولكن هذا

---

١ انجلز : « ضد إهرينغ » . – الترجمة العربية – ص ٣٣٩ .

لا يعني أنه لم يتغير شيء وأن الأمور جميعاً لبثت على حالها : فقد تعرض المجتمع لتحول أساسي . فالتباين الحاد القديم بين الملاك وبين الجماهير المحرومة من الملكية أخلى الساح لانقسام آخر ، من طبيعة مختلفة ، لكن لا يقل عنه قابلية لتوليد الأذية والفساد : الانقسام بين الحاكمين المحكومين . أضف إلى ذلك أن هذا الانقسام يزداد بعد الثورة أهمية وحدة عنه حينما كان غارقاً في انقسام الطبقات وتناحرها . وبذلك يكون الانقسام القديم والدائم بين المنظِّمين والمنظَّمين قد احتل من جديد سابق مكانته . وتكون مقدمة المجتمع الطبقي قد تحولت إلى خاتمته . ودولة ما بعد الثورة، بدلاً من « أن تنطفىء رويداً رويداً » ، تجمع بين يديها من السلطة اكثر مما جمعته في أي وقت سبق . ولأول مرة في التاريخ تبدو البيروقراطية خارقة القوة ، كلية الحضور . وإذا كانت سلطة البيروقراطية قد وجدت على الدوام في ظل النظام الرأسمالي معادلها ومكافئها في سلطة الطبقات المالكة ، فإننا لا نجد ههنا شيئاً من هذا التضييق وهذا التحديد . فالبيروقراطية تتولى إدارة جملة طاقات الأمة ومواردها ، وتتجلى للعيان اكثر من أي وقت سبق كجسم مستقل ، منفصل ، متعال حقاً على المجتمع . والواقع أن الدولة ، بدلاً من أن تضمحل ، تدركُ نقطة أوجها متخذة شكل شطط شبه دائم في العنف البيروقراطي تجاه جميع طبقات المجتمع .

لنعد ، لهنيهة من الزمن ، إلى التحليل الماركسي للثورة من وجهة النظر المجردة ، ولننظر أين وبمَ تختلف صورة روسيا ما بعد الثورة عن هذا التحليل . فلو كنا شهدنا ثورة أوروبية انتزعت فيها القوى البروليتارية نصراً سريعاً حاسماً ووفرت على أممها الهزات السياسية والاجتماعية ومجزرة الحروب والصراع الأهلي ، لما كنا عرفنا في أرجح الظن هذا التأله المخيف للدولة الروسية . ومع ذلك كانت المشكلة ستنطرح بحدة لم تتوقعها الماركسية الكلاسيكية . وبوجيز العبارة ، يبدو أن مفكري القرن التاسع

عشر ومنظّريه قد مالوا إلى « تقريب » بعض مراحل الانتقال المستقبلي من الرأسمالية إلى الاشتراكية . وما « قرّبته » الماركسية الكلاسيكية كان الثورة والاشتراكية ، مع أن مرحلة انتقالية رهيبة في طولها وتعقيدها لا بد أن تفصل بين الثورة والاشتراكية . وحتى في أفضل الشروط ما كانت هذه المرحلة إلا لتتميز بتوتر محتوم بين البيروقراطي والشغيل . بيد أننا نستطيع مع ذلك أن نلفى في الماركسية بعض توجسات من هذا التوتر . فماركس وإنجلز في مؤلفهما المشهور « نقد برنامج غوتا » يتحدثان عن مرحلتين في الشيوعية ، المرحلة الدنيا والمرحلة العليا . ففي المرحلة الدنيا يظل « الأفق الضيق لحقوق البورجوازية » سائداً ، مع كل ما يترتب على ذلك من تفاوت ولامساواة وتمايز واسع بين المداخيل الفردية . ولامراء في أنه إذا كان على المجتمع أيضاً في ظل الاشتراكية أن يكفل ملء التطور لقواه المنتجة إلى أن يظهر إلى حيز الوجود اقتصاد حقيقي قائم على الغنى والوفرة ، على حد ما كان يفترض ماركس ، فلا مفر والحالة هذه من مكافأة المهارة وبذل المحرضات . والبيروقراطي هو ، بمعنى من المعاني ، شغيل مختص ، ولا سبيل إلى الشك في أنه سيحتل مكانه في الميزان إلى جانب أصحاب الامتيازات .

إن الانقسام بين المنظِّمين والمنظَّمين تزداد أهميته ولا تنقص على وجه التحديد لأن مسؤولية تسيير الاقتصاد القومي ، بعد انتقال وسائل الانتاج من الملكية الخاصة إلى الملكية العامة ، تقع على كاهل المنظِّمين . والمجتمع الجديد لم يتطور على أسسه الذاتية الخاصة به ، ولكنه انبثق من الرأسمالية وما يزال يحمل علائم منابته . وهو لما ينضج بعد اقتصادياً وأخلاقياً وفكرياً حتى يعطي كل فرد بحسب حاجاته ، ولسوف تظل البيروقراطية فئة تحتكر الامتيازات ما دام كل فرد ينال بحسب عمله . وعلى الرغم من المفردات شبه الماركسية التي يستعملها القادة الروس الحاليون ، فإن المجتمع الروسي ما يزال إلى اليوم بعيداً عن أن يكون اشتراكياً . وكل ما هنالك

أنه خطا الخطوة الأولى على طريق الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية .

إن التوتر بين البيروقراطي والشغيل يعود في أصله الأول إلى الطلاق بين العمل الفكري والعمل اليدوي . وليس في مستطاع أحد أن يقول اليوم إن أي طاهٍ لقادر على تسيير الدولة الروسية الراهنة (وإن حاول ذلك طهاة من كل شاكلة ونوع) . ولقد ثبت عجزها عملياً عن إقرار وتطبيق المبدأ الذي أعلنته عامية باريس والذي كان ماركس يعدّه ضمانة ضد انبعاث البيروقراطية ، المبدأ الذي أشاد به لينين عشية ثورة أوكتوبر والذي ينص على أنه لا يجوز للموضف أن يكسب أكثر مما يكسبه أجير عادي . لقد كان هذا المبدأ يفترض مجتمعاً تحكمه مساواة حقيقية ــ وكان هذا واحداً من أهم تناقضات فكر ماركس وتلاميذه . فجليّ للعيان أن الحجة القائلة إنه لا يجوز لأي موظف ، مهما تكن أهمية الوظائف التي يتقلدها ، أن يكسب أكثر مما يكسبه العامل ، لا تتفق وتلك الحجة الأخرى القائلة إن من الطوبائية الاعتماد على « توزيع متساوٍ » في المرحلة الأولى من الاشتراكية ، المرحلة التي تظل موسومة بميسم « القوانين البوارجوازية » . وفي روسيا ما بعد الثورة ببؤسها وبقواها المنتجة الناقصة التطور ، لم يكن من المعقول ألا يتخذ الصراع على « المكافآت » شكلاً عنيفاً وكاسراً . ونظراً إلى أن إلغاء الرأسمالية كان باعثه الرغبة في تحقيق المساواة ، فإن اللامساواة قد بدت بنتيجة ذلك أبعث على النفور وأدعى إلى الاستنكار . ولقد كان الأساس الذي قامت عليه هذه اللامساواة مستوى حياتياً بالغ التدني ، أو بالأحرى عاماً هو دون مستوى أود الحياة .

إن جزءاً من النظرية الماركسية عن اضمحلال الدولة قد قام على أساس توازن محدد بين تنظيمها المركزي وبين الميل العام إلى تطبيق اللامركزية . ولقد كان المفروض في الدولة الاشتراكية أن تكون دولة تتواجد فيها كومونات منتخبة ومجالس بلدية وهيئات محلية ، وكذلك بعض أشكال الحكم

الذاتي ، وإن كان من المفروض في الوقت نفسه أن تؤلف جملة هـــذه الأجهزة هيئة موحدة لا غنى عنها لأداء نمط الإنتاج المؤمم وظيفته بصورة عقلانية . وكان هذا المفهوم يفترض أيضاً مجتمعاً رفيع التطور ، وذلك بعكس ما كانت عليه الحال في روسيا في مطلع القرن .

على أن التوتر بين الشغيل والبيروقراطي يمكن أن ينطوي على بعض العناصر الإيجابية من خلال تطور المجتمع ما بعد الرأسمالي . فالعامــل والبيروقراطي على حد سواء لا غنى عنهما لضمان الانتقال إلى الاشتراكية . وما دامت الجماهير العمالية باقية على إملاقها الفكري الذي سببته قرون من الاضطهاد والأمية ، فإن قيادة آليـــات الانتاج باقية لا محالة بين أيدي الموظفين . والحال أن الطبقة الاجتماعية الأساسية في مجتمع ما بعد رأسمالي حقيقي هي الطبقة العـــاملة ، والاشتراكية هي قضية الشغيلة لا قضية البيروقراطيين . والتوازن الدينامي بين البيروقراطي والعامل يجد ترجمته في سلطة الدولة ورقابة الجماهير على الدولة . وفي هذا ضمان للتوازن الضروري بين مبدأ المركزية ومبدأ اللامركزية . ولكن ما رأيناه في روسيا كـــان اختلالاً تاماً في التوازن . فقد رجحت كفة الميزان ، الذي تحكمت فيـه ظروف تاريخيـــة موضوعية ومصالح ذاتية ، رجحاناً شديداً ، حاسماً ، نهائياً ، إلى جانب البيروقراطية . وما رأيناه في هنغاريا وبولونيا عام ١٩٥٦ كان رد فعل ضد هـــذا الوضع – الستاليني – عكس اختلال التوازن بالاتجاه المضاد . كان تمرداً محموماً ، عنيفاً ، مجانباً للعقل من قبل الشغيلة على الاستبداد البيروقراطي ، تمرداً تبرره بلا أدنى ريب تجاربهم وشكاواهم ولكنه أفضى بدوره إلى اختلال فادح خطر في التوازن .

فما التوقعات التي يمكن في هذه الحال أن نعرب عنها ، وكيف ينبغي لنا أن نقرر احتمالات تطور هذا التوتر بين العامل والبيروقراطي في المستقبل؟

لقـــد أشرت آنفاً إلى جميع أخطاء التصور الماركسي الكلاسيكي عن

البيروقراطية ومنظوراتها التاريخية . بيد أنني أعتقد أن هذا التصور قد أسهم إسهاماً أساسياً فاق أي إسهام آخر في مواجهة مشكلة البيروقراطية .

هذا هو السؤال الذي ينبغي أن نجيب عليه : هل تحولت البيروقراطية، التي أدركت نقطة أوجها بعد الثورة كما بينت ، إلى طبقة جديدة؟ وهل بوسعها الصمود والاستمرار كأقلية ذات امتيازات ؟ وهل ستبقي على اللامساواة الاجتماعية ؟ بودّي ، قبل كل شيء ، أن ألفت انتباهكم إلى واقعة صريحة جلية بالغة الأهمية ، ولكن منسية في غالب الأحيان وهي أن كل ما تبقى من لامساواة في روسيا الراهنة بين البيروقراطي والعامل عبارة عن لامساواة في الاستهلاك . وصحيح أن هذه اللامساواة عميقة ، منفرة ، صعبة الاحتمال ؛ ولكن للبيروقراطي بالرغم من جميع امتيازاته التي يذود عنها بشراسة وعناد يفتقر إلى الامتياز الأساسي : ملكية وسائل الإنتاج . ولئن كانت البيروقراطية الرسمية ما تزال تهيمن على المجتمع وتفرض عليه سلطانها ، فإنها تفتقر بالمقابل إلى التلاحم والوحدة القمينين بأن يجعلا منها طبقة مستقلة بذاتها بالمعنى الماركسي للكلمة . ولئن كان البيروقراطيون يتمتعون بالسلطة وبشيء من الرخاء ، إلا أنهم لا يستطيعون بالمقابل إيراث أولادهم رخاءهم وغناهم . كذلك فإنهم لا يستطيعون مراكمة الرأسمال وتوظيفه لحساب ذريتهم ، ولا يستطيعون المحافظة على امتيازاتهم لا لأنفسهم ولا لأصدقائهم وأقاربهم .

صحيح أن البيروقراطية السوفياتية تسيطر على المجتمع ، على الصعيد الاقتصادي وعلى الصعيد السياسي وعلى الصعيد الثقافي، بصورة أكثر جلاء ورحابة من سيطرة أي طبقة بورجوازية حديثة . ولكنها أكثر قابلية للأذى وللعطب أيضاً . فهي لا تعجز عن إيراث امتيازاتها فحسب ، بل تعجز أيضاً ، كما اتضح للعيان ، عن الحفاظ على وضعها هي بالذات وعلى وظيفتها القيادية . ففي عهد ستالين كانت الفئات القيادية من البيروقراطية

تُستأصل شأفتها واحــدة إثر أخرى ، كما كانت حملات التطهير تتناول قيادات المشاريع الصناعية وبعدئذ جاء خروتشيف وطوح بالمركز الرئيسي لهذه البيروقراطية : فقد شتت جميع الوزارات الاقتصادية المتمركزة في العاصمة في مختلف أرجاء روسيا . وإلى يومنا هذا لم تفلح البيروقراطية في اكتساب هويتها الاجتماعية والاقتصادية والبسيكولوجية الخاصة ، الأمر الذي لا يبيح لنا أن نعدها طبقة اجتماعية جديدة . لقد كانت أشبه بمتمورة[1] هائله الحجم تطبق على مجتمع ما بعد الثورة . أقول متمورة لأنها لا تملك هيكلاً عظمياً خاصاً بها ، ولأنها لا تؤلف كياناً متكامل البناء ولا قـوة تاريخية تظهر على خشبة المسرح السياسي مثلما يقال عن قوة البورجوازيـة القديمة التي انبثقت عن الثورة الفرنسية .

وتعاني البيروقراطية السوفياتية من قيد آخر ، من تناقض طبيعي عميق: فهي لم تبرز إلى حيز الوجود إلا بفضل إلغاء الملكية الخاصة في الصناعة والمالية وبفضل انتصار الشغيلة على النظام القديم . ومن هنا فإنها تجد نفسها على الدوام ملزمة بالإشادة بهذا النصر ، ومكرهة على الإقرار بأنها تسيّر الانتاج الصناعي والمالية باسم الأمة ، باسم الشغيلة . وعلى الحكام السوفييت، أياً تكن امتيازاتهم ، أن يحترسوا ويأخذوا حذرهم : فنظراً إلى أن الشغيلة المثقفين والمتنورين يزداد عددهم باستمرار ، فقد يأتي بسهولة الوقت الذي توضع فيه علامات استفهام حــول موهبة الحكام ونزاهتهم وكفاءتهم . وصحيح أن هؤلاء مـا يزالون يستفيدون من لامبالاة الشغيلة الذين أذنوا لهم حتى اليوم بتسيير الدولة باسمهم ، ولكن هذا الوضع مؤقت بكل ما في الكلمة من معنى وأوهى استقراراً بما لا يقاس من وضع تكرسه التقاليد والملكية والقوانين . والصدام بين الأصل التحرري لسلطة البيروقراطية وبين طبيعة استخدامها لهذه السلطة يولّد توتراً دائماً بين الـ « نحن » — رأي

---

[1] المتمورة : الآميب . « المعرب »

العمال – وبين الـ « هم » – أي طائفة الحكام السياسيين .

وهناك أيضاً علة أخرى لعدم استقرار الفئة الحاكمة وعدم تلاحمها ، مهما عظمت امتيازاتها . فلقد عرفت البيروقراطية السوفياتية ، منذ بضع عشرات من السنين ، نمواً مطرداً مذهلاً . والتحق بصفوفها ملايين ممن ينتمون في أصولهم إلى الطبقة العاملة ، وبدرجة أقل ، إلى الطبقة الفلاحية. وهذا النمو والتوسع الدائمان يتنافيان وتبلور البيروقراطية لا في طبقة فحسب، بل حتى أيضاً في فئة اجتماعية متلاحمة . وإنني لأعلم علم اليقين أن المرء عندما يتسنم منصباً له امتيازاته في هرم التسلسل يصبح بيروقراطياً حتى وان كان متحدراً من طبقات دنيا . وهذه حقيقة تنطبق على حالات فردية وبصورة نظرية ، ولكن جحود المرء طبقته لا يتم جماعياً بمثل هذه البساطة. فعندما يصبح ابن الشغيل أو عامل المناجم مهندساً أو مديراً لمصنع ، فإنه لا يتجرد بين عشية وضحاها من كل إحساس بما يجري في بيئته السابقة، أي في أوساط الطبقة العاملة . وأي تفحص سريع يبين لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن ما من قطر يعرف ما يعرفه المجتمع السوفياتي من سرعة كبيرة في تحول الشغيلة اليدويين إلى شغيلة غير يدويين وإلى ما يحلو للأميركيين أن يسموه بـ « الصفوة » .

ولا بد لنا أيضاً من أن نفهم أن امتيازات الغالبية الكبرى من البيروقراطيين محدودة للغاية . فمستوى حياة الإداري الروسي لا يزيد على مستوى حياة طبقاتنا المتوسطة الأكثر انخفاضاً . وحتى الأقلية الصغيرة التي أدركت قمة الهرم لا تحسد على ترفها ، ولا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار الأخطار التي تجازف بها – ونحن نعلم جميعاً الآن كم كانت رهيبة في عهد ستالين .

ومن المؤكد أن هذه الامتيازات الصغيرة تسهم في تغذية التوتر بين العامل والبيروقراطي ، ولكن لا يجوز لنا أن نخلط بين هذا التوتر وبين

تناحر طبقي . وإذا كان هناك شيء من التشابه فإنه لن يبدو لنا إلا في غاية السطحية ان نظرنا اليه عن قرب . وإذا كان هناك ما يستحق الملاحظة حقاً فهو بالأحرى وجود نوع من العداء بين أعضاء الطبقة الواحدة ، أي، على سبيل المثال ، بين عامل المناجم المختص وغير المختص ، أو بين الميكانيكي وبين عامل في سكك الحديد لا يضاهيه اختصاصاً . هذا العداء وهذا التوتر ينطويان في ذاتهما على تناحر سياسي رهيب ، ولكن ليس التمرد الاجتماعي هو السبيل إلى حل هذا التناحر . فهو غير قابل للحل في المقام الأول إلا إذا نمت الثروة القومية نمواً يمكّن غالبية السكان الكبرى من تلبية حاجاتها الأساسية على الأقل وما يزيد عنها قليلاً . وهو قابل للحل بعد ذلك في حال توسع التربية وتحسنها لأن غنى المجتمع المادي والفكري هو الذي يجعل في الإمكان تسوية الانفصال السلفي – المتجدد اليوم على نحو أشد عمقاً من أي وقت سبق – بين الحاكمين والمحكومين. فما ان يكف المحكوم عن أن يكون موجيكاً بليداً ، مستغلق الذهن ، لا حول له ولا قوة ، وما ان يكف الطاهي عن أن يكون ذلك الانسان الذي لا يفقه شيئاً في غير الطهي ، حتى تولد امكانية ردم الهوة الفاصلة بين البيروقراطي والشغيل . ويومئذ لن يعود هناك من انقسام إلا في الوظائف لا في المراكز الاجتماعية .

إن التصور الماركسي القديم عن « اضمحلال » الدولة قد يبدو لنا مستغرباً ومثيراً للفضول . ولكن لا يجوز لنا أن نلعب مع صيغ قديمة تنتمي إلى لغة لم نتآلف معها . فما أراد ماركس أن يقوله حقاً هو أن الدولة ستتجرد في خاتمة المطاف من وظيفتها الاضطهادية .

وإني لأعتقد أن هذا لن يكون ممكناً إلا في مجتمع مبني على تأميم وسائل الانتاج ، ومتحرر من الأزمات والتوسعات المباغتة ومن المضاربات والمضاربين ، ومنعتق أخيراً من قوى السوق والاقتصاد الفردي ، تلك

القوى المتعسفة النزوية التي لا يمكن ضبطها أو لجمها . وإنما في مجتمع لن تستخدم فيه جميع معجزات العلم والتكنولوجيا إلا استخداماً سلمياً ومنتجاً، في مجتمع لن يعيق فيه تأليلَ الإنتاج الصناعي لا الخوفُ من التوظيفات الضرورية ولا الخوف من فيض الإنتاج ، في مجتمع يخفض فيه زمن العمل وتأخذ أوقات الفراغ مضموناً حضارياً (مختلفاً كل الاختلاف عن تسلياتنا الجماهيرية التي تتحكم بها الآن على نحو لا يقبل به عقل المصالح التجارية !) وأخيراً في مجتمع – وليست هذه بأبسط المشكلات – متحرر من العبادات والدوغمائية والاورثوذكسيات ، في مجتمع كهذا يمكن أن ينطفىء رويداً رويداً التعارض بين النشاط الفكري والعمل اليدوي ، وكذلك الانقسام بين الحاكمين والمحكومين . وآنئذ ، وآنئذ فقط ، سيكون في مستطاعنا أن نتحقق من أن البيروقراطية إذا كانت قد استخدمت كمقدمة وجلة للمجتمع الطبقي فإنها لم تؤلف غير خاتمة فظة وشرسة له ، ولا أكثر من خاتمة .

حـــول

«الأممية» والنزعة الأممية

لقد[1] تصرم أكثر من قرن من الزمن على تأسيس الأممية الأولى ، واكثر من ستين عاماً على تأسيس الأممية الثانية التي آلت إلى الزوال بخزي ما بعده خزي ، وما يقارب نصف قرن من الزمن على إنشاء الأممية الثالثة . وبودي هنا أن أمحص الدور الذي لعبته هذه الأمميات الثلاث ، وكذلك حيوية ومدى صحة الفكرة الأساسية التي كانت خير ملهم لهـا في خير أوقاتها : فكرة المذهب الأممي . وأتمنى أن أعير اهتماماً خاصاً لمشكلة أساسية: العلاقات المتبادلة والصراعات بين النزعة القومية والنزعة الأممية في كل تاريخ الحركة العاملة الحديثة .

لقد أسست الأممية الأولى في لندن بمبادأة من الاشتراكيين الانكليز والفرنسيين . ولقد كان همّ هولاء الأول خلق روابط تعاون وتضامن بين شغيلة فرنسا وبريطانيا العظمى ، لتمكينهم من الدفاع عن أنفسهم ضد استيراد اليد العاملة البلجيكية والإيطالية والألمانية البخسة الثمن ، ومن مواجهة الدسائس التي كان يحيكها الرأسمال الأممي ضد الإضرابات . هذا هو

---

[1] محاضرة ألقيت في « الجمعية الإشتراكية لمعهد لندن الجامعي » في ٢٢ تشرين الأول ١٩٦٤ .

الأصل العادي لـ « رابطة الشغيلة الأممية » ، تلك الأممية الكبيرة الأسطورية ، شبه الشعرية ، التي خلقت تقاليد حركة عمالية منظمة على أسس أممية .

في مقدورنا إذن أن نقول إن أصول « الأممية » كانت نقابية بالمعنى الضيق للكلمة . ولكن بين القلة القليلة المتربعة على المنصة أثناء ذلك الاجتماع المأثور في قاعة سان مارتان في لندن ، في الأسبوع الأخير من أيلول ١٨٦٤ ، رجل وسمت عبقريته بميسمها المشروع كله ورفعته إلى مستوى ما كان ليطمح في بلوغه بالقياس إلى أصله المتواضع . هذا الرجل كان كارل ماركس . وهو الذي كتب الخطاب الافتتاحي لـ « رابطة الشغيلة الأممية » ووضع ضوابط المنظمة الجديدة .

وثمة ظرف يثير الفضول : فلقد أسست هذه المنظمة بهدف إعلان فكرة المذهب الأممي وضرورة التضامن الأممي بين الشغيلة . ولكن الدافع المباشر الذي حدا بالمندوبين إلى الاجتماع في قاعة سان مارتان ، المسألة المباشرة التي ناقشوها بفصاحة وبلاغة كانت مسألة الدعم الواجب تقديمه ، التضامن المطلوب إبداؤه تجاه أمة كانت تكافح لا في سبيل الاشتراكية ، ولا حتى في سبيل إصلاح سياسي تقدمي ، وإنما في سبيل استقلالها . كان المؤتمر قد نُظم للتعبير عن تضامن الطبقات العاملة الغربية مع ثورة البولونيين المسلحة ضد روسيا القيصرية . وههنا بالضبط تكمن مفارقة الموقف الظاهرية : فما أثار حماسة الأممية الأولى وأهواءها كان عبارة عن مسألة قومية : كفاح شعب ناءٍ من شعوب أوروبا الشرقية ونضاله في سبيل وجوده القومي . هكذا نرى العلاقات المتبادلة بين النزعة الأممية والنزعة القومية ترتسم في الحركة العاملة منذ يوم ميلاد المنظمة الأممية الجديدة . ولم تكن هذه ، في الواقع ، المحاولة الأولى من نوعها لانشاء منظمة أممية ولا ينبغي لنا أن ننسى أن « البيان الشيوعي » الذي كتبه

ماركس وانجلز متعاونين في عام ١٨٤٨ ، انتهى بالنداء المأثور : يا شغيلة البلدان كافـة ، اتحدوا ! وبالفعل كـان الآلاف من العمال والعديد من الروابط وجمعيات الدعايـة يسعون منذ عشرات السنين لايجاد شكل من أشكال الارتباط الأممي فيما بينهم . ولم تأتِ هذه الجهود بشيء يستحق الذكر . وبعد انهيار ثورة ١٨٤٨ لبثت الحركة العاملة طوال خمسة عشر عاماً قابعة في جحرها ، أو مستسلمة بالأحرى إلى تلك الحالة من الانهيار والخور العميقين التي تعقب عـادة الهزيمة . بيد أن فكرة المذهب الأممي كانت قد رسخت جذورها في الوعي الاشتراكي . وسوف أعود إلى هذه النقطة فيما بعد . أما الآن فلنتفحص بمزيد من العناية الخلفيـة التي قامت عليها الأممية الأولى .

بعد هزيمة الثورة في أوروبا عرفت الرأسمالية — أي الرأسمالية الأوروبية الغربية وحدها تقريباً — مرحلة من التطور والتقدم الخارقين . وفي العام الذي شهد تأسيس الأممية الأولى تحدث وزير المال البريطاني ، غلادستون ، عن ذلك « النمو وذلك الازدياد المذهلين في ثرواتنا كافة وفي قوتنا » . ومن يقرأ هذا الخطاب يخيل اليه أنه يستمع إلى حديثٍ سياسيٍ من أولئك السياسيين المحافظين أو العماليين اليمينيين الذين راحوا يتبجحون في عـام ١٩٦٢ أو ١٩٦٣ بقولهم : إن وضعنا لم يكن قط بأفضل ممـا هو عليه الآن ! ما أعظمه من تقدم حققته دولتنا المسماة بدولة الوفرة ! وما أعتق وأقدم كل تلك الأفكار الثورية عن صراع الطبقات ! الخ ...

هذا ما كانه مناخ أوروبا الغربية في حوالي عـام ١٨٦٠ . ولم تكن الحركة العاملة قد أبلت وعاودت الانتصاب على قدميها بعد هزيمتها في ١٨٤٨ — ١٨٤٩ . وكان لا بد من انتظار عـام ١٨٦٤ حتى تتحرك النفوس من جديد على حين بغتة ، في انكلترا وفرنسا ، وبدرجة أقل ، في بلدان أخرى من أوروبا الغربية . ونحن نلقى بعض أصداء هذا المناخ

الجديد في مراسلات ماركس وانجلز وأصدقائهما . ولكننا إذا مـا اكتفينا بالملاحظات والاشارات التي تضمنتها هذه الرسائل للحكم على الظروف التي أحاطت بتأسيس « الأممية » ، فلن نجد بدأ من الاستنتاج بأن هذا المشروع ما كان يعدو أن يكون اكثر من حدث مثير للاهتمام ، ولكن متواضع نسبياً ، طرأ على الحياة السياسية لبعض الأوروبيين المهاجرين إلى لندن ممن كانوا على اتصـال بعدد ضئيل من ممثلي تجمعات عماليـة شتى في البر الأوروبي .

ولم ينضم ماركس إلى الحركة إلا على شيء من المضض ، فقد كان لا يشعر في نفسه برغبة في الارتباط بالفرق الصغيرة وحلقات المحرضين التي كانت لندن تعج بها . وكان ما يزال يذكر الغيظ الشديد الذي أثارته في نفسه مشاحنات إخوانه المهاجرين ، وكانت هذه السطور التي كتبها انجلز في عام ١٨٥١ ما تزال تحتفظ بكامل قيمتها حتى بعد مرور سنوات عشر : « كيف يستطيع أناس من أمثالنا ، يهربون من المناصب الرسمية هربهم من الطاعون ، أن يندمجوا في « حزب » ؟ » . وكان ماركس في حينه يؤثر أن يتفرغ لعمله ، « الرأسمال » ، الذي كان يعده عن حق اكثر أهمية بما لا يقاس . ولكن عندما قدم في أيلول ١٨٦٤ جماعة من الشغيلة الفرنسيين إلى لندن لدعوة الرفـاق الانكليز إلى تنظيم الدفاع المشترك ضد بورجوازيتهم ، أثّر فيه اندفاعهم وتصميمهم عظيم التأثير . وما ان انجرف في الحركة حتى أمدهـا بنسغ فكري دسم . وبالفعل ، كانت نزعة ماركس الأممية أعمق بكثير من نزعة سائر المساهمين .

كان للنزعة الأممية الاشتراكية منبعان . المنبع الأول التجربة العينيـة للشغيلة الذين كانوا يستشعرون ضرورة التعاون فيما بينهم من فوق الحدود دفاعاً عن مصالحهم وأجورهم وشروط عملهم . وكانت التجربة اليومية للعامل الذي يقف في المصنع جنباً إلى جنب مع عامل آخر اجنبي ، والذي

غالباً ما كان يبيع عمله بسعر بخس مكرهاً مرغماً ، كانت تجربته اليومية هذه تقوده إلى وعي وحدة مصالحه مع الآخر وتخلق لديه شكلاً غريزياً من النزعة الأممية . ولكن تاريخ الأفكار السياسية في أوروبا يكشف ، من مستوى مختلف ، عن منبع آخر للنزعة الأممية الاشتراكية ، منبع يربطها بالنزعة الكوسموبوليتية للثورة الفرنسية وشتى الحركات السياسية البورجوازية التي سارت في ركابها .

إن هناك صلة قربى تاريخية بين الكوسموبوليتية البورجوازية وبين ما نسميه بالأممية البروليتارية . ومن مفارقات الأشياء أن صلة القربى هذه لا تستبعد ، بل على العكس تفترض وجود نزاع بين النزعتين . فالحرية والمساواة والإخاء ، تلك المفاهيم التي كان يفترض فيها أن تكون حقائق واقعة بالنسبة إلى الفرنسيين منظوراً اليهم فرداً فرداً ، كانت تنعكس أيضاً على المسرح الأوروبي فتبدو في شكل رابطة مساواة وإخاء بين الأمم . ولكن هذه المساواة بين الأفراد في المجتمع البورجوازي لم يكن لها غير وجود شكلي وقانوني ، وليس اقتصادياً واجتماعياً . فقد كان البورجوازي والعامل الفرنسيان « متساويين أمام القانون » ، ويتمتعان نظرياً بالحقوق ذاتها . ولقد قال أناتول فرانس يوماً عن هذه المساواة : إن قانون الجمهورية الفرنسية ، على جلاله ومهابته ، لا يأذن لا للمليونير روتشيلد ولا للمتشرد الباريسي بالرقاد تحت جسور نهر السين .

ولقد كانت المساواة البورجوازية الكوسموبوليتية بين الأمم شكلية هي الأخرى . فالتاجر الحر ، والمستورد والمصدر ، والبائع والشاري ، يتمتعون بحقوق متساوية في السوق العالمية ، أياً تكن أوطانهم الأصلية . ولقد كان لهذا المفهوم دلالة معينة بالنسبة إلى بورجوازية الأقطار الصناعية الرفيعة التطور . ولكن أي مساواة حقة يمكن أن تقوم بين « ورشة العالم » وبين البلدان المستعمرة البدائية ، بين الأقوياء والضعفاء ، بين

روتشيلديي العالم ومتشرديه ، في عصر لا يجري فيـــه تعاطي التجارة إلا لصالح القوي وعلى حساب الضعيف ؟

بيد أن هذه الدعوة إلى المساواة والإخاء حثت بني الانسان على التفكير وعلى المطالبة بألا يكون هذا المفهوم محض مفهوم قانوني وشكلي ، بل بأن يكون أيضاً أقتصادياً واجتماعيـــاً . كما حفزت الكوسموبوليتية التي رفعت البورجوازية رايتها في أوائل القرن التاسع عشر العديد من المفكرين – وعلى رأسهم ماركس وانجلز – على تسليط الضوء على كل ما يترتب على هذه الفكرة من نتـــائج وعلى تطويرها إلى آخر منطقها : وهكذا انتقلوا من الكوسموبوليتية التي نادى بها التجار الأحرار من الأمم البورجوازية إلى أممية البروليتاريا الاشتراكية .

كان يكمن وراء كوسموبوليتية البورجوازية واقع محدد : المزاحمة بين التجار من شتى الأمم . وفي صفوف البروليتاريا كان يسود تنافس دائب وتسابق على الاستخدام . وكان التاجر البورجوازي يقاتل للاستئثار بالأسواق وبيبع منتجاته بما فوق قيمتها . وكان الشغيلة يتصارعون على الأماكن في المصنع ويبيعون عملهـــم بثمن في منتهى البخس . وكان ماركس وانجلز على وعي تام بهذا العنصر الواقعي وغير البنّاء في صفوف الطبقات العاملة، في مجتمع تصبغ روح المزاحمة جميع مظاهر حياته بصبغتها . ومـــا كان هذا الصراع لينتهي إلا بإلغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، أي إلغاء الرأسمالية . ولقد كان هدف الحركة العاملـــة الحديثة كبح روح التنافس بين العمال ، والسيطرة على تلك النزعـــة الفردية التي تجعل منهم فريسة سهلة للاستغلال الرأسمالي . كان الهدف ترسيخ روح التضامن فيهم ، لما في ذلك من فائدة لهم كطبقة من مختلف وجهات النظر . ذلـكم هو أصل النقابات وأصل الاشتراكية الحديثة و « الأمميـــة » . « يا شغيلة البلدان كافة ، اتحدوا ! » . إن هذا النداء لم يكن يستهدف غير الغاء المزاحمة

الضارة بين شغيلة كل قطر ، وعلى النطاق الأممي كذلك . ومن وجهة النظر هذه ما كانت النزعة القومية لتمثل غير روح المزاحمة المدمرة داخل صفوف الطبقات العاملة ، بينما كانت النزعة الأممية تمثل تضامنها المتخطي الحدود القومية .

وبهذا المعنى يمكننا القول إن الأممية الاشتراكية قد ولدت من كوسموبوليتية التجار ، وإنها تجاوزت في الوقت نفسه نواقصها وتغلبت عليها ، لتصير في خاتمة المطاف نفياً لها . إن الأممية الاشتراكية هي نقيض الكوسموبوليتية البورجوازية .

لقد قلت إن النزعة الأممية الماركسية تستقي جذورها من الكوسموبوليتية البورجوازية ، وإن هذه الجذور عميقة . فمنذ عام ١٨٤٨ وصف ماركس في « البيان الشيوعي » بحماسة لا سبيل إلى نكرانها المظهر التقدمي من الرأسمالية . فالرأسمالية بخلقها سوقاً عالمية ، وبهدمها أو تخطيها الحواجز الإقليمية أو الإقطاعية أو القومية ، وما تمثله من وحدات اقتصادية منفصلة ، وبتوسيعها أفق البورجوازية ، قد وسعت أيضاً أفق الطبقات الأخرى . ويخلص ماركس إلى القول بأن الاشتراكية ستتخطى الاقتصاديات القومية بمسافات لا تستطيع الرأسمالية أن تدركها أبداً . فهي ستخلق اقتصاداً أممياً ومجتمعاً يخطط ويعقّل حاجاته الذاتية وإنتاجه الذاتي واستهلاكه الذاتي على نطاق أممي . وكان آدم سميث قد وضع منذ نهاية القرن الثامن عشر لائحة بالأقطار المتعددة التي تأتي منها المنتجات التي يجدها الانكليزي (أو الإسكوتلندي) على مائدة فطوره . وكان قد اتضح منذ ذلك العهد أن التقسيم الأممي للعمل ضرورة لا غنى عنها لتجميع عناصر وجبة طعام دسمة . ولكم ستزداد أهمية تقسيم العمل هذا ورحابته وعظمته مع تطور الاشتراكية ! الحق أنه سيمتد إلى الكرة الأرضية قاطبة وسيشمل الانسانية بأسرها . وما أعلنه ماركس إنما هو ، بكلمة واحدة ، نهاية الدولة — الأمة . وهو لم

يكن يدرج هذه النهاية في الواقع السياسي لعصره ، بل كانت تتراءى له صورة مجتمع أممي جديد لا بد أن يرى النور ذات يوم فيحطم لا محالة الحواجز الضيقة والحدود القومية .

وههنا نجد أنفسنا ثانية أمام هذه المفارقة الظاهرية : فالمنتسبون إلى « الأممية الأولى » ، التي أعلن ماركس في خطاب تدشينها عن قدوم ذلك المجتمع الأممي الجديد ، لم يجتمعوا إلا بهدف التعبير عن تعاطفهم مع نضال البولونيين الذين كانوا يسعون جاهدين إلى إعادة خلق دولتهم القومية المستقلة . فمن جهة أولى كانت المنظمة تشدد اللهجة على الطابع البائد للدولة القومية وتعلن انحطاطها وموتها ، ومن الجهة الثانية كانت تطالب بإنشاء دولة جديدة وبمنحها استقلالها . ولم يكن مصير بولونيا هو وحده المطروح على بساط البحث على هذا النحو : فقد كانت ألمانيا تناضل في سبيل صهر إماراتها العديدة واتحادها ووضع حد للانقسام بين شطرها الخاضع لسلطة آل هابسبورغ[1] وشطرها المحكوم من قبل آل هوهنزولرن ، كما كانت إيطاليا تقاتل في سبيل استقلالها وتوحيدها القومي . وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى سائر البلدان الصغيرة في اوروبا الشرقية والجنوبية الشرقية . كان شطر كبير من القارة الأوروبية إذن يكافح في سبيل إدراك مرتبة الدولة والأمة المستقلة . وهذه المفارقة الظاهرية لا تجد تفسيرها إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن ماركس وإنجلز والاشتراكيين من جيلها كانوا ينطلقون من مبدأ ينص على أن المجتمع الاشتراكي الأممي لن تقوم له من قائمة إلا بالمشيئة الحرة للأفراد الذين سيتألف منهم ، وعلى أن الطريق إليه يمر بداهة باستقلالهم وبانعتاقهم من كل اضطهاد وبتحقيقهم صبواتهم القومية . وبعبارة واحدة ، إن الشعوب القادرة على خلق دولة خاصة بها

---

[1] السلالة المالكة في الإمبراطورية النمسوية – المجرية . « المعرب »

هي وحدها التي تستطيع أن تتخلى بملء إرادتها – لا تحت الإكراه – عن الدولة – الأمة .

وبعد أكثر من نصف قرن من الزمن أقام لينين ، بما عرف عنه من موهبة خارقة في التبسيط التعليمي ، توازياً بين ذلك الموقف ... وبين حق المرأة في الطلاق . فقد قال : إن من الواجب أن تكون كل امرأة حرة في هجر زوجها ، ومفروض على الاشتراكيين وحتى على الليبيراليين التقدميين أن يساعدوها على انتزاع هذه الحرية . ولكن هذا لا يعني أن من اللزام علينا إقناع جميع النساء باللجوء إلى الطلاق . ويتابع لينين قائلاً : كذلك فإننا لن نبادر إلى تحريض جميع الأمم على إنشاء دولتها الخاصة بها ، ولكننا ملزمون بأن نعترف لكل أمة بحقها في أن تفعل ذلك . إن مهمتنا كماركسيين هي العمل على بناء المتحد[1] الاشتراكي الأممي . ولكن من مهمتنا أيضاً مؤازرة الكفاح الذي تشنه جميع الأمم المضطهدة في سبيل استقلالها القومي ، وكفاح الأقطار المستعمرة ونصف المستعمرة التي يستغلها الرأسمال الأجنبي . ولكن التباهي بالدولة – الأمة ، والسعي إلى تخليدها وتأبيدها ، وتحويلها إلى صنم يعبد ، موقف فيه من الرجعية والتمسك بالقديم والمغالطة التاريخية ما لا يحتاج إلى بيان . إن من يحبس فكره في الإطار الضيق للأمة – الدولة يصبح أسير الماضي بدلاً من أن يتقدم باتجاه المستقبل .

كان ماركس واعياً لواقع أن الرأسمالية الصناعية الوليدة قد شرعت تخلق الشروط المادية الضرورية لتنظيم فوقومي[2] للمجتمع . وقد كتب هو وانجلز في عام ١٨٤٨ : « بدلاً من العزلة القديمة بين المقاطعات والأمم

---

١ communauté .

٢ أي ما فوق قومي . « المعرب »

يكن يدرج هذه النهاية في الواقع السياسي لعصره ، بل كانت تتراءى له صورة مجتمع أممي جديد لا بد أن يرى النور ذات يوم فيحطم لا محالة الحواجز الضيقة والحدود القومية .

وهنا نجد أنفسنا ثانية أمام هذه المفارقة الظاهرية : فالمنتسبون إلى « الأممية الأولى » ، التي أعلن ماركس في خطاب تدشينها عن قدوم ذلك المجتمع الأممي الجديد ، لم يجتمعوا إلا بهدف التعبير عن تعاطفهم مع نضال البولونيين الذين كانوا يسعون جاهدين إلى إعادة خلق دولتهم القومية المستقلة . فمن جهة أولى كانت المنظمة تشدد اللهجة على الطابع البائد للدولة القومية وتعلن انحطاطها وموتها ، ومن الجهة الثانية كانت تطالب بإنشاء دولة جديدة وبمنحها استقلالها . ولم يكن مصير بولونيا هو وحده المطروح على بساط البحث على هذا النحو : فقد كانت ألمانيا تناضل في سبيل صهر إماراتها العديدة واتحادها ووضع حد للانقسام بين شطرها الخاضع لسلطة آل هابسبورغ[1] وشطرها المحكوم من قبل آل هوهنزولرن ، كما كانت إيطاليا تقاتل في سبيل استقلالها وتوحيدها القومي . وكذلك كانت الحال بالنسبة إلى سائر البلدان الصغيرة في اوروبا الشرقية والجنوبية الشرقية . كان شطر كبير من القارة الأوروبية إذن يكافح في سبيل إدراك مرتبة الدولة والأمة المستقلة . وهذه المفارقة الظاهرية لا تجد تفسيرها إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن ماركس وإنجلز والاشتراكيين من جيلهما كانوا ينطلقون من مبدأ ينص على أن المجتمع الاشتراكي الأممي لن تقوم له من قائمة إلا بالمشيئة الحرة للأفراد الذين سيتألف منهم ، وعلى أن الطريق إليه يمر بداهة باستقلالهم وبانعتاقهم من كل اضطهاد وبتحقيقهم صبواتهم القومية . وبعبارة واحدة ، إن الشعوب القادرة على خلق دولة خاصة بها

---

١ السلالة المالكة في الإمبراطورية النمسوية – المجرية . « المعرب »

هي وحدها التي تستطيع أن تتخلى بملء إرادتها – لا تحت الإكراه – عن الدولة – الأمة .

وبعد أكثر من نصف قرن من الزمن أقام لينين ، بما عرف عنه من موهبة خارقة في التبسيط التعليمي ، توازياً بين ذلك الموقف ... وبين حق المرأة في الطلاق . فقد قال : إن من الواجب أن تكون كل امرأة حرة في هجر زوجها، ومفروض على الاشتراكيين وحتى على الليبيراليين التقدميين أن يساعدوها على انتزاع هذه الحرية . ولكن هذا لا يعني أن من اللزام علينا إقناع جميع النساء باللجوء إلى الطلاق . ويتابع لينين قائلاً : كذلك فإننا لن نبادر إلى تحريض جميع الأمم على إنشاء دولتها الخاصة بها، ولكننا ملزمون بأن نعترف لكل أمة بحقها في أن تفعل ذلك . إن مهمتنا كماركسيين هي العمل على بناء المتحد[1] الاشتراكي الأممي . ولكن من مهمتنا أيضاً مؤازرة الكفاح الذي تشنه جميع الأمم المضطهَدة في سبيل استقلالها القومي، وكفاح الأقطار المستعمَرة ونصف المستعمَرة التي يستغلها الرأسمال الأجنبي. ولكن التباهي بالدولة – الأمة ، والسعي إلى تخليدها وتأبيدها ، وتحويلها إلى صنم يعبد ، موقف فيه من الرجعية والتمسك بالقديم والمغالطة التاريخية ما لا يحتاج إلى بيان . إن من يحبس فكره في الإطار الضيق للأمة – الدولة يصبح أسير الماضي بدلاً من أن يتقدم باتجاه المستقبل .

كان ماركس واعياً لواقع أن الرأسمالية الصناعية الوليدة قد شرعت تخلق الشروط المادية الضرورية لتنظيم فوقومي[2] للمجتمع . وقد كتب هو وانجلز في عام ١٨٤٨ : « بدلاً من العزلة القديمة بين المقاطعات والأمم

---

١ communauté .

٢ أي ما فوق قومي . « المعرب »

الكافية نفسها بنفسها تتطور علاقات عالمية ، تبعية عالمية متبادلة بين الأمم[1] » .
واليوم فقط ، وبعد تأخر دام أكثر من ١٢٠ عاماً ، هبّ سياسيّونا ، وقد أقروا أخيراً بهذه « التبعية المتبادلة بين الأمم » ، يحاولون على نحو أخرق إنشاء تلك السوق الأوروبية المشتركة[2] التي يرفعونها إلى الأوج والتي لا تستطيع أن ترسي جذورها ، بالرغم من جهودهم ، في الرمال المتحركة للمزاحمة الأوروبية . ولا مراء في أن هناك اندفاعاً غريزياً باتجاه التوسع الأممي للرأسمالية ، يخبط خبط عشواء ، بحركات نزوية ، وينحط تحت أنظارنا إلى أمبريالية أو « أمبريالية جديدة » كما يقال ، فتتحول بذلك « التبعية العالمية المتبادلة بين الأمم » إلى غزو وسيطرة اقتصادية على الضعاف من قبل الأقوياء . إن السوق الأوروبية المشتركة ، إذا ما قامت لها قائمة ذات يوم ، لن تكون إلا صورة كاريكاتورية لذلك التعاون الحقيقي ولذلك التقسيم الأممي للعمل اللذين ستأخذ الاشتراكية على عاتقها ، يوم تنتصر ، تطويرهما بوعي وحرية على صعيد العالم بأسره .

ومن السهل علينا بعد هذا أن نمسك بالخيوط المتنابذة أو المتوازية التي قادت جميعها إلى تأسيس « الأممية الأولى » : ضرورة التضامن الأممي الملموسة لمس اليد ووعي الشغيلة لها ، الأفكار المتولدة عن الثورة الفرنسية ، الكوسموبوليتية البورجوازية ، تطور الاقتصاد الكلاسيكي الذي كان يعمل باتجاه اقتصاد أممي وتقسيم أممي أيضاً ... وكذلك باتجاه الاشتراكية . ذلكم ما كانه المضمون الفكري والأخلاقي ، إذا جاز التعبير ، (« الأممية الأولى » ومقدماتها النظرية) .

لن أسرد ههنا تاريخ « الأممية الأولى » . فهي لم تنجز ، من وجهة نظر « السياسة الملموسة » ، شيئاً يستحق الذكر . فلقد مزقتها المساجلة

---

١ « البيان الشيوعي » . « المعرب »
٢ لا ننسى أن دويتشر ألقى محاضرته هذه في أواخر عام ١٩٦٤ . « المعرب »

التي كانت قائمة بين الماركسيين والفوضويين . وقد اتهمتها شرطة باريس بأنها دبرت ونظمت عامية باريس . ولكن هذه التهمة كانت كاذبة ، وإن يكن المنتسبون إلى « الأممية » قد شاركوا في العامية . على ان هزيمة العامية قد أدت مع ذلك إلى انحلال « الأممية الأولى » . والحق أن هذه المنظمة لم تعدُ أن تكون أكثر من حركة محدودة النطاق في نظرنـا وفي نظر التاريخ . فهي ما كانت تملك حتى وسائل الدعاية المتواضعة التي كانت تملكها يومئذ الأحزاب الصغيرة ، ولكننا مدينون لها مع ذلك بأول إعلان كبير عما سيصير مبدأ أساسياً : مبدأ المذهب الأممي .

لقد قضت « الأممية » نحبها في ميعة الصبا ، ولكنها تركت وراءها نداء قوياً ما يزال صداه يترجع بين الطبقـات العاملة في أوروبا والعالم قاطبة : يا شغيلة جميع البلدان ، اتحدوا ! وقد قَوْلبت وصيتها فكر المثقفين الثوريين واليساريين في العالم قاطبة . والحق أن المبدأ الذي شهرته « الأممية الأولى » كان أكبر وأهم منها بكثير ، وكان هذا هو انتصارها الحقيقي الوحيد .

حققت الحركة العاملة ، إبان الأعوام العشرين التي أعقبت انحـلال « الامية الاولى » تقدماً ملموساً في جميع أرجاء أوروبا تقريباً . فلأول مرة رأت النور في ألمانيا منظمة حديثة للشغيلة . وازدادت الاحزاب العمالية في فرنسا وايطاليـا وإسبانيا قوة وبأساً . وبالرغم من ذلك – أو بسبب ذلك – لم يكن هناك وجود لاي منظمة أممية . والفرنسيون والبلجيكيون هم الذين أطلقوا في عـام ١٨٨٩ فكرة إنشاء « أممية ثانية » . ويعد فريدريك انجلز في ميثولوجيا الاشتراكية رائدها الحقيقي . فقد كان يُقابل بالتصفيق الحار والهتاف بوصفه صديق ماركس ومتابع عمله . ولا ريب في أن الإغراء كبير في تصوير نبي الاشتراكية الجليل بأنه عراب المنظمة

الجديدة . ولكننا إذا ما قرأنا مراسلات إنجلز الخاصة مع لورا وبول لافارغ ، لاحظنا أنه كان ينظر بلا حماسة كبيرة إلى اقتراب موعد انعقاد المؤتمر الاشتراكي الاممي الذي كانت العدة تعد له بحمية في باريس . وقد أتى عابراً ، في رسالة موجهة إلى لورا (ابنة ماركس) وتاريخها يرجع إلى ثلاثة اسابيع على الاقل قبل الحدث ، بذكر « مؤتمركم الشهير » ، وعارض كل مشروع – كان هناك بلا مراء مشروع من هذا القبيل – يرمي إلى « إبقاء الجلسات الإدارية سرية » . وقال : إن الالمان يفضلون بلا أدنى شك أن تكون الجلسات كافة علنية « اللهم إلا إذا كانت بعض الاوساط لا تشعر في نفسها بالرغبة في إحياء الاممية بشكل أو بآخر » . إنهم سيعارضون ذلك ، ومعهم النمسويون ، بكل ما أوتوا من قوة . هذا عليهم واجب . ويتابع إنجلز قائلاً : إنهم لا يستطيعون أن يبيحوا لانفسهم « التلهي بإنشاء منظمات أممية هي في الوقت الراهن متعذرة بقدر ما هي لا مجدية » (المجلد ، ص ٢٩٢) .

ومع ذلك نمت « الأممية » وكبرت وتوسعت توسعاً مرموقاً . ولقد كانت على امتداد ربع قرن من الزمن ، من ١٨٨٩ إلى عام اندلاع الحرب العالمية الأولى ، منظمة مهيبة الجانب وذات وزن ونفوذ . ولقد كتب لينين في عام ١٩١٩ يقول إنه إذا كانت « الأممية الأولى » قد غطت حقبة تقدمت فيها الاشتراكية رأسياً ، فإن « الأممية الثانية » قد ضمنت للاشتراكية التوسع الأفقي . وكانت « الأممية الثانية » تبدو في ظاهرها وريثة « الأولى » : فقد كانت تبشر بالفكرة ذاتها وبالبرنامج الثوري نفسه . ومن هذه الزاوية ترجع جذور المنظمتين إلى تقاليد ١٨٤٨. كما كانت « الأممية الثانية » تشهر جميع رموز وشعارات الوحدة البروليتارية ؛ وتتغنى بإخاء العمال ، وتتكلم باسم شغيلة جميع الأقطار والعالم قاطبة . بيد أن هذا كله لم يكن ، كما اتضح فيما بعد ، غير طلاء رقيق يحجب نزعة قومية عميقة .

لقد انهارت « الاممية » من الايام الاولى للحرب في عام ١٩١٤[1] . فلقد تحولت جميع الاحزاب الرسمية المنتمية إليها ، باستثناء الحزبين الروسي والبولوني ، إلى أحزاب اشتراكية ـ وطنية واشتراكية ـ شوفينية على حد تعبير روزا لوكسمبورغ . فقد كانت اشتراكية بالكلام ، وشوفينية عتيدة في الواقع . وقد اطَّرح قادة الاشتراكية الاوروبية لفظيتهم الاممية المعادية للنزعة العسكرية جانباً ، وطالبوا الطبقات العاملة بالقتال لصالح امبراطور «ها» وحكومة « ها » وجنرالات « ها » .

إن ما طوَّح بـ « الأممية الثانية » (وإن كانت ما تزال على قيد الحياة إلى اليوم بعظام منخورة) هو هيمنة حزب واحد ، الحزب الاشتراكي ـ الديموقراطي الالماني ، على مجمل المنظمة[2] . فقد كان هـذا الحزب يتولى الإشراف على « الاممية » ، وهنا كان يكمن التناقض الداخلي الذي نسف البنيان كله ، كشحنة من الديناميت ، عندما أطلقت أول رصاصة في ساحة القتال في ٤ آب ١٩١٤ . ولقد كان انجلز قد وجه إلى لافارغ بعد أربعة أعوام من ميلاد « الاممية الثانية » هذا التحذير : « إن انعتاق البروليتاريا لا يمكن أن يكون إلا حدثاً أممياً . ولسوف تجعلونه بحكم المستحيل إذا حاولتم أن تقصروه على حـدود فرنسا » . وحتى ذلك « التأريخ المأوساوي النتائج » كان كل شيء يجري وكأن الاشتراكية ـ الديموقراطية الالمانية القوية قد أخذت على عاتقها تحقيق انعتاق البروليتاريا « بقصره

---

١ بددت الحرب دفعة واحدة المثل العليا الثورية التي استمدت منها « الأممية » قوتها : هذا ما كتبه يوليوس براونتال ، سكرتير الأممية الثانية ، الذي كان ليوم ٤ آب ١٩١٤ في نظره « دلالة مأساوية » في تاريخ الإشتراكية (« تاريخ الإشتراكية » ـ المجلد الثاني) .

٢ كتب تروتسكي من زيوريخ في أيلول أو تشرين الأول ١٩١٤ « إن الحزب الإشتراكي ـ الديمقراطي الألماني كان بالنسبة الينا حزب « الأممية » لا أحد أحزابها » .

على حدود ألمانيا » .

إن انتصار النزعة القومية داخل « الاممية الثانية » لم يكن وليد الصدفة، وإنما كان انعكاساً لتطور الرأسمالية وتوسعها ، الرأسمالية التي حملت ظاهراً من رخاء إلى شغيلة البلدان المتقدمة وأتاحت إمكانية تحسن نسبي في مستوى حياتهم . وكانت الاشتراكية البرلمانية ، والنزعة النقابية ، والمساومـات السلمية ، والفكرة الراسخة في أذهاننا والقائلة « إننا تعلمنا كيف نسيّر شؤوننا الاقتصادية » ، تربط الحركة العاملة بالدولة – الأمة برباط كان لا ينِي يتوثق يوماً بعد يوم ، كما تربطها اليوم بما نسميه بمجتمع الوفرة. ولكن هذه الحركة العاملة عينها تعرضت على حين غرة ، عندما نشبت الحرب ، لامتحان قاسٍ للغاية ، فكان الفشل الذريع . ولم يستطع لينين أن يصدق أن تلامذة ماركس وإنجلز ، الاشتراكيين الالمان ، بتنظيمهم « المثـالي » وبالاعداد الهائلة من المنتسبين إلى حزبهم ، قد نكثوا بجميع التزاماتهم ، وتخلوا عن المذهب الاممي ، واصطفوا إلى جانب قيصر ألمانيا، وراحوا يحرضون العمال على الانغماس في حرب مقدسة ضد روسيا. كلا، لم يستطع لينين أن يصدق ذلك . وكاد أن يصاب بانهيار عصبي . ولقد كان تداعي آماله جميعاً صدمة بالغة العنف له حتى إنه فكر لهنيهة مـن الزمن بهجر السياسة نهائياً وبالرحيل إلى الولايات المتحدة ، تماماً كما فعل بعض الثوريين الاوروبيين بعد هزيمة ١٨٤٨ . ولكن أزمات ثبوط الهمة هذه ما كانت تدوم طويلاً لدى لينين. وهكذا أشرع قلمه ليزيح النقاب عن انتهازية قادة الحزب الالماني وجبنهم. وصب جام غضبه على كاوتسكي، المرتد ، وصاح بملء عقيرته : هل كانت « الاممية الثانية » غير منظمة تستهدف « التبرير الاممي للشوفينية القومية » ؟ هل كان قيصر ألمانيـا سيسجن أو سيعدم الاشتراكيين – الديموقراطيين لو صوتوا ضد اعتمادات الحرب ؟ حسناً ، لنفرض ذلك ! ولكن ما مهمة القادة العماليين ؟ أليس من واجبهم ، في أصعب اللحظات على وجه التحديد ، حين يكون مصير

الشعوب في الميزان ، أن يشيروا إلى الطريق الصحيح ، ولو ضحوا بحياتهم ؟

وراح لينين وتروتسكي يفكران ، بعد مضي أشهر قليلة على بداية الحرب ، بتأسيس أممية جديدة . فقد قضت « الثانية » نحبها في ظروف مخزية . وما عاد هناك مجال لإنقاذ « مزوري الماركسية الشوفينيين » ، فقد أغرقوا مجمل المنظمة في حمأة النزعة الوطنية القومية . ولم يبق هناك غير مهمة بناءة واحدة تنتظر الإنجاز : تجميع « القوى الضرورية لإنشاء أممية ثالثة » .

ولكن قبل أن يتم تجميع هذه القوى ، كان هزيم الثورة الروسية قد هز العالم . وكان اشتراكيو البلدان الحليفة سادرين طوال فترة الحرب في متابعة لعبة المؤتمرات والتصريحات الطنانة . وحذا اشتراكيو الدول المركزية حذوهم . وفي حين كان الاشتراكيون المجتمعون في لندن يصرحون بأنه لا بديل عن « متابعة الحرب حتى نهايتها المريرة » ، كان الاشتراكيون المجتمعون في فيينا يؤكدون عزمهم وإصرارهم على الذود بكل قواهم عن الوطن الام . وكان لا بد من انتظار اجتماع زيمرفالد في أيلول ١٩١٥ ليبذل أول مجهود يسير لإحياء التضامن البروليتاري بين الامم المتحاربة بمعزل عن « الاممية » المهترئة .

وعندما هبت عاصفة ١٩١٧ الكبرى لم يكن هناك وجود لأممية . بيد أن الحاجة الى المذهب الأممي كانت على أشدها . ودوى من جديد ، ولكن من أقصى أصقاع أوروبا هذه المرة، من روسيا المتأخرة ، نداء : « يا شغيلة جميع البلدان ، اتحدوا ! » .

في عام ١٩١٩ أخذ لينين وتروتسكي وبوخارين وزينوفييف وبلاشفة آخرون على عاتقهم انتزاع الحركة العاملة الأوروبية من إسارها الاشتراكي –

الوطني وإحيــاء الوعي الأممي الثوري فيها . وبمبادرة من لينين أسسوا « الأممية الثالثة » . وقد عارضت روزا لوكسمبورغ هذه المغامرة حتى آخر يوم في حياتها ، يوم استشهادها . فالحركة العاملة الأوروبية لم تكن في تقديرها قد نضجت بما فيه الكفاية لهضم هذه الفكرة ولاتخاذها أساساً لأفعالهــا . وفي شروط كهذه لا يمكن للمرء أن يؤكد غير شيء واحد وهو أن «الأممية» الجديدة ستسقط من جديد تحت سيطرة حزب واحد ، حزب الثورة الاشتراكية المعقود لها لواء النصر. ولقد كانت هيمنة الحزب الألماني داخل «الأممية الثانية» عامل ضعف . وحين انهار أقوى مركبات المنظمة انهار معه البنيان بأسره . بيد أن لينين ورفاقه كانوا على قنــاعة راسخة بأنه لا بديل عن إعلان مبــدأ الأممية من جديد اذا كانت هناك رغبــة حقيقية في إيقاظ الحركة العاملة من سباتها . ولكن حرصهم على إنشاء أممية ثالثة كان لــه دافع آخر . فقد كانوا يودون أن يضيفوا إلى بنيانها عنصراً جديداً : فهي في نظرهم ليست محض وسيلة لتوحيد عمال جميع الأقطار، وإنما ينبغي أن تكون أيضاً هيئة الأركان السياسية العامة للثورة الأوروبية القادمة . وبالفعل ، لم تكن الانتفاضة الروسية في نظرهم غير مقدمة لا بد أن يعقبها بسرعة ، وبسرعة كبيرة ، فصل جديد في النضال ضد الرأسمالية، وكانوا يقدرون أن لا غناء عن إنشاء هيئة أركان سياسية عامة تخطط وتنظم نشاطات الجماهير العمالية الثورية، وتنسق الأوامر والشعارات ، وتضع أخيراً الأسس لانضباط أممي يكون له الرجحان على المصالح القومية النابذة وعلى المطامح والصبوات المحلية أو الإقليمية . ولقد ساد الاعتقاد لفترة من الزمن بأن هذه الآمال صائرة فعــلاً الى حقيقة واقعة . فقد عرفت المشاعر الأممية إبان الحقبة التي أعقبت الثورة الروسية تجدداً خارقاً في الحيوية . وقــد يصعب من وجهة نظرنا نحن أن نسلم بذلك ، ولكن اذا ما تذكرنا أن رجلاً معتدلاً وميالاً الى اليمين مثل

إرنست بيفان [1] – بيفان عينه الذي صار في أواخر حياته من أشرس أنصار الحرب الباردة – كان يحرّض عمال الموانىء الانكليز على الإضراب للحيلولة دون شحن الأسلحة والذخائر التي كانت ستستعمل ضد البلاشفة، أمكننا أن نقدّر حق التقدير التأثير الذي كان لإنشاء أول دولة للشغيلة على رفاقهم الغربيين .

وربما ساهمت « الأممية الثالثة » في توحيد مختلف جماعات الاشتراكيين الثوريين ، ولكنها توارت وزالت من دون أن تصنع أكثر من ذلك بكثير . فما علة فشلها ؟

إن العامل الرئيسي في هذا الفشل كان ذاك الذي توقعته وتخوفت منه روزا لوكسمبورغ : هيمنة حزب واحد . فالحزب الروسي المنتصر تولى آلياً مهمة توجيه « الأممية » ، وخنق على مر السنين التقدم والإيقاع المستغلين للحركة الشيوعية خارج الاتحاد السوفياتي وداخله على حد سواء .

إن نزعة قومية جديدة ، نزعة قومية ما بعد رأسمالية ، ما بعد ثورية قد تجسدت في أيديولوجيا تشدّد اللهجة على الطابع الاستكفائي للثورة الروسية . وبالفعل ، وجدت دولة الشغيلة الأولى، الحبيسة وراء « الحزام الصحي » ، المعزولة تحت ضغط جميع القوى العالمية المناهضة للثورة ، وجدت نفسها مكرهة على انتهاج سياسة الاستكفاء الذاتي . وحتى يسهل عليها تحمّل هذه الضرورة المريرة ، صُورت لها على أنها فضيلة . وقد وجد هذا الموقف تعبيره النهائي في مذهب الاشتراكية في بلد واحد الذي أعلنه ستالين ، وأمسى عقيدة مؤاسية فيها ما فيها من العزاء عن خيبة الأمل الناجمة عن فشل الثورة في الغرب . وعبثاً حاول المذهب الجديد أن يتجمل بذرائع وصيَغ شبه جدلية وشبه ماركسية، ولكن ذلك لم يكن إلا صيحة من قلب مجتمع ضعيف واهن وُلد لتوّه . وقد أمد وعد

---

[1] إرنست أو آنورين بيفان : من زعماء حزب العمال البريطاني . « المعرب »

ستالين ، وعد الاشتراكية في بلد واحد ، بدوره الأنانية ومركزية الذات القومية بالغذاء والدم،وحمل روسيا على معاملة الشيوعية الأجنبية باستخفاف أو على استخدامها كعملة قابلة للتحويل في صفقاتها الدبلوماسية مع الدول البورجوازية الغربية .

إن « الأممية الثـالثة » ، التي اقترن تأسيسها بهزيم الثورة الروسية المدوي وصاعقتها ، قد مزق ستالين أوصالها ودفنها في مساوماته الدبلوماسية مع تشرشل وروزفلت في عام ١٩٤٣ . ذلكم هو منطق الأشياء المحتوم الذي يعلمنا بأن النزعة القومية ، اذا ما كتبت لها الغلبة فلا بد أن تسحق الأممية وتدفنها تحت التراب أو تدوسها بلا شفقة . هذا ما كانه مصير الأممية الأولى والثانية . وهذا ما آلت إليه أيضاً الأممية الثالثة .

في عام ١٩٣٣ ، وبعد ارتقاء هتلر سدة السلطة ، ارتأى تروتسكي أن « الأممية الثالثة » قد أفلست، مثلها مثل « الأممية الثانية » . فالشغيلة الألمان ما كانوا، كما زعم الكومنترن جاداً ، «على عتبة معارك كبرى»: فقد كانت هزيمة ماحقة قد نزلت بهم . وقال تروتسكي إن الستالينية قد جازت هي الأخرى بإخفاق المحنة التي أودت بحيـاة الاشتراكية — الديموقراطية في « ٤ آب ١٩١٤ » . وقد قادته هذه المقارنة الى استنتاج محتوم : لقد آن الأوان ، كما في عام ١٩١٤ ، لإعداد العدة لبناء منظمة أممية جديدة بعد أن تقوض حـدة القديمة . ولكنه كان شديد التردد : إذ ما كان سهلاً عليه أن يدير ظهره لـ « هيئة الأركان العامة للثورة العالمية » التي كان واحداً من مهندسيها البارزين . وقد لاحظ هو نفسه أنه اذا كانت « الأممية الثانية » قـد خانت عن وعي في عام ١٩١٤ جميع مثلها العليا ، فإن الكومنترن قد مهد الطريق للانتصار الفاشي سنة ١٩٣٣ بتهاونه وعماه .

كانت خطة «الأممية» الجديدة تنضج نضجاً وئيداً في خلد تروتسكي .

ولم يبادر الى دعوة أعضائها المؤسسين الى الاجتماع إلا بعد أربعة أعوام من العمل والدعاية (وهي نفس المدة التي انقضت بين اللحظة التي فكر فيها هو ولينين للمرة الأولى بإنشاء أممية ثالثة في عام ١٩١٥ ، وبين قيام هذه المنظمة) . ولكن « الأممية الرابعة » قضت نحبها في المهد ، لأنه لم يكن هناك من وجود لأي حركة ثورية أممية لتنفخ فيها الحياة . وقد وجدت « أممية » تروتسكي نفسها ، من دون أن تقع تبعة ذلك عليها ، مقطوعة الصلات بالمنطقة الوحيدة في العالم التي حدثت فيها ثورة مظفرة ما تزال عروقها تنبض بالحياة وإن احتكرتها وشوهتها بيروقراطية مستبدة كذابة . ويصح بمعنى من المعاني أن نقول إن تروتسكي قد تنبأ بنفسه بالعامل الرئيسي الذي سيقضي على منظمته بعدم الفعالية ، وذلك عندما لاحظ أن الشغيلة الثوريين في جميع أقطار العالم ما يزالون يبحثون في موسكو عن الإلهام والنصائح، بالرغم من تخبط السياسة الستالينية وتناقضها في ألمانيا وغير ألمانيا .

يخلق بنا الآن أن نتوقف ملياً عند واحدة من المفارقات الصارخة في تاريخ الأمميات . فكما أن الثورة الروسية حدثت في عصر لم يكن فيه وجود لأي « أمميه » ، كذلك قامت الثورة الصينية على مرأى من عيوننا في وقت كانت فيه « الأممية » الثالثة قد ووريت التراب ، و « الرابعة » قد أجهضت ، وخلا الساح من كل منظمة أممية ثورية . ولقد عرف عصرنا انقلابين اجتماعيين هائلين كان لهما أثرهما على مصير ٨٠٠ مليون نسمة . ولقد حدث الانقلابان في زمن ما كان فيه وجود لأي « هيئة أركان عامة » لترشدهما ولتسدي إليهما النصح ولتنسقهما . ولقد حدثا داخل إطار قومي ترعرعت فيه الثورة وتخطت حدود الأيديولوجيا القومية، ثم باتت عرضة لصراع جديد بين عناصر النزعة القومية والنزعة الأممية المتناحرتين .

ولن نتعرض في إطار دراستنا هـذه للموجات الجديدة من النزعة القومية التي تتجلى داخل صفوف الحركة العاملة الغربية . فهي ليست إلا استمراراً ، بمعنى من المعاني ، للموجة التي أغرقت كل شيء في عام ١٩١٤ . وليس هناك من كبير خلاف ، من منظور النوع والكيف ، بين النزعة القومية للأحزاب الاشتراكية – الديموقراطية اليوم وبين نزعتها الوطنية الاجتماعية في عام ١٩١٤ . كذلك فإن النزعة الأممية في المعسكر الشيوعي في العصور الستاليني وما بعد الستاليني ، والخروتشيفي وما بعد الخروتشيفي ، كانت بقدر أو آخر نزعة زائفة تعكس ظرفاً محدداً ليس إلا : نزعة تمليها حالة العلاقات الدبلوماسية بين روسيا والغرب .

إننـا نشهد الآن في الصين وروسيا وأوروبا الشرقية انبعـاث النزعة القومية . ولكننا نشعر في الوقت نفسه بأن النزعة الأممية ينمو ريشها من جديـد . والتجاذب بين هاتين النزعتين ، الصراع الأزلي بين الأنانية القومية والتضامن الأممي لا يني يزداد بروزاً وجلاء يوماً بعد يوم .

إن موجة النزعة القومية هي بلا جدال واحدة من نتائج الستالينية . ولقد كان لينين وهو يصارع المرض الذي أودى بحياته قد أدان الستالينية واصفاً إياهـا بأنها « درجيموردا »[1] : الطاغية ، الفظ ، الشرس ، الذي يعيد إلى الأذهان العهد القيصري القديم . لقد عـاد درجيموردا ، مفعماً بالكبرياء الروسية – الكبيرة وبالشوفينية ، ليهين ويركل بقدمـه الأمم الصغيرة التي كان ردها على ذلك نزعة قومية حادة ، موتورة إلى حد مرضي أحياناً ، ولكنها في جميع الاحوال مفهومة . هذا الشعور بالاضطهاد يتساوى فيـه الشيوعيون وغير الشيوعيين على حد سواء ، الى درجـة

---

١ كان ذلك في ما سمي بوصيته ، أي في مذكراته التي أملاها قبل انطفاء الحياة فيه . . ودرجيموردا اسم شرطي في كوميديا الكاتب الروسي الكبير غوغول « المفتش » أصبح رمزاً لكل ظالم مستبد وقح . « المعرب »

لا يتوانون معها عن إعلان تضامنهم فيما بينهم . وهذا ما يفسر أحداث عام ١٩٥٦ في بولونيا والمجر . ذلك أن درجيموردا ، المأمور الروسي – الكبير المستبد الذي تحدث عنه لينين ، كان ما يزال قابعاً في جلد خروتشيف ، بالرغم من موقفه الاشد اعتدالاً بكثير ، عندما ألغى على حين غرة كل المعونة المالية التي كان يقدمها إلى الصين ، فأوصل بذلك الاقتصاد بأسره إلى حافة الانهيار . وحتى هذا كان قلب لينين يحدثه به عندما كتب على فراش موته بصدد « القوميات » : إذا سلكنا مسلك الدركي الروسي القديم ، مسلك المأمور الروسي المستبد القديم ، فإننا سندفع عاقبة ذلك في الصين ، سندفعها في الهند ، سنلحق الضرر والاذى بأنفسنا ، لأننا سنلطخ سمعتنا في نظر جميع أمم آسيا التي هي الآن في سبيلها إلى الاستيقاظ . ولكن تحذير لينين لم يلق – وما يزال لا يلقى – آذاناً صاغية.

ولكن لا بد أن نضيف أنه حتى لو كان الحكام في موسكو وبكين أمميين لا غبار عليهم جميعاً ، لواجهوا في الثورة الاشتراكية الممتدة على مساحة شاسعة من الكرة الأرضية والشاملة لشطر كبير للغاية من البشرية مشكلة بالغة الصعوبة ذات أبعاد هائلة ومستتبعات مأساوية في غالب الأحيان. فهناك من جهة أولى التشيكيون والألمان الشرقيون والروس بمستواهم الحياتي المرتفع ، وهناك من الجهة الأخرى الفيتناميون والصينيون الذين ما يزالون يرزحون تحت وطأة فقر وجهل سحيقي القدم . وهذه المجتمعات ما بعد الرأسمالية تتطور وتتقدم متواقتة متزامنة ، في مستويات مختلفة من الحضارة وبنى اجتماعية متباينة ، وعلى خلفية من تقاليد قومية متفاوتة متعارضة . وفي شروط كهذه لا مفر من أن تنفجر منازعات قومية وتناحرات ، حتى ولو كانت جميع هذه الكيانات يحكمها رجال هم مضرب المثل في الفضائل الأممية . ولا مناص من أن تبقى توترات ومشاحنات حتى لو اتفق الجميع على المساواة بين مواردهم المادية . وهذا بالأصل لن يكون الحل السليم ، لأن من المستحيل بناء الاشتراكية عن طريق تخفيض

مستوى حياة أمة رفيعة التطور . ولا مرية في أن أغنى البلدان ملزمة في ظل النظام الشيوعي بالقبول ببعض التضحيات ، ولكن هذه التضحيات لن تكون كافية لازالة جميع أسباب التشاحن دفعة واحدة .

لقد وضع ماركس والمنتمون اليه نصب أعينهم ، حين جعلوا من الأممية واجب الاشتراكيين ومقياس أخلاقيتهم ، ما ينبغي أولاً أن يكون مناخ الحركة العاملة ، وما ينبغي ثانياً أن تنتهي اليه المسيرة نحو المجتمع الجديد . فعلى الاشتراكيين أن يكونوا أمميين مذهباً ومسلكاً حتى لو لم تكن الطبقات العاملة كذلك . وعليهم أيضاً أن يفهموا نزعة الجماهير القومية ، ولكن كما يفهم الطبيب ضعف مريضه أو علته . على الاشتراكيين أن يكونوا واعين لهذه النزعة القومية ، ولكن عليهم كالممرضات أن يغسلوا أيديهم ويعيدوا غسلها عشرين مرة عندما يقتربون من منطقة موبوءة بها من مناطق الحركة العاملة .

كان ماركس يعتقد أنه لن يكون في الاشتراكية من منازعات قومية . في الاشتراكية : هاتان هما الكلمتان اللتان عليهما المعول الأخير . ولو سلمنا بأن روسيا قطر اشتراكي ناجز ، وبأن الصين قد شادت الاشتراكية، لكان من حقنا في هذه الحال أن نستنتج أن المجتمع الاشتراكي الأممي وهم من الأوهام . والحقيقة هي أن روسيا والصين على حد سواء ليستا باشتراكيتين : إنما هما مجتمعان ما بعد رأسماليين يحملان بين طياتهما إرث الرأسمالية وحتى عناصر حضارة اكثر تأخراً ، إقطاعية وما قبل إقطاعية . ولقد أنجزتا ثورتهما في معزل عن حضارة الغرب الاكثر حداثة ، وفي مواجهة عداء بورجوازيته ، بل حتى طبقاته العاملة إلى حد ما . ولقد قضى العالم الخارجي على هاتين الثورتين بأن تصمدا وتقاوما ضمن أسوار تأخرهما وتخلفها . فكيف ندهش بعد هذا إذا ما بقيت التوترات والمنازعات على قيد الوجود ، وإذا ما عاودت النزعة القومية رفع رأسها ؟ ولكن

من الخطأ الاستهانة بقوة التيار الأممي النزعة الذي يبرز في الفينة بعد الفينة. وهو يجد تعبيره أول ما يجده في الرغبة في وضع حد للشوفينية الروسية ولسيطرة أمة على أخرى، وفي الجهود المبذولة بهدف إيجاد تقسيم أممي حقيقي للعمل داخل الكتلة الشيوعية. ونحن نشهد في الوقت الراهن انحلال الأشكال القديمة للحركة الشيوعية، انحلال الستالينية، وتمرداً على سيطرة حزب واحد على هذه الحركة. وهذا «التشتت المتباعد عن المركز» خير من وجود وانصهار أحزاب شيوعية إمّعة. وانهيار «أممية» وهمية هو في حد ذاته ظاهرة صحية وتقدمية، شريطة أن تعقبه إعادة دمج للحركة العاملة على أساس الاشتراكية الأممية.

إن هذه الجولة الخاطفة في تاريخ «الأمميات» تعلمنا درساً واحداً على الأقل، وهو أن فكرة الأممية اكثر أهمية وحيوية في خاتمة المطاف من «الأمميات» التي تعاقبت وعرفت الازدهار والانحطاط والوفاة. إن «الأمميات» تذهب، وتبقى الأممية المبدأ الاساسي لعالم جديد. وإني لاعتقد أن فكرة الاممية ستنمو وتتفتح وتتألق حتى من بين حطام «الامميات» مثلما تترعرع النبتة وتزهر وسط الانقاض.

التيارات الايديولوجية
في الاتحاد السوفياتي

إذا[1] أردنـــا دراسة التيارات التي تعلن عن نفسها اليوم في الحزب والايديولوجيا السوفياتيين ، نستطيع أن نجعل نقطة انطلاقنا الازمة السياسية التي تطورت في الاتحاد السوفياتي في النصف الثاني من عام ١٩٦٤ وأفضت إلى سقوط خروتشيف . كانت أزمة بالغـــة التعقيد ، مست عدداً كبيراً من المشكلات والاتجاهات والمواقف ، ولم تنتـه إلى حلول قاطعة . وقد ظل الوضع الذي نشأ بعد سقوط خروتشيف على الإبهام الذي كان عليه قبله . ولئن كانت الفئة الحاكمة قد نفضت يدها من زعيمها ، فإنهـــا أقرت بذلك ضمنياً بإفلاس الاساليب والتصورات الايديولوجية الخروتشيفية، ولكنها امتنعت عن الاعتراف بذلك بصراحـــة وعن استخلاص النتائج . وهذا التحفظ لم يكن وليد الصدفة ، وإنما يعكس الحرج الشديد الذي أثاره إخفاق خروتشيف بين صفوف خلفائـــه . فلقد اتضح ، بمختصر العبارة ، عجز السياسة الخروتشيفية عن حل المشكلات العديدة التي طرحتها

---

١ كلمة ألقيت في ٨ نيسان ١٩٦٧ في موتمر عن « الإتحاد السوفياتي ١٩١٧ – ١٩٦٧ » عقد في جامعة ولاية نيويورك ، بنغهامتون .

تصفية الستالينية . وشرف طرح هذه المشكلات يعود كاملاً إلى خروتشيف . أما مصيره المحزن فيرجع إلى أنه عجز عن حلها أو توضيحها ، بل إلى أنه زادها استفحالاً وتفاقماً في العديد من الحالات . إن ميراث العصر الستاليني قد أصاب منه مقتلاً ، وهو ما يزال يلقي إلى اليوم بظله على الوضع السوفياتي .

إننا نعلم اليوم – وفي تكرار ذلك شيء من الابتذال – أن الستالينية كانت نتاج مجتمع ما بعد رأسمالي ، منعزل ، متخلف ، ما قبل صناعي إلى حد كبير ، منصرف بجماعه إلى عملية « التراكم البدائي الاشتراكي » ، أي التصنيع والتحديث السريعين تحت إشراف الدولة وعلى أساس الملكية العامة لوسائل الإنتاج . ولقد كانت الستالينية ، بوصفها نظام حكم وأيديولوجيا ، تمثل في آن واحد الطابع المتأخر لمحيطها القومي وتحويله التدريجي . ومن هنا كانت ثنائيتها ووجهها المزدوج . ومن هنا كان أيضاً ، من جهة أولى ، عنفها الفظ وموقفها الأيديولوجي الانعزالي ، البدائي ، ومن الجهة الثانية اندفاعها التاريخي وإرادتها الجامحة في استبدال نمط روسيا الحياتي والإنتاجي البائد باقتصاد مخطط على أحدث الطرق وبنظام واسع لتربية الجماهير . وبديهي أن هذه العوامل لا تفسر ظاهرة الستالينية كامل التفسير ، ولكنها هي التي تحدد على كل حال سماتها الأساسية . لقد كانت الستالينية إذن مرحلة انتقالية اجتماعية ، وليس (كما زعم المنتمون اليها وغالبية السوفييتولوجيين[1] المادين للشيوعية) جوهر المجتمع ما بعد الرأسمالي أو الاشتراكي وشكله النهائي . ونجاح الستالينية بالذات في تغيير وتحديث بنية الاتحاد السوفياتي الاجتماعية عزز طابعها البائد المتقادم عهده ، وجعل من اللاستلنة ضرورة تاريخية . ولئن كانت الخروتشيفية

---

١ السوفييتولوجيا : فرع من علم الإجتماع البورجوازي متخصص في دراسة المجتمع السوفياتي . « المعرب »

هي التي أعلنت عن هذه الضرورة ، فإنها عجزت عن أن تكون عاملها الفاعل .

لنأخذ أولاً المشكلة الاقتصادية . إن المنهج الستاليني في التخطيط الاقتصادي ، بما عرف به من تصلب بيروقراطي ومركزية مشتطة ، يعود بتاريخه إلى مراحل التصنيع الأولى المتميزة بفاقة شاملة إلى الموارد المنتجة ، وإلى اليد العاملة المختصة ، وإلى المعارف التكنولوجية ، وإلى الوسائل التربوية ، هذا إذا لم نشأ أن نتكلم عن السلع الاستهلاكية . وعندما أمكن التغلب تدريجياً على مختلف أشكال هذه الفاقة ودخل المجتمع السوفياتي في مرحلة اكثر تقدماً من الازدهار الاقتصادي ، وعمت التربية ، فقدت الستالينية مبرر وجودها النسبي ، فأضحت منذ مستهل الخمسينات جزءاً من رفات الماضي ، وعقبة كأداء في وجه كل تقدم لاحق .

لقد أتت الحقبة الخروتشيفية بتغييرات هامة وايجابية : تقليص جذري لأساليب الإكراه في الحياة الاقتصادية والسياسية ، وتسهيل علاقات العمل ، وتعقيل طرائق تسيير الصناعة . لكنها لم تفلح بالمقابل في تعقيل نظام التخطيط في جملته . ولقد كانت النتيجة اليتيمة التي توصلت اليها في هذا المضمار تطبيق شكل من لامركزية إدارية خالصة على التسيير الصناعي ، فقد قطع خروتشيف أوصال الوزارات المركزية التي كانت تمارس من موسكو هيمنة مطلقة على فروع الاقتصاد كافة . كان هذا هو الترياق الذي اعتمد عليه ، ولكنه لم يثمر النتائج المأمولة . فمنذ عام ١٩٦٤ بات ظاهراً للعيان أن نتيجة النظام الإداري الجديد هي تباطؤ الازدهار الصناعي . وانخفاض معدل زيادة الدخل القومي . ولما كانت هذه الإخفاقات قد ترافقت بتعاقب المحاصيل الرديئة وبانخفاض الإنتاج الزراعي ، فقد انعكست آثار هذا كله على اطراد التقدم في مستوى حياة الشعب . وهكذا بدت جملة الإصلاحات اللامركزية التي بادر اليها خروتشيف غير وافية بالغرض

والحاجة في مستهل الستينات ، تماماً مثلما انكشف في مطلع الخمسينات أمر التصلب وفرط المركزية الستالينيين باعتبارهما أساليب بائدة بالية .

ولكن توسع البنية الاجتماعية وتحولها – يجب ألا ننسى ذلك – استمرا على نطاق واسع بالرغم من ذلك التباطؤ ، الأمر الذي كان يستوجب إصلاحات أوسع مدى واكثر جذرية من الإصلاحات التي أنجزها خروتشيف وزملاؤه . فبعد وفاة ستالين تضاعف تقريباً عدد سكان المدن في أربعة عشر عاماً ، إذ انضاف اليهم حوالي خمسين مليون نسمة هاجر معظمهم من الريف وامتصته الصناعة . وهذا الرقم يمكننا من قياس سرعة التقدم الاجتماعي – الاقتصادي والمشكلات التي يطرحها ذلك على قادة الحزب والدولة . فإعادة النظر في طريقة عمل الإدارة لم تكن بالحل الكافي . والواقع أن اللامركزية الخروتشيفية ما كانت تمثل غير رد فعل بيروقراطي ضيق ، أحادي الجانب ، على فرط المركزية الستالينية . وأغلب الظن أن عواقبها كانت مفيدة في بعض الحالات ، ولكن ضارة في حالات أخرى ، وعلى الإجمال غير كافية . وما يحاوله خلفاء خروتشيف منذ ذلك الحين هو استبدال اللامركزية الادارية الخالصة بلامركزية اقتصادية . هذا هو معنى الاصلاح الصناعي الأخير الذي يشدد اللهجة على الاستقلال الذاتي لكل فرع من فروع الصناعة وعلى مردوديته . ولنقل بالمناسبة إن جدة هذا الاصلاح ليست مفاجئة إلى الحد الذي تخيله المراقبون الغربيون للوهلة الأولى . وبالرغم من أنه قد يحفز الانتاجية لحين من الزمن ، وبالرغم من أن عواقبه الايجابية لا مراء فيها ، إلا أنه يقف عاجزاً عن تغيير الطابع البيروقراطي للتسيير الاقتصادي .

إن المسألة المتعلقة بمعرفة ما إذا كان من الواجب أن يكون هذا التسيير مركزياً أو لا مركزياً ليست ، في تقديري ، سوى جانب من المشكلة التي يطرحها تعقيل الاقتصاد السوفياتي ، وهذا الجانب ليس بأهم الجوانب .

إن الاحراج بين المركزية واللامركزية إحراج ملازم لكل اقتصاد مخطط . وهو غير قابل للحل لا دوغمائياً ولا من جانب واحد ، كما أنه ليس في المستطاع الغاؤه بسحر ساحر . وجدل التخطيط يكمن بالتحديد في ما يلي: إن على المخطط أن يبحث باستمرار عن توازن بين المتعارضات وأن يحاول التوفيق بينها ، كما عليــه أن يبحث باستمرار عن توازن بين الحاجات الاجتماعية ذات الصفة العامــة ومردودية القطاعات الخاصة ، بين العرض والطلب ، وأخيراً بين الانتاج والاستهلاك . وهذه الأمور لا تقبل تسوية أو حلاً عن طريق وصفة واحدة وحيدة . ومن الممكن ، بل لا مفر أن تميل كفة الميزان تارة إلى جانب ، وطوراً إلى الجانب الآخر ، والمخطط هو المسؤول عن مراقبة التأرجحات وضبطها .

وإذا كان فرط المركزية في العصر الستاليني قد أخل بذلك التوازن ، فمن المؤكد بالمقــابل أن الاقتصاديين السوفياتيين (وكذلك اقتصــاديي يوغوسلافيا وأوروبا الشرقية) قد شددوا اللهجة اكثر مما ينبغي ، في رد فعل منهم ضد الماضي ، على مبدأ اللامركزية . وهم إذ يولون كامل اهتمامهم تقريبــاً لمردودية كل وحدة صناعية ولاستقلالهــا الذاتي يجازفون بالمغالاة في هذا الاتجاه ، الأمر الذي قد يمس بالمصالح الاجتماعية وبتلاحم التخطيط . وعلى كل ، فقد برز في الآونــة الأخيرة رد فعل ضد هذا الاتجاه . ولكن ليست هذه هي ، في رأيـي ، المشكلة الأساسية . ومن السابق لأوانه على كل الأحوال الافتراض بأن مثل ذلك المسلك يؤدي إلى بعث اقتصاد السوق أو إلى إحياء الرأسمالية . فلقد كان الاقتصاد السوفياتي في العشرينات ، أي في أيام السياسة الاقتصادية الجديدة ، أشد انجرافاً في تيار بعث الربح والسوق من احتمال انجرافه اليوم بنتيجة الاصلاح الراهن ، هذا إذا ما افترضنا أنه سيطبق بحذافيره . ولقد كان هناك مسافة شاسعة بين السياسة الاقتصادية الجدية وبين إحياء الرأسمالية . والليبرالية ليست في حد ذاتها مرادفة لليبرالية الاقتصادية .

إن المشكلة الحاسمة التي يطرحها فشل الخروتشيفية ليست بذات طابع إداري أو اقتصادي ، وإنما هي ذات طابع اجتماعي وسياسي . والعلة الرئيسية للفوضى الاقتصادية التي أزيح النقاب عنها إبان الأعوام الأخيرة من حكم خروتشيف كانت عبارة عن أزمة أخلاقية ، ومصدرها خلاف دائم بين الحاكمين والمحكومين ، نزاع بين « هم ونحن » ، أي شعور العمال والمثقفين بأن البيروقراطيين « يفعلون على كل حال ما يحلو لهم أن يفعلوه » ، دون اهتمام بحاجاتنا « نحن » وامنياتنا « نحن » ورغباتنا « نحن » . والعسف البيروقراطي ، وإن خفت حدته منذ زوال عصر ستالين ، يمنع جمهرة المنتجين والاداريين من الاتحاد في الهوية مع المصلحة القومية . لهذا تقف العلاجات الادارية أو الاقتصادية عاجزة حتى عن حل المشكلات الادارية والاقتصادية . وخلفاء خروتشيف لا يستطيعون أو لا يريدون اكثر منه أن يهتموا بالجوانب الأخلاقية والسياسية من الوضع . لهذا السبب على وجه التحديد منيت الخروتشيفية بهزيمة تلو هزيمة ، على الصعيد القومي والأممي معاً ، وانتهى بها المطاف إلى طريق مسدود خانق .

لقد عجزت الخروتشيفية ، على الصعيد القومي ، عن ردم الفراغ السياسي والأيديولوجي الذي خلفته الستالينية . ولما كنت قد تناولت هذه المسألة بالتحليل في موضع آخر[1] ، فإن كل ما سأقوله عنها هنا هو أن خروتشيف وزملاءه ، القادة السوفييتيين الحاليين ، قد وقفوا من التركة الستالينية موقفاً لا يمكن أن ينجم عنه غير الكبت والبلبلة والخيبة . فلقد ركزوا جهودهم كلها ، هم الذين نشؤوا وترعرعوا في مدرسة الفكر الستاليني وكانوا واعين للدور الذي لعبوه في تلك الحقبة ، على محاولة ردم الفراغ عن طريق التلاعبات البيروقراعية . والحقيقة أنهم تصدوا لتصفية

---

١ انظر « فشل الخروتشيفين » في « سخرية التاريخ » ، ص ١٢١ - ١٤٦ ، و« الثورة اللامتنهية » ، الفصل السادس . (انظر ترجمة هذا المقال في كتابنا « تجارب اشتراكية » ، دار الآداب) .

الستالينية بأساليب ستالينية . ولقد كان خروتشيف وزملاؤه على قناعة تامة – وهذه خاصة أساسية من خواص الستالينية – بقوة الحيلة الفائقـــة ، فانتهى بهم المطاف إلى تحويل اللاستلنة نفسها إلى حيلة كبرى ، إلى ممارسة معقدة تعتمد الخداع والايهام . وفي الوقت الذي فضحوا فيه رياء ستالين ونددوا بنفاقه ، سعوا إلى حماية البنية الهرمية التسلسلية التي كان عليها عماد هذا النفاق وذلك الرياء . لقد أزاحوا النقاب عن جرائمه ، وفعلوا كل ما وسعهم لاخفاء واقع مشاركتهم فيها . لقد نددوا بـ « عبادة الشخصية » ، ولكنهم تشبثوا بالأورثوذكسية التي جسدتها هذه العبـــادة . احتجوا على فرط استبداد ستالين ، ولكنهم بذلوا قصارى جهدهم لانقاذ الغالبية الغالبة من شرائعـــه وعقائده . حرروا الشعب السوفياتي من إرهاب شامل كلي الحضور ، لكنهم لم يألوا جهداً في الحفاظ على الشكل الذي أخذه الجسم السياسي تحت وطأة ذلك الارهاب ، وسعوا إلى صيانة الوحدة الصخرية وإلى إبقـــاء المجتمع السوفياتي في ذلك الوضع المذرر ، العديم الشكل ، الذي لا يسمح للناس بـــأن يفكروا من تلقاء أنفسهم وبـــأن يعبروا عن أفكارهم وبأن يصلوا إلى آراء لاامتثالية وبأن يصوغوها .

بيد أن تلك الخدعة الكبرى بأحابيلها وحيلها وتناقضاتها لم تثمر الثمرة المأمولة . فتحت السطح الصخري ، وفي الأعماق ، بين سواد الشعب ، وحتى على مستوى أعلى ، في قلب الفئة الحاكمة ، كانت تتحرر خمائر كان لا بد في خاتمة المطاف من أن تفلت من كل رقابة . هكذا شرع بعض الأشخاص ، ممن اخترقوا جدار الأضاليل والتناقضات ، يطالبون بتصفية حقيقية وأكثر جذرية للستالينية . وقد تملك بعضهم ، ولا سيما في صفوف البيروقراطية ، الخوف إزاء هـــذا « الانحراف » الأيديولوجي وطلبوا وضع حد لتدنيس الصنم المعبود القديم . واتخذ بعضهم الثالث موقفاً مشمئزاً وماجناً لا أكثر . كان يود بعضهم تخفيف أو إلغاء شتى أشكال الرقابة الإدارية والرقابة على الفكر وطالبوا بحرية أوسع وأكبر ، في حين

تمنى بعضهم الآخر ، ولا سيما من البيروقراطيين، إعادة إغلاق الحواجز تحسباً من تصاعد الاستياء والنقد الشعبيين . وراح خروتشيف يناور بحرج وخرق بين هذه الضغوط المتناقضة وانتهى به الأمر إلى استنفاد رصيده المعنوي . لقد استخدم في عـــام ١٩٥٦ ستالين ككبش فداء وحمله جميع أخطاء البيروقراطية السوفياتية . ولكن البيروقراطية هي التي استخدمته بكل هدوء وسكينة عام ١٩٦٤ كبش فداء . بيد أن خلفاءه ورثوا عنه جميع إحراجاته، من دون أن يكون لديهم بالمقابل فكرة أو برنامج جديدان لإيجاد حل لها. وكانت ميزتهم الرئيسية على خروتشيف فسحة من الزمن متاحة لهم ، في حين أنه لم تكن متاحة له أي فسحة .

لقد لبثت السياسة السوفياتية تحمل آثار الانقسام بين صناع اللاستلنـــة وبين صقور الستالينية أو الستالينيين المتكتمين . وقد تجلى هذا الانقسام في صراع خروتشيف ضد مولوتوف وكاغانوفيتش وأنصارهما . وقد عكسه الأدب السوفياتي على نطاق واسع . وهو على الإجمال انقسام بين عناصر الفئة الحاكمة التي تتمنى تحريراً تدريجياً ومحدوداً للنظام وبين العناصر الراغبة في مواصلة تسيير الحزب والدولة بطرائق انضباطية صارمة ومستبدة . وعندما حاول خروتشيف أن يأخذ موقفاً وسطاً أو محايداً بين هذه العناصر المتصارعة خسرها جميعها . فالستالينيون المتكتمون لم يغفروا له قط خطابه في المؤتمر العشرين . وسعى البيروقراطيون إلى الانتقام من البرنامج الذي أخضع له الوزارات الاقتصادية . وأوغرت صدور أنصار النهج المتشدد عليه لأنه أرخى العنان للمنتقدين و « المصطادين في الماء العكر » الذين لم يفضحوا العهد الستاليني فحسب ، بل أيضاً مخلفات الستالينية الباهظة الوطأة التي ما تزال معششة في جميع دوائر الحيـــاة السوفياتية . وبالمقابل ارتأى المنتقدون و « المصطادون في المـــاء العكر » من الليبراليين والجذريين أن تساهل خروتشيف خدّاع وتتحكم به النزوة أكثر مما ينبغي . ولقد كانوا يعلمون حق العلم أن كل بادرة ليبرالية تؤخذ علناً تخفي وراءها العديد من تدابير

القمع . كذلك لامه الكتاب والفنانون على الرقابة التي مارسها عليهم وعلى الجهود التي كان لا يني يبذلها ليفرض عليهم ذوقه الفظ كرجل جاهل في أمور الفن والأدب . وفي عام ١٩٦٤ اتحد المناهضون للستالينية والستالينيون المتكتمون ، أنصار الليبرالية وأتباع الاستبداد ، ضده مؤقتاً ، وكل معسكر تراوده الآمال في أن يكون هو المستفيد من سقوطه . بيد أن هذه الآمال خابت بدورها . فخلفاء خروتشيف لم يقفوا وقفة نهائية إلى جانب أي من هذين الحزبين . بل حاولوا بالأحرى أن يصنعوا ما صنعه خروتشيف ، بمزيد من التكتم والحيطة والحذر . لقد سلكوا الطريق الأوسط وتحملوا مشقة كبيرة لإحباط مشاريع « المتطرفين » .

إن الانقسام بين أنصار اللاستلنة والستالينيين المتكتمين ، بين دعاة الليبرالية ودعاة التشدد ، لا يمثل غير الجانب المنظور والأكثر سطحية من اللوحة . فهو يحجب ويموه انقساماً آخر ، كامناً وغير ناجز : أعني به النزاع القديم بين اليمين والوسط واليسار . ومعاودته الظهور هي النتيجة الطبيعية للثغرة التي فتحت في جدار الوحدة الصخرية ، على اعتبار أن إحدى السمات الأساسية لهذه الوحدة الصخرية كانت خنق الجدل الملازم لكل حركة ولكل حزب حي ، والحيلولة دون أي تمايز عفوي للآراء داخل الحزب وخارجه على حد سواء . لقد كان الاتحاد السوفياتي لآخر مرة مسرحاً لصراع مكشوف بين اليمين والوسط واليسار في أواسط العشرينات وأواخرها . والتمايز الجديد الراهن يستعيد إلى حد ما ، وإلى حد ما فقط ، تيارات العشرينات ، ولكنه يفعل ذلك عفوياً ، بصورة لاشعورية تقريباً ، وبخلط كثير . ولما كان الوضع الاجتماعي والسياق السياسي قد تغيرا ، فإن استمرار تلك التيارات لا يمكن إلا أن يكون جزئياً . ولا مراء في أن الحركة الشيوعية الأممية تنزع الآن إلى الانقسام إلى يمين ووسط ويسار ، بالرغم من أن التلاعبات البيروقراطية تموه هذا الانقسام وتشوهه ، وبالرغم من المحاولات المبذولة لإرجاع كل تيار إلى

مدرسة فكرية ومصلحة قومية خاصتين : فاليسار أو « اليسار المتطرف » يوصف بالماوية ، والوسط بالخط السوفياتي الراهن الغالب ، واليمين بالتيتوية وبمختلف صورها القومية . لكن لا مراء أيضاً في أن هذا التمايز صائر إلى البروز داخل كل حزب شيوعي ، بالرغم من التباهي بالوحدة الصخرية . ولقد بات من الصعب، بسبب ذلك، تمييز وتقويم سيرورة الانقسام الخفية . ولكن عندما تتطاير الواجهة إرباً إرباً على نحو مباغت ومسرحي، كما حدث منذ بعض الوقت في الصين ، تتأكد واقعية ذلك الانقسام . والحزب السوفياتي ليس أشد صخرية أو أوثق وحدة مما كان عليه الحزب الصيني قبيل اندلاع ما يسمى بـ « الثورة الثقافية » . فنحن نصادف هنا وهناك مؤشرات وعلامات تبيح لنا أن نتكهن بالوجود الخفي لسيرورة تمايز ، لانقسام ما يزال في باكورته ، أو ، أكرر ذلك ، نصف ضمني، نصف واقعي ، بين اليمين والوسط واليسار . هذا الانقسام لن يصبح حقيقة واقعة نهائية ما دامت التجمعات التي على صلة به غير حرة في التعبير عن نفسها وفي صياغة أفكارها وبرامجها . والحال أن التيارات الأيديولوجية والجماعات السياسية لا تعي ذاتها ولا تجد هويتها إلا من خلال تعبيرها عن نفسها .

لعله ينبغي علي ، عند هذه المرحلة من محاضرتي ، أن أوضح إلى حد ما معاييري وأن أشرح ما تعنيه لي مفاهيم « اليمين » و « اليسار » في سياق الحياة الاجتماعية والحياة السياسية السوفييتيتين الراهنتين .

إن المشكلات النوعية الأساسية التي يميل الانقسام بصددها إلى الحدوث هي : النزاع بين مبدأ المساواة والامتيازات ، بين رقابة الشغيلة أو مساهمتهم في الرقابة على الصناعة وبين هيمنة الإداريين ، بين حرية التعبير والاجتماع من جهة وبين الانضباط الصخري من الجهة الثانية ، وأخيراً ، وليست هذه بآخر النقاط من حيث الأهمية ، بين النزعة الأممية الاشتراكية والنزعة

القومية . كل إن راصد للشؤون السوفياتية ، بل كل قارىء لبيب للأدب وللمجلات الصادرة في الاتحاد السوفياتي ، سيتبين بلا صعوبة هذه المواقف المتناقضة كما تنعكس في الكتابات السوفياتية أو في تذبذبات السياسة الرسمية. ولقد كانت هذه الانقسامات موجودة بالقـوة في عهد ستالين ، ولكن المجتمع كان في ذلك الزمن مذرراً ، وكانت الذرات البشرية في وضع يستحيل معه عليها استحالة مطلقة أن تتآلف أو تتجمع لتشكل جماعات . كانت حياتها أشبه ما تكون بحياة الجواهر الفردة في فلسفة لايبنز ، منطوية على ذاتها ، منعزله بعضها عن بعض ، عاجزة عن التواصل . وإذا ما وجد تواصل ، فلا يكون إلا في شكل حوار بين ذرتين ، كذاك الذي يرويه إفتوشنكو في « سيرة حياة مبكرة » التي يصف فيها مشاحناته الأيديولوجية مع شاعر آخر من مداحي النظام ، مفعم بالشوفينية الروسية- الكبيرة ، مناصر متحمس للاستبداد ، سليل ستاليني للمئة السود[1] في زمن ما قبل الثورة : مشاحنات استطاع افتوشنكو بفضلها أن يؤكد ، تلميحاً وإشارة فقط ، نزعته الأممية ، صبواته الغامضة إلى تصور عن العالم أوسع وأرحب من الأيديولوجيا الرسمية ، ونفوره الغريزي مـن الامتيازات البيروقراطية [2] .

لا جدال في أن هذا النوع من الحوار بين ذرتين كـان مستمراً في أماكن متعددة ، ونحن نستطيع أن نكتشف فيه براعم مساجلة بين اليسار واليمين . ولكن هذه البراعم كانت عاجزة عن النمو والتفتح . والحال أن الجديد في العصر ما بعد الستاليني هو الحركة المترددة البطيئة للذرات التي تحدوها نوازع متشابهة واتجاهها إلى تكوين جماعات ، سواء في هرم

---

١ المئة السود : حزب قيصري ، رجعي ، متطرف ، إرهابي ، قبل ثورة أوكتوبر . « المعرب »

٢ افتوشنكو : « سيرة ذاتية مبكرة » .

الحزب التسلسلي أم في الأدب ، ولدى النحاتين والرسامين والفلاسفة وعلماء الاجتماع والمؤرخين والعلماء ، وكذلك ، وبصورة شبه أكيدة ، في المصنع والكولخوز . فالناس المنتمون إلى ميول ايديولوجية وسياسية متشابهة يتعارفون ويتجاذبون . وحيثما لم يكن من الممكن في الماضي أن توجد غير عصائب بيروقراطية ، محاطة بفراغ سياسي ، تتشكل الآن تجمعات وتيارات جديدة ما تزال بعيدة عن أن تتبلور . ونحن مطلعون على بعض جوانب ذلك لدى الكتاب الذين لا يحجمون الآن عن الدخول في مساجلات عامة ونصف عامة وخاصة . وثمة تحالفات مماثلة في سبيلها إلى التكون لدى المهن الأخرى، على المستويات كافة ، وفي الأوساط قاطبة . ولكننا لا نسمع بها ، لأن هؤلاء الناس أقل تعبيراً عن أنفسهم عادة من الأدباء . والعملية ما تزال محصورة إلى حد كبير ضمن نطاق الجزئيات ، ولكن من الممكن القول إن هذه المرحلة قد دخلت في طور التجاوز . وبديهي أن الأوساط الرسمية لا تقتصد جهداً في عرقلة هذا التطور وتأخيره .

على هـــذا النحو شرع اليمين الجديد واليسار الجديد بالإعلان عن وجودهما . ولا يسع المرء وهو يحاول أن يميز ويحدد سمات النماذج السياسية الجديدة التي في سبيلها إلى الظهور إلا أن يستغرق في تأملات كئيبة عما تكلفه ويتكلفه الاتحاد السوفياتي روحياً وفكرياً بنتيجة تحظير الستالينية الفظ لكل تواجه أيديولوجي أو سياسي مفتوح . فمستوى التفكير والتعبير السياسي متدن إلى حد مؤسف . ووجه الانسان اليميني في الستينات يكاد يكون في منتهى البساطة . فهو ينصب نفسه بصورة عامة مدافعاً عن الامتيازات ، ويطالب بفروق كبيرة في سلم التعويضات والأجور ، ويميل الى الشوفينية الروسية ــ الكبيرة ، ويحبذ استعمال القوة ، وقلبه مفعم باحتقار القوميات السوفياتية الصغيرة ولأقارب الفقراء من أمثال البولونيين والمجريين ، ولا سيما الصينيين الذين لا يتورع حتى عن إبداء آراء عنصرية مسبقة معادية لهم . وإلى جانبه ينتصب نموذج آخر للانسان اليميني ، أكثر اعتدالاً وتهذيباً

وثقافة ، تتداخل لديه أحياناً المشاعر التالية : عداء نزعة المساواة ، الريبة تجاه الجماهير ، الكوسموبوليتية ، الرغبة في توثيق العلاقات مع الغرب ، الذعر من احتمال تورط روسيا بصورة من الصور في الصراعات الطبقية الدائرة في العالم الخارجي أو في حروب التحرير القومي المناهضة للأمبريالية. وكثيراً ما يصادف المراقبون الغربيون هذا النموذج السياسي في أوساط الدبلوماسيين والصحفيين وقادة الصناعة السوفياتية . ولكنه ليس أقل ندرة في أوساط أخرى أقرب إلى الطابع الشعبي .

أمـــا الإنسان اليساري السوفياتي فهو في غالب الأحايين مثقف ، أو فيلسوف ، أو عالم اجتماع ، أو مؤرخ حزبـي . ولكنه قد يكون أيضاً عاملاً في مصنع . إنـــه ينتقد التوزيـع الراهن للدخل القومي ، والفروق الكبيرة في الأجور، والامتيازات البيروقراطية . ويحتج – علنـــاً أحياناً – على السرية التي تحيط بمرتبات مختلف « فئات أصحاب المداخيل » ويلح على تقليص هذه المروحة تقليصاً جذريـــاً . ويعلن عـــن تأييده لتخفيض ساعات العمل في المصانع ، ويطالب بأن تفتح أبواب التعليم على نحـــو أوسع وأيسر لأبناء الطبقات العاملة . والتنازلات التي اضطرت الفئة الحاكمة إلى القيام بهـــا في أكثر من مرة بصدد هذه النقاط تشير إلى أن تلك الضغوط كانت مجدية . هذه النزعة الجديدة إلى المساواة ، المعادية بالبداهة للتقاليد الستالينية ، تنتقد أيضاً المستتبعات الاجتماعية للسياسة الجديدة الاقتصادية التي تشدد اللهجة أكثر ما تشددها على المردودية و « قوانين السوق » . ويعيد الإنسان اليساري الى الأذهان أن الاشتراكية كانت تطمح في الماضي وما يزال عليها أن تطمح الى تجاوز قوانين السوق تدريجياً بانتهاج سياسة اقتصادية عقلانية وبإشراك المنتجين في الرقابة على الاقتصاد، لا عن طريق تدخل بيروقراطي متزمت . وتسعى العناصر اليسارية، على صعيد الأيديولوجيا والسياسة، الى إعادة عقد الأواصر مع التقاليد الثورية التي مزقتها الستالينية ، وإلى إعـــادة إثبات الحقيقة بصدد تاريخ الثورة والبلشفية : فاليساريون

يشعرون بالفعل بأنه لا مناص من تكنيس بقايا الخرافات والأساطير الستالينية عن بكرة أبيها اذا ما كانت هناك رغبة في أن يتطور وعي اشتراكي جديد في صفوف الشعب . أما فيما يتعلق بالقضايا الخارجية. فإن اليساريين يسعون الى تفهّم الأحداث الاجتماعية الثورية التي حدثت مؤخراً في العالم، ولا سيما في كوبا وفيتنام ، وإلى تفسير المنازعات الداخلية في الصين . وهم يحاولون أن يربطوا هذا كله بالسياسة السوفياتية. لأنهم لا يستطيعون إلا أن يشعروا بالبلبلة إزاء أفول التضامن الأممي في الاتحاد السوفياتي وإزاء التيار شبه الانعزالي الذي تتسم به السياسة الرسمية وحالة الجماهير المعنوية على حد سواء .

إنني لن أحاول — ولا أعتقد أن هناك من هو قادر فعلاً على ذلك — تقويم قوة ووزن كل من هذه التيارات الفكرية والمشاعر التي تسلك دروباً متعارضة . وما كان أمامي مفر من أن يأتي وصفي لتلك النماذج جزئياً ، وأشبه ما يكون بعملية ترميم رديء . هذا مع أنني بنيته على شهادة الوقائع وعلى مروحة واسعة من المؤشرات الفلسفية والاقتصادية والسوسيولوجية والأدبية .

تلكم هي الضغوط المتصارعة، الخفية أو نصف المنظورة ، التي جعلت من السياسة السوفياتية فريستها وراحت تتحكم بها الى حد كبير . وبديهي أن السياسة الرسمية وسطية ، حذرة . فهي تحاول أن تبقى بعيدة بمسافة لا بأس بها عن كلا الحدّين الأقصيين وأن توفق بين المتناقضات . ولكن التيارات القاعدية تبدو على المدى الطويل أكثر أهمية . ومن المرجح أن تنمو فاعليتها وتزداد مع الزمن . فهي تشكل الكتلة الكبرى المغمورة في الماء من جبل الجليد السوفياتي العائم .

إن وجود هذين المخططين الأيديولوجيين والسياسيين، والخصومة بصدد الستالينية، والنزاع بين اليمين واليسار، ليس مردها الى الصدفة . فجميع

هذه الحركات تتداخل وتنتج تيارات مضادة . كذلك شأن أنصار اللاستلنة، فنهم من يتجه الى اليمين ، ومنهم من يتجه الى اليسار . وخلال الأعوام الأولى التي أعقبت وفاة ستالين ، سعى خروتشيف الى كسب تأييد كلا الجناحين ، وهنـا كان مكمن قوته . ولكن سياسته الداخلية والخارجية نحت فيما بعد منحى يمينياً واضحاً . فكان لذلك بلا ريب أثره على زوال مـا كان للاستلنة من حظوة ؛ وأضفى ظاهراً من حقيقة على اتهامات الماويين الذين راحوا يؤكدون أن خروتشيف بنفس الأورثوذكسية الستالينية قد حرر أو حفز القوى الرجعية الكامنة سواء في داخل الاتحاد السوفياتي أم خارجه ، في أوروبا الشرقية وهنغاريا وبولونيا الخ .

وهكذا تشاء المفارقات أن تلقى حركة مقاومة اللاستلنة، التي ما كانت تتجاوز في الأصل حدود بيئة بيروقراطية محافظة ضيقة ، الدعم تدريجيـاً من خيبة الأمل التي ولدتها مظاهر شتى من الخروتشيفية في دوائر كانت آخذة بالاتساع باستمرار . فقد شرع عـدد معين من الأشخاص ، ممن لاحظوا أن اللاستلنة أخذت تقترن في الأعوام الأخيرة من حكم خروتشيف بنزعة مضادة للمساواة وبتجميد للأجور وبإخفاقات متتـالية في مضمار الزراعة، وأن النزاع الصيني – السوفياتي فضلاً عن ذلك يتفاقم ويستفحل وأن الكتلة السوفياتية تتحلل، شرعوا يتخوفون من نتائج السياسة الخروتشيفية . يروي بعض المراقبين الحسني الاطلاع ، ممن لا يفتقدون الحس النقدي ، أن نوعاً من الحنين الى ستالين بدأ يولد وينمو عفويـاً في أوساط العمال السوفياتيين في عامي ١٩٦٣ و ١٩٦٤ . وكثيراً مـا عبر عن نفسه في « نكات » لاذعة تبرز التباين بين بعض مظاهر إخفاق خروتشيف وبين حكمة ستالين وبعد نظره . ومن قبيل ذلك على سبيل المثال هذه النكتة : « هل تعرف ما كان أكبر جرائم ستالين ؟ أكبر جرائمه أنـه كدّس مخزوناً من القمح غير كافٍ للصمود لخمس سنوات من العهد الخروتشيفي» . يا للمفارقة ! من كـان يحسب في عام ١٩٥٦ أنـه سيوجد في الاتحاد

السوفياتي بعد مضي سنوات قليلة ليس إلا أناس يترحمون على العصر الستاليني[1] ؟ تلكم هي ، في الواقع ، عاقبة لاستلنة مكرهة لاطائعة ، مرائية ، مصبوغة بالصبغة اليمينية . ومن نتائج هذا الوضع – نتائجه المؤقتة على ما نأمل – انعزال الانتلجانسيا التقدمية ، المعادية للستالينية ، عن الجو السائد في أوساط الطبقة العاملة . ومن نتائجه أيضاً أن الانتقادات الماوية ، قبل الهزة الكبيرة التي وقعت في الصين مؤخراً ، كانت تلقى من التجاوب أكثر مما تقرّ به الأوساط الرسمية السوفياتية .

من منظور هذه الخلفية،لم تكن مهمة خلفاء خروتشيف بالمهمة السهلة . فهم ما كانوا مهيئين ولا مجهزين لمواجهة تلك التيارات المتناقضة وشق طريقهم بينها . والواقع أنهم يمثلون –والماويون على حق في هذه النقطة– الخروتشيفية بدون خروتشيف . ولئن انقلبوا على زعيمهم السابق ، فقد كان تقديرهم أن سياسته صحيحة في أساسها، ولكنه شوّهها ولطخ سمعتها بتقلبات مزاجه ونزواته وشططه . ولم يكن تقديرهم هذا خاطئاً مئة بالمئة، ولكنه لم يكن صحيحاً كل الصحة . والحق أن مسلك خروتشيف ازداد اتساماً بروح النزوة عندما تبين أن سياسته تقوده الى طريق مسدود . فقد حاول أن يخرج من المأزق بالمبادرة تارة الى التساهل المتشدق وطوراً الى التعنيف العدواني ، وبمحاولة استمالة خصومه إليه سواء في الداخل أم في الخارج ، وبضربه بقبضة يده (أو بحذائه) على الطاولة .

إن الوقائع تكرر نفسها بمنطق غريب . فلقد كان خروتشيف على إيمان راسخ بأن السياسة الستالينية كانت ، على امتداد سنوات عدة ، صحيحة في أساسها الى أن أفسد ستالين كل شيء بنزوعه المَرَضي الى القوة

---

[1] في كانون الثاني نشرت المجلة الأدبية الشهرية « أوكتوبر » قصيدة لفيلكس شوفييف يعبر فيها عن أمله ويقينه بأن اسم ستالين سيلقى بعد مضي حقبة من الزمن التكريم والتبجيل من جانب الشعب السوفياتي .

وبشططه . وكان يقابل ، اذا صح التعبير ، بين الستالينية « الطيبة » في بداياتها وبين ستالين وجنونه في سنواته الأخيرة . واليوم يقف بريجينيف وكوسيغين من الخروتشيفية الموقف ذاته . فهما يسعيان الى شفائهـــا من الالتواءات التي أنزلها بها خروتشيف في أواخر أيام حكمه .

لقد بدآ بالتحرك على أصابع أقدامهما ، محاولين خنق الأصوات الناشزة التي كانت تتعالى من حولها . ولا مزيد من الفضائح الكبيرة حول الستالينية، ولا إثارة لموضوع معسكرات الاعتقال وفظائعها . ولكن لا إعادة اعتبار أيضاً إلى الستالينية ، ولا نكوص عن المؤتمر العشرين أو المؤتمر الثـــاني والعشرين . إن الليبيرالية تقف ههنا ، ولا عودة بالمقابل عن إصلاحات خروتشيف نصف الليبيرالية . ولا ينبغي أن نسألها المضي قدماً إلى الأمام على طريق تطبيق المساواة : فاللهجة قد شددت وما تزال تشدد على الدور الحافز للمكآفات والمرتبات . ولكن لن تُشن بالمقابل حملة عـــلى دعاة المساواة . أما بصدد القضايا الخارجية ، فقد قر قرار بريجينيف وكوسيغين على عـــدم الرجوع إلى انتهاج دبلوماسية خروتشيف الشخصية ، ولكنهما أكدا من جديد ثقتهما بتأويله لسياسة « التعايش السلمي » . وقد حاولا إحياء وحدة الأحزاب الشيوعية وردم الهوة التي تفصلها عن الصين . ولكنهما لا يريدان تقديم المزيد من التنازلات الجوهرية إلى الصينيين . وأول رحلة إلى الخارج قـــام بها كوسيغين حين ارتقى منصب رئيس الوزراء كانت إلى فيتنام والصين . ولكن لما لم تثمر هذه الرحلة نتائجها الإيجابية المأمولة، قررت موسكو التزام الصمت بصدد الصين . وهذا الصمت مستمر منذ نحو عامين من الزمن . في محاولة لإصلاح الضرر الذي أحدثه خروتشيف في فيتنام بإعلانه قبيل سقوطه أنه ليس للاتحاد السوفياتي من داعٍ للدفاع عن جنوب شرقي آسيا، أعادا توكيد اهتمام روسيا بهذه المنطقة من العالم . ولكنهما لم يبذلا مساعدتهما لفيتنام الشمالية وللفيتكونغ إلا بشيء مـــن التحفظ . وقد أعلن كوسيغين وبريجينيف في المؤتمر الثالث والعشرين أن المعونة السوفياتية إلى فيتنام قـد

بلغت نصف مليار من الروبلات ، وهذا مبلغ ليس بذي إذا شأن قورن بمليارات الدولارات التي تنفقها الولايات المتحدة لتشن الحرب على تلك البلاد . ومجمل القول أنهما لا يزمعان انتهاج طريق آخر غير طريق الخروتشيفية القديمة الطيبة ، طريق الوسط ، ولكن بلا مزيد من الانحراف إلى اليمين . إنهما يريدان الخروتشيفية بدون الشطط الخروتشيفي، الخروتشيفية المقترنة بالصمت ، الذي هو من ذهب ، والانتظار والإرجاء .

ويبدو أن مرحلة الانتظار قد شارفت على نهايتها . فبريجينيف وكوسيغين وزملاؤهما يكتشفون الآن أن « شطط » خروتشيف والتواءاته وانحرافاته ليست عارضة ولا مرتبطة مطلق الارتباط بمزاجه وطبعه . والواقع أنه يستحيل على المرء أن يعيش إلى ما لا نهاية في خوف التيارات الجذرية ، الداعية إلى المساواة ، الاشتراكية ، الديموقراطية ، الأممية ، من دون أن يعاود السقوط في النزعة المحافظة البيروقراطية وينحرف إلى اليمين . وبالفعل، يلقى بريجينيف وكوسيغين الآن المزيد من المشقة والعنت في الحفاظ على موقف حذر ، وسطي ، غير ملتزم . فالضغوط المتعارضة الآتية من اليمين ومن اليسار تتزايد وتتعزز ، وهذا بالرغم من أن اليمين واليسار لا يؤلفان تجمعات منظمة ، وإنما هما عبارة عن ميول وأجواء غائمة متشعبة بقدر أو آخر .

إن المساجلات جميعها تعاود إذن ظهورها بعد بضع سنوات من الصمت، وإن دارت بصورة عامة خلف أبواب مغلقة . ولكن المناقشات خلف هذه الأبواب على درجة من الحدة لا تعطي معها الأصداء التي تصل منها إلى الجمهور السوفياتي أو إلى العالم الغربي غير فكرة باهتة عنها . والأصوات المحبذة للمساواة والأصوات الشاجبة لها تتعالى الآن إلى حد مسموع ، وإن كانت الأصوات الأولى مخنوقة ولا تتساوى مع الثانية في حق الكلام جهاراً وعلانية . ولعلنا نستطيع أيضاً أن نتبين ، خلف الواجهة ، تجدد الصراع،

وإن على نحو ما يزال مبهماً ، بين النزعة القومية والنزعة الأممية ، وكذلك وجود نوع من الصدام ، على مستوى مختلف ، بين التأويلات المتباينة للتعايش السلمي[1] .

وفي هذه المرة أيضاً تنحرف السياسة الرسمية ببطء ، ولكن على نحو ملموس ، إلى اليمين في جميع المجالات . فالحكومة تسعى جاهدة إلى إعاقة نزعة الانتلجانسيا المعادية للستالينية ولجمها ، في وقت ما تزال فيه هذه النزعة ناشطة . وهذا ما يفسر تشديد قبضة الرقابة في الأشهر الأخيرة . وهي تحاول أيضاً أن تعلي من جديد مركز الاداريين بالنسبة إلى مركز الشغيلة، وإن كان اتجاه الاصلاح الاقتصادي إلى مؤازرة المستهلكين ينطوي فيما ينطوي على ميول مناوئة للبيروقراطية . ولكن بريجنيف وكوسيغين لم يجدا نفسيهما ملزمين بالسير على خطى خروتشيف ، بعد فترة من الاحتراز والجمود ، في أي ميدان كما في ميدان السياسية الخارجية . ففيما يتعلق بالنزاع مع الصين ، قُطع حبل الصمت ، والمساجلة تدور علانية الآن ، وإن كان الأمر لم يصل بالجانب الروسي إلى حد الزعيق كما في أواخر أيام خروتشيف . وصحيح أن الاحتداد والتعنيف المتواصل من جانب الماويين ، وكذلك الثورة الثقافية المزعومة ، كان لها دورها في إضرام نار هذه الخصومات الجديدة ، ولكن هذا لا يغير شيئاً من حقيقة أن تجدد المناظرة يعزز بالحتم والضرورة المناخ القومي النزعة في الاتحاد السوفياتي ، ويبرز ما فيه من جوانب عنصرية خفية . وعلى الصعيد الدبلوماسي تنوب عن مرحلة ١٩٦٤ – ١٩٦٥ المتسمة بجمود محرج مرحلة متميزة بشيء من

---

١ (ملاحظة أضيفت في تموز ١٩٦٧) . هذا بالطبع قبل أشهر قليلة من أزمة الشرق الأوسط والحرب الإسرائيلية – العربية في حزيران ١٩٦٧ . فبعد أيام من هذه الحرب كتبت « كراسنايا برافدا » تقول إنه من المحتمل أن يكون قد آن أوان إعادة النظر في التصور السوفياتي الرسمي عن « التعايش السلمي » .

النشاط والفاعلية . ولم يحرم رئيس الوزراء السوفياتي نفسه ، في الشهور الماضيــة القليلة ، من ممارسة تلك الدبلوماسية الشخصية التي كــان هو وبريجينيف قد وجها اليها سهام نقدهما منذ زمن ليس ببعيد[1] . وقد جاء توقيع المعاهدة السوفياتية ـ الأميركية الأخيرة حول عدم استخدام الأسلحة النووية في الفضاء ليشهد شهادة صارخــة على هذه العودة إلى الدبلوماسية كما كان يفهمها خروتشيف وإلى تأويله للتعايش السلمي . والمهم ههنا ليس المعاهدة في حد ذاتها ، وإن تكن بالبداهة قابلة للنقاش ، وإنما اللحظة التي وقع عليها الاختيـار لابرامها : فلا شك في أن « صقور » موسكو العسكريين لم يجدوا الوقت مناسباً لتوقيع تلك المعاهدة بالنظر إلى التصعيد الأميركي للحرب في فيتنـــام ، كما أن الصقور ليسوا الوحيدين الذيـــن يشعرون بالضيق والحرج إزاء الدور الذي يلعبه الاتحاد السوفياتي في الحرب الفيتناميـــة . ولا مراء في أن الأحداث الأخيرة أسهمت بقسط وافر في استفحال النزاع مع الصين . فقد حفز منطق الوضع القائم القادة الحاليين على صنع ما صنعه خروتشيف : أي محاولـــة استمالة الأحزاب الشيوعية الأجنبية ضد الصين والحصول منها على إدانة رسمية للماوية . ولئن أبدت الأحزاب الشيوعيـــة نفس النفور والتأبي الذي كانت قد أبدته أيـــام خروتشيف ، فإن هذه الواقعة تسترعي الاهتمام حقاً ، ولا سيما أن الصينيين قد فعلوا إبان ذلك كل ما في وسعهم أن يفعلوه لاعلاء المركز السوفياتي من جديد داخل الحركة الشيوعية .

ويخيل إلي أن السياسة السوفياتية تتجـــه في الواقع نحو طريق مسدود شديد الشبه بذاك الذي تواجد في عام ١٩٦٤ . ففي الداخل لا تستطيع الخروتشيفية بلا خروتشيف أن تلجم أو أن توقف اندفاع التيارات المتناقضة

---

[1] كان ذلك يقال أيضاً قبل اجتماع الرئيس جونسون ورئيس الوزراء كوسيغين في غلا سبورو حيث جرى من جديد ، وإن بشيء من الخجل والحياء ، انتهاج « الدبلوماسية الشخصية » .

الذي لا يني يتعاظم . وفي وسع المرء أن يتساءل حقاً عما اذا كان في مقدور حكومة من الحكومات أو حزب من الأحزاب الافلات من مثل هذا المأزق الشائك من دون أن تُطلق لتلك التيارات حرية التعبير العلني عن نفسها . أجل ، إن أي حكومة ، مهما تكن ، ستقف عاجزة عن ذلك إذا لم تعقد العزم على المضي باللاستلنة إلى نهاية مطافها اشتراكياً وديموقراطياً ، أي إلى إباحة التواجه المكشوف بين التيارات الأيديولوجية والسياسية التي لا تجد لها في الوقت الراهن متنفساً . وليس في الامكان تقويم هذه التيارات ووزن قوة كل منها إلا في إطار مناظرة عامة ، على مستوى الأمة ، تتيح للمجتمع السوفياتي إمكانية تقرير مصيره بنفسه على الصعيد الأيديولوجي . وكذلك الحال فيما يتعلق بالشؤون الخارجية : إذ لن يكون في مستطاع أي حكومة أو أي حزب ما يزال مشرباً بتلك الأنانية القومية التي جعل منها ستالين عادة مقدسة بالنسبة إلى جيل القادة الحاليين أن يضع حداً لتحلل الكتلة السوفياتية . وعلى فرض أن في الامكان التغلب على القوى النابذه ، المبتعدة عن المركز ، التي تنشط اليوم داخل صفوف الشيوعية ، فإن ذلك لن يكون مستطاعاً إلا على أساس نزعة أممية اشتراكية ذات اتجاه ديموقراطي . أما السؤال المتعلق بمعرفة ما إذا كان هناك وجود لحركة كهذه قوية بما فيه الكفاية ، فإنني لست أهلاً للإجابة عليه . ولا مراء في أن حرب فيتنام وعاقبة الأزمة الصينية سيكون لهما تأثيرهما على مجرى الأحداث في الاتحاد السوفياتي وعلى التوازن الأيديولوجي . ومهما يكن من أمر ، فإن علينا ألا نسلم بواقع أنه لا يحدث في الظاهر من شيء ذي بال أو أهمية منذ سقوط خروتشيف . فلنا في هذا الخصوص كما في غيره درس في الانفجار الصيني . من كان يصدق قبل عامين لا اكثر أن المرجل يغلي وراء وجهة الصين الأحادية الصخر ، وأن تناقضات « عدائية » للغاية في بعض الأحوال ، ستنفجر في وجه ماو ؟ إنني لا أزعم أنني على معرفة بأن البارومتر السياسي في الاتحاد

السوفياتي ينذر هو الآخر بهبوب عاصفة . فمن الممكن كل الامكان أن تكون المصاعب الراهنة محض استمرار واستطالة للأزمة المزمنة التي يعاني منها الاتحاد السوفياتي منذ وفاة ستالين ، ولكن من الممكن أيضاً أن تقود تلك المصاعب هذه الأزمة إلى منعطف وعر ومذهل .

الفهرست

تقديم	٥
حداثة لينين	١٣
الماركسية في عصرنا	٨٩
الإنسان الاشتراكي	١٠٧
جذور البيروقراطية	١٢٧
حول الأممية والنزعة الأممية	١٥٩
التيارات الايديولوجية في الاتحاد السوفياتي	١٨٢

مكتبة بغداد

من منشورات دار الآداب

الانسان ذو البعد الواحد	هربرت ماركوز
ماركسية القرن العشرين	روجيه غارودي
ثورة في الثورة	ريجي دوبريه
دفاعاً عن الثورية	« «
الاشتراكية والتسيير الذاتي	البير ميستر
متى يطلع الفجر يا رفيق	جان بول اوليفيه
صين مـاو	ك. س. كارول
الفكر العربي في معركة النهضة	انور عبد الملك
ثورة الامل	اريك فروم